

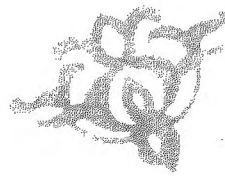
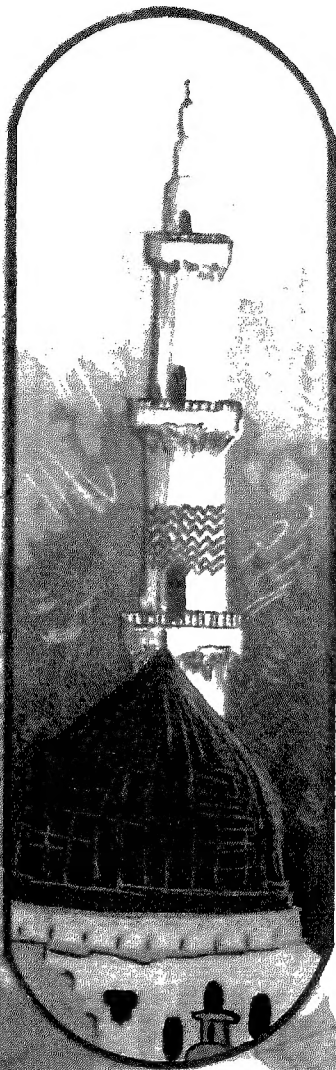
السيرة النبوية

وكيف جرفها المستشرقون

ترجمة
محمد عبد العظيم علي

نقد وتحقيق وتصويب

عبد النعمان محمد الحبري



GIFTS OF 2002

ا/ محمد عبد العظيم على
الإسكندرية

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ
وَكَيْفَ جَرَفَهَا الْمُسْتَشْرِقُونَ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

٩٤/٢٤٨٥	رقم الإيداع القانوني
977-253-059-7	الترقيم الدولي

دار الدعوة
للطباعة والنشر والتوزيع
إشاعة منشأة محمد بك - إسكندرية ١٩١٤-٤٩

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

وَكَيْفَ حَرَفَهَا الْمُسْتَشْرِقُونَ

ترجمة
محمد عبد العظيم علي

نقد وتحقيق وتصويب
عبد المical محمد الحبري



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم *
إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم
الكاذبون * من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه
مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب
من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا
على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين * أولئك الذين
طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون *
لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون *

(النحل ١٠٤-١٠٩)

تقديم الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كثير إيراد التهم والأباطيل حول الإسلام في المجلات والكتب والصحافة .. حيث تحشد كل محاولات التشكيك والافتراءات .. مع استخدام أساليب الغش والخداع ، وحشد الكفاءات المتخصصة لإنجاح خطط منظمة ، ونية مبيتة ، وحملة معبأة ، تحاول تتبع جذور مقومات الشخصية الإسلامية وتحاول هدمها :

- * فأول ما بدأت حاولت هدم اللغة العربية وإلغاء استعمال الحروف العربية .
- * وتبعتها محاولات التشكيك في صحة القرآن ونزوله من عند الله ، مع إشاعة التضارب في أحكامه .
- * ثم الدعوة لإلغاء الأخذ بالحديث النبوي الشريف إطلاقاً .
- * ثم تقديم أفكار جديدة وغريبة عن الغيبيات وفلسفة العبادات .
- * ثم محاولات مستميتة لتقديم أحكام في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية مأخوذة عن روايات شاذة أو موضوعة .
- * ومع كل هذه المحاولات تطعيم مشترك للنيل من شخصية الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو عرض كامل ، لمختصر حياة محمد ، أعده المستشرق الفرنسي م . سقارى ، لفق فيه أحداث السيرة ، وصور فيه النبي على أنه شخصية فذة وعبقورية . استطاع بقوة شخصيته ، وقوة مواهبه ، والصدف المدهشة التي ساعدته - بالإضافة إلى دهائه السياسى وملكنه الأدبية - استطاع أن يسيطر على العرب ، وأن يوجههم بأنه نبي مرسل ، حتى أنه أتقن دوره التمثيلى في ساعات الاحتضار كما يزعمون .

والذى يسترعى الانتباه ، دقة المؤلف في ترتيب الأحداث التاريخية لتحقيق غرضه ، وإفادته من أخطاء المؤرخين والمؤلفين والكتّاب المسلمين ، وعرض هذه الأخطاء على أنها شهادة لا يجوز الطعن فيها .

وقد ترجم الأصل الفرنسى الاستاذ محمد عبد العظيم على ، وجاءت ترجمته أمينة ودقيقة .

وتم إعداد رد من متخصص فى السيرة على افتراءات هذا المستشرق ، كشف فيه أساليب المستشرقين عموما وفضحهم علميا ، وأثبت عدم أمانتهم العلمية رغم ثقة الناس بهم ثقة عمياء - وهى ما يعتمدون عليها فى ترويج سمومهم فى العالم الإسلامى خاصة وفى العالم كله عامة . وقد اختير لهذا العمل الجليل الاستاذ الكبير الدكتور/ عبد المتعال محمد الجبرى - خريج دار العلوم بالقاهرة وصاحب دراسات مستفيضة فى السيرة النبوية فى مؤلفات عديدة . وقد أعطى هذا الموضوع حقه بأمانة وإخلاص .

ونسأل الله أولاً أن يكون مقبولا عنده . والله من وراء القصد .

أسعد سيد أحمد

ورد عن المؤلف بالقاموس الموسوعي « لاروس » (المجلد السابع)

SAVARY (Claude - Etienne)

سفاري (كلود- إتيان) رحالة ومستشرق فرنسي مولود بمدينة قنطرة بفرنسا عام ١٧٥٠ ومتوفي بباريس عام ١٧٨٨ .

* من عام ١٧٧٦ إلى ١٧٨١ دفعه شغفه للترحال إلى زيارة مصر واليونان .

واعتمد على مذكراته في كتابة « رسائل عن مصر » (١٧٨٨ - ١٧٨٩)

و« رسائل (غير مستكملة) عن اليونان » (١٧٨٨) .

* ونشرت له ترجمة متميزة بالفرنسية للقرآن عام ١٧٨٣ .

* ومن كتبه أيضا « غراميات أنس الوجود » مترجمة عن اللغة العربية . وكتاب عن

« قواعد اللغة العربية العامية والفصحى » .

المترجم

كلمة الناشر

هذا المختصر هو دراسة تمهيدية مضافة إلى ترجمة باللغة الفرنسية للقرآن الكريم بأكمله، أعدها م . سفارى ، فى ٢٩ من أبريل عام ١٧٨٢ (الطبعة الأولى) . وترجمت هذه الدراسة إلى اللغة العربية عن طبعة سنة ١٩٢٣ ، مطبعة لوتيتيا . باريس . فرنسا . والناشر مكتبة إخوان جارنييه ٦ شارع سان بير . باريس . فرنسا .

LIBRAIRIE GARNIER FRERES

6 RUE DES SAINTS-PERES

PARIS-FRANCE.

وقد تولى نقلها إلى العربية الأستاذ محمد عبد العظيم على ، وتولى الأستاذ الدكتور عبد المتعال محمد الجبرى تحليل هذه الدراسة، ونقدها ، والتقديم لها ، ورد النصوص العربية فى الأصل الفرنسى إلى العربية، وتحقيق الأعلام وأسماء الأماكن ، وإضافة ما يلزم لتحديد ما من بيان نسب الشخص أو جهة المكان . كما قام بتبويبه والعنونة للموضوعات، ثم عمل ثبت بها ييسر للقارئ الرجوع إليه ، وأضاف إلى مراجع المؤلف الفرنسى بعض المراجع الأخرى التى تناولت ما فى مراجع المؤلف ، زيادة للفائدة .

ولما كان المرجع الرئيسى للمؤلف هو أبو الفداء ، ولم يعرف من هو الناشر لمرجه، فقد تفضل الأستاذ الدكتور الجبرى فرجع إلى كل فقرة ذكر لها مرجع فى الكتاب يبين الصفحات فى أبى الفداء وفى غيره من المراجع محدداً الطباعات التى يرجع فيها إلى هذه المراجع ، وقد كان م . سفارى ، يضع أسماء بعض المراجع وهى غفل من بيان الصفحات ، فضلاً عن ذكر الناشر أو تحديد الطبعة، فأتم الأستاذ الدكتور الجبرى هذا العمل ، فجميع ما ذكر فى الكتاب من صفحات المراجع حققها الأستاذ الدكتور الجبرى وهى فى مجملها من عمله .

وبهذا صار كتاب م . سفارى ، ذا قيمة كبيرة لأن ما فيه من حقائق كشف عن حقيقة مراجعها كاتبنا الكبير مبينا صدق نقل م . سفارى ، أو خطأه أو كذبه .

ولما كانت النصوص التي ينقلها «سفاري» ، يصيبها الضعف في نقله لها من المصادر العربية، فإن الأستاذ الدكتور الجبري تولى ردها إلى هذه المصادر الأصلية ، وجعلها أمام القارئ في صيغتها العربية الأصلية ، مما جعل بعض فقرات الكتاب تحمل أسلوب عصر غير أسلوب عصر المترجم العربي .

وقد حرصنا في طبع الكتاب على التمييز بين ألفاظ «سفاري» ، وبين ما هو من عمل الأستاذ الدكتور الجبري- المحقق الناقد- فوضعنا كل ما هو جهد مضاف إلى كتاب «سفاري» ، بين قوسين مصلعين كذا [] وطبع بينط أسود لتمييزه عن الأصل المترجم . الذي طبع بينط أبيض . فجاء الكتاب صورة صادقة للحقيقة التي أرادها المحقق الناقد ، ولما أراد المستشرق ، ولما نريده من إعطاء القارئ وجهة النظر «وهدناه النجدين» والله يهدي إلى الحق بإذنه ويهدي إلى صراط مستقيم .

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة المحقق الناقد

نحمد الله على نعمائه ونصلي ونسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه والسالكين طريقهم إلى يوم الدين وبعد .

فبين يدي القارئ دراسة هامة لجانب من الدراسات الإسلامية والتاريخية لها طابع خاص تنفرد به ، إذ أنها تتناول سيرة النبي ﷺ بإيجاز ولكنه شامل كل جوانب السيرة . وهي في هذا التناول تعرض السيرة من وجهة نظر المستشرقين الكتابيين - يهوداً أو نصارى - فالكتاب إذن يمتاز بأنه يرينا - من هذه الناحية - كيف يطل كبار كتاب الغرب على تاريخ نبينا ، وكيف ينظرون إلى رسولنا ورسالته معاً . وكيف يطلون دم الحقيقة في غير خجل ولا استحياء . وكل كاتب تنطبع كتاباته بثقافته ومعتقداته ومشاعره حباً أو بغضاً . فلا بدع أن جاءت كتابة المستشرقين وهم على النقيض من الإسلام وفيها مشاعرهم وثقافتهم الكنسية .. وهم يختلفون في المدى الذي تندفع إليه مشاعرهم الساخطة على دين ينادونه ، بين رذاذ وصيب منهم .

وقد اخترنا من المستشرقين « م . سفاري » وهو مستشرق فرنسي ألف « مختصر حياة محمد » وقد اعتمد فيه على « أبي الفداء » وعلى « ابن سيد الناس » المتوفى سنة ٧٣٤هـ بالقاهرة .

و « ابن سيد الناس » هذا قد أخذ عن بهاء الدين عبد المحسن ، أحد رواة الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، وابن سعد وبهاء الدين ليسا من ثقات المحدثين ، ولذا فإن اعتماد المستشرق « سفاري » عليه اعتماد على أقوال وإهية لا يحتج بها .

والمختصر إنما هو مقدمة كتبها سفاري لترجمة القرآن الكريم بالفرنسية ، قال إنه ترجمه عن العربية ، بعد أن زار القاهرة واتصل بأهل القرآن ودرس لغتهم . وطبعت الترجمة الفرنسية لأول مرة في ٢٩ من أبريل سنة ١٧٨٢ وهو نموذج لكتابات المستشرقين . وقد نقله بأمانة إلى العربية زميلي الأستاذ / محمد عبد العظيم على ، وقد توليت تبويبه وتحقيق نصوصه وبخاصة المروية عن رسول الله ﷺ ، ورجعت إلى

المراجع الهامة التي تناولت كل نقطة في المختصر، وبخاصة ما رأيت أن فيه مخالفة للحقيقة إذ عدت إلى الأصول التي ينقل عنها وينسب إليها روايته ليكون الحكم على أمانته العلمية حكم البصير الذي في يده الدليل المادى ، وفي الأسماء التي تردت في الكتاب متاهة . فمثلاً بنو سليم ، كثيرون ، ولم يحدد المستشرق أيهم يريد ، وهكذا قل في أسماء البقاع، وكان لزاماً علينا أن نضيف إلى الأسماء ما يحدد المراد ، وجعلنا هذه الإضافة أحياناً في الهامش ، وكثيراً ما يكون ذلك في صلب المختصر .

وكان أكثر اعتماد المستشرق « سفارى » على تاريخ أبى الفداء ، صاحب حماة ، وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء ، إسماعيل بن السلطان الملك الأفضل نور الدين أبى الحسن على . وينتهى نسبه إلى السلطان الملك الأفضل أبى الشكر نجم الدين أيوب، والد السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وقد جمع «أبو الفداء» تاريخه من المراجع الكبرى الجامعة فى أربعة أجزاء سماه «المختصر فى أخبار البشر» . وقد ذكر أبو الفداء أنه كتاب مختصر من «الكامل» لابن الأثير الجزرى و «تجارب الأمم» لأبى على أحمد بن مسكويه وغيرهما من الكتب .

وكتاب أبى الفداء من كتب التاريخ العام تناول بدء الخليقة حتى عصر الرسول ثم مضى مع الزمن يؤرخ له حتى توفى .

وقد نشرته دار الطباعة العامرة الشاهانية بالقسطنطينية فى أواخر ذى الحجة الحرام ختام عام ١١٨٦ هـ وقد ألحق بالكتاب تاريخ السنوات التى أعقبت وفاته حتى عام ٧٤٨ هـ ، وقد اعتمدت فى مراجعة ما نقله سفارى عن أبى الفداء على هذه الطبعة ، ووضعت أرقام الصفحات بالكتاب طبقاً لها ليرجع إليها من يشاء . والجزء الخاص بالسيرة ضمن الجزء الأول ، وقد ترجم فى جزء خاص اعتمد عليه المستشرق وسمى هذا الجزء «حياة محمد» . ولذا فإن أرقام المستشرق لا تفيدنا لأنه لم يحدد أى طبعة نقل عنها .

وقد حظى كتاب أبى الفداء باهتمام المستشرقين . فنشر الجزء الخاص بالعصر الجاهلى منه المستشرق الألمانى أفريتاج (١٧٨٨-١٨٦١) م وكان نشره عام ١٨٣٧ م

وهكذا نشر الجزء الخاص بالعرب قبل الإسلام المستشرق سبيتا (SPITTA) (١٨٨٣-١٨١٨) م.

وترجم نفس الجزء فليشر الألمانى (١٨٠١-١٨٨٨) م وعلق حواشيه ، وطبع فى «ليبيج» ، عام ١٨٣١ ، كما ترجم الكتاب جميعه بالألمانية المستشرق «مسيكه» ، كما نقله إلى اللاتينية المستشرق «رايشكه» (١٧١٦-١٧٩٤) م وكان ذلك عام ١٧٥٤ وتم ذلك فى خمس مجلدات .

ولأبى الفداء كتاب آخر فى الجغرافيا ذكره «سفارى» ، وقد ترجمه «جويار» عام (١٨٢٤-١٨٨٤) الذى مات منتحراً . كما ترجمه فى أواسط القرن الماضى المستشرق «رينو» بمساعدة البارون «دى سلان» (١٨٧٩) . ومن الأبحاث الهامة لأبى الفداء فى الفلك كشفه عن «القاعدة الثانية لحركة القمر» وهو أول من وصل إلى هذا كما قال «سيديو» الفرنسى .

وسيجد القارئ تبانيا فى الأسلوب ، وذلك أنى رددت بعض النصوص إلى أصلها المروى بصيغة عصورها الموهلة فى القدم ، ولكل عصر طابعه الخاص فى الأسلوب والتفكير .

وسيجد القارئ فى هذا الكتاب :

— مختصر المستشرق «سفارى» الذى نقله إلى العربية فى أمانة ودقة كاملتين أخصى الأستاذ محمد عبد العظيم على ... وفيه المغالطات والمفتريات الحاقدة - صراحة أو مواربة - ولم ندعها تمر ، بل أهوينا عليها بمعول الحق فإذا الباطل زاهق «ودمرنا ماكانوا يصنعون» . وأشرنا إلى أباطيل غير «سفارى» من المستشرقين كذلك فى النقاط التى لم يثرها وأثارها أمثاله من خصوم الإسلام والشرق ، حتى يكون قارئ الكتاب فى حصن ومنعة من كيد الماكرين الغربيين ، لو أنه ذهب إلى الغرب يوماً أو أحاطت به ثقافة الغرب بوسيلة ما من الوسائل ، ولتكون الصورة متكاملة للفكر والاستشراق عن السيرة المحمدية .

والكتاب بعد هذا الجهد المضنى الذى بذل سواء فى ترجمته ، أو فى التنقيب أصل كل فكرة فيه ، والإرشاد إلى خطئها ومطابقتها فى المراجع العربية ، وتحقيق

الأعلام والتعريف بالأماكن ، ثم تتبع كل فكرة خبيثة قالها المستشرقون فى مجال السيرة النبوية المطهرة - يعد حلاً راد كثيرين من الغيورين على الإسلام ، وعملاً هاماً لا تستغنى عنه المكتبة الإسلامية ويحتاجه كل قارئ - وبخاصة الذين يتصدون للدعوة إلى الإسلام - ، ورواد الشباب فى هذا العصر الذى أغرق فى الثقافات الأجنبية حتى أصبح أجنبى الفكر والعقيدة والتصور ، وإن كان عربى الاسم والمولد ، بل إن كل باحث فى الإسلام عامة وفى السيرة بوجه خاص لفى حاجة ماسة إلى هذه الدراسة التى حاولت أن أجعلها مركزة ، لأنها تعطينا الخيط الفكرى الحاقط على الإسلام فى ظلال قصة السيرة النبوية المطهرة وتحت لواء البحث العلمى الحر النزيه ، ما هو يعلم ولا نزيه ، وتمنح القارئ الأدلة الكافية التى يسلطها على هذه الترهات فيذيبها كما يذيب وهج الشمس بريق الجليد .

لقد قمت بتصويب المعلومات الخاطئة التى ذكرها المستشرقون عن الشريعة كالتى أوردها « سفارى » عندما تناول موضوع الحج .

وردت المصطلحات الإسلامية إلى صيغتها العربية بدلاً من البديل الذى اعتمد عليه « سفارى » جرياً وراء مصطلحات الديانة المسيحية ، فإن لكل مصطلح ظلالاً خاصة يضيفها حول المعنى المراد من اللفظ الإسطلاحى . فتحريفه المصطلحات الإسلامية بغية تقريب الصورة إلى القارئ المسيحى يشوه الحقيقة ، وربما كان المراد توطيد هذه المصطلحات فى نفس القراء وحجب المصطلحات الإسلامية .. كيما يبدو الإسلام فى صورة الفكر الذى جاء أخيراً مسروقاً مما سبقه من أديان وأفكار ... وهذا الغرض الخبيث يتمشى مع ما قذف به آديسون Adisson رسول الله إذ قال « لم يستطع محمد فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن فى خياله منها إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذى جاء به إلى العرب » ، ومثله فى هذا هنرى جيسب - المستشرق الأمريكى - الذى قال « المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها . إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون ، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم » .

كما تم تصحيح الفهم الخاطئ الذى وقع فيه المستشرق نتيجة جهله للمدلول اللغوى . فقد يكون للكلمة معنى فى اللغة الدارجة (العامية) غير معناها فى اللغة الفصحى ، فيسلك المستشرق فى فهمه للعبارة طريق « العامية » . وبهذا يقع فى الخطأ .

وربما كان للكلمة مدلولان باعتبارين فيحمل اللفظ على غير محمله .

وربما وقع الكاتب في الخطأ نتيجة لخطئه في منهج البحث ، وجهله أو تجاهله قواعد المنطق وعلم الحديث ، وبخاصة ، علم الرجال ، أى رواية الحديث ، كما فى زعمه تخصيص على بن أبى طالب بالأكل مع النبى ﷺ فى حجة الوداع ورفضه عليه السلام أن يأكل معهما غيرهما ، وهذا مما افتراه على النبى الشيعية . وبينما ما دخله التحريف من النصوص . كما فى الحديث عن الاستبراء من حقوق الآخرين .

وربما لجأ المؤلف إلى تفسير الظواهر الإجتماعية والتقاليد السياسية التى كانت فى العصر الجاهلى لدى العرب وصدر الإسلام بما هو قائم فى العصور الأخيرة لدى الغربيين ، بالرغم من اختلاف الطبائع والبيئات وأنماط الشخصيات والبواعث العامة فى كل بيئة ، والمفاهيم (الأيديولوجيات) الموروثة التى تحكم كلاً من المجتمع العربى فى الجاهلية والمجتمعات الغربية فى العصر الحديث .. وإنما يلجأ الكاتب إلى هذا مع وضوح الخطأ فى منهج البحث وفى أسلوب التفكير لمجرد تفسير تاريخ الإسلام والرسول فى الصور البغيضة ، تقريباً منه إلى الكنيسة ، أو تملاً للجماهير ، أو رغبة فى رواج كتابه ، أو إشباعاً للحقد الدفين على الإسلام ورسوله ، أو إيغاراً لصدور قرائه من بنى جلدته على المسلمين ، وتحقيراً لشأن المشرق حتى يشد من عزائم ساسة الغرب والطموحين إلى غزوه «يريدون لطفوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

الدكتور عبد المتعال محمد الجبرى .

مختصر حياة محمد

الباب الأول

العهد النبوي

الفصل الأول : ما قبل البعثة .

الفصل الثاني : الرسالة في العهد المبكر .

[الفصل الاول : ما قبل البعثة]

مختصر حياة محمد

دراسة مقتبسة من مؤلفات أشهر الكتاب العرب ومن الترجمات الصحيحة للسنة^(١)

[مولد الرسول ونسبه]

عام ٦١٦٣ من هبوط آدم - حسب تقدير أبي الفداء عام ٥٧٨ من ميلاد المسيح ، و ٥٣ ق هـ . وقيل عام ٥٧٠ م وهو الذى ذهب إليه د . محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» ص ١٠٦ ط ثانية [.

ولد محمد^(٢) - الذى يلقبه المسلمون [١٩] بالرسول والنبي تمجيداً وتعظيماً له - فى بداية حرب الفيل^(٣) بمكة^(٤) وأبوه هو عبد الله بن عبد المطلب ، وأمه هى آمنه بنت وهب أمير بنى زهرة ، ويرجع أصلها إلى قبيلة قريش أشهر قبائل العرب .

وهذه الأمة التى لا مثيل لها فى الاهتمام بحفظ الأنساب ، احتفظت بسلسلة أنسابها بدقة تامة ، ولقد وضع لنا أبو الفداء - أمير حماة وأشهر الكتاب العرب - شجرة عائلة محمد فى كتابه « التاريخ العام » فأرجع أصله إلى آدم عن طريق إبراهيم وإسماعيل . وسنكتفى بنقل حلقات نسبه التى أوردها حتى بلغ هذين الشيخين . فهو أبو القاسم^(٥) محمد بن عبد الله بن

(١) السنة . هى جماع الأثر النبوى . وسلطتها التشريعية فى نظر المسلمين تشبه سلطة القانون الشفوى عند اليهود .

(٢) ينطقها المسلمون [العوام] « مُحَمَّد » إلا أن ما يكتونه لهذا الاسم من تقديس لا يجعلهم ينطقون به من غير أن يضيفوا إليه « النبى » أو « رسول الله » .

(٣) سميت هذه الحرب هكذا ، لأن « أبرهة » أمير اليمن - كان قد أعلن الحرب على قريش ، وأتى إلى مكة بتمتطيناً فيلاً لهدم الكعبة ، وقد هلك هو وجيشه (أبو الفداء) . [ج ١ ص ١١٤ - ١١٥]

(٤) تقع مكة فى واد غير خصيب ، وطولها فرسخ وعرضها نصف فرسخ ، وتحيط بها الصحارى القاحلة ، والأراضى الصخرية ، ويعتبر ماء زمزم - الذى كشفه الملاك لهاجر - المصدر الوحيد للماء العذب . يستخدم السكان الخزانات لجمع ماء المطر ، وقد فشلت مشروعات كثيرة لتوصيل مياه الجبال المجاورة إليها ، ولكن إحدى زوجات سليمان - الأمبراطور التركى - أقامت مشروعاً على نفقتها وحالفها التوفيق .

(٥) بعد أن رزق « محمد » من زوجته الأولى « خديجة » بولد اسمه القاسم ، كنى به وأصبح ينادى « أبو القاسم محمد » كما هى عادة العرب فى أخذ اسم الابن الأول [عند الكنية] .

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ^(١) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

إلى هنا وسلسلة النسب غير مضطربة ، فكل علماء الأنساب يعتبرونها صحيحة . كما أن عدنان هو من نسل إسماعيل ، وهذه أيضاً حقيقة يحفظها التاريخ ، ولكن المؤرخين يملأون الفراغ بينهما بطرق مختلفة ، وسوف لا نتوقف عند مناقشات قد لا تهمنا كثيراً .

كما أن عدنان هو من نسل إسماعيل ، وهذه أيضاً حقيقة يحفظها التاريخ ، « فالجمهرة » [جمهرة الأنساب ، لأبي المنذر بن هشام بن الكلبي (المتوفى عام ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ = ٨١٩ أو ٨٢١ م) وهو أوسع وأول من كتب كتاباً يحمل اسم « جمهرة الأنساب »] وهو الذي مجده أبو الفداء - يكمل هذه السلسلة على النحو التالي : « عدنان بن أد بن أدر بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن ثابت [ويقال : ثبت] بن حمل بن قيذار [ويقال : قيذر] بن إسماعيل ... (٢) » .

[مهاجمة إسماعيل]

وبعد أن طرد أبو العرب من منزل أبيه [١٩] جاء ليستقر بمكة مع أمه « هاجر » حيث بنى الكعبة عام ٢٧٩٣ ق هـ (٣) .

[هكذا حمل التعصب المستشرق على إظهار إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما

(١) ويسمى « حكيماً » أيضاً .

(٢) [نسب قریش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ص ٣ ، ٤ طدار المعارف للطباعة والنشر . ذخائر العرب . حققه ونشره لأول مرة أ . ليفي برونفيسال ، وهناك روايات أخرى في الطبقات ١٨ ، ١٩] .

(٣) يرى العرب أن الكعبة هي أول معبد أقامه الناس لعبادة الله . ويذكر التاريخ أن بناءها سبق بناء معبد « أورشليم » ب ٩٩٣ سنة أي بأكثر من ألفي عام ق . م . ويوحى اسمها « الكعبة » أي المربعة بأنها بنيت في زمن كان الناس فيه يجهلون فن العمارة ، فقد انحصر علمهم في إقامة أربعة جدران تكون مربعاً ، هكذا كان شكل الأبنية الأولى التي أقامتها سواعد الرجال [البداية صحيحة ، ولكن استنباط « سفاري » ، هذا من شكل البناء استنباط فاسد ، إذ أن بناء البيت الكريم لتجمع عام ليس هناك شكل افضل له من أن يكون مربعاً وخالياً من الجدر التي تقسمه حجرات ، وذلك ليكون توزيع الصوت في أرجائه توزيعاً عادلاً وسليماً ، وبخاصة وأنه لم تكن هنالك مكبرات صوت] .

السلام - فى صورة المنبوذ من أبيه إبراهيم أبى الأنبياء ، وإسماعيل هو أخو إسحاق أبى أنبياء بنى إسرائيل ، فقال الكاتب « طرد أبو العرب » . [

] ومع أن الكاتب يذكر هذا فى مقدمة ترجمة للقرآن ، فقد تناسى أن القرآن لم يذكر أن إسماعيل كان مطروداً ، وأنما - على النقيض - ذكر القرآن ، أن إبراهيم هو الذى أخذ إسماعيل صغيراً إلى المكان الذى أقيم عليه المسجد الحرام ، وأسكنه بنفسه هناك داعياً له بالبركات « ربنا إني أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (إبراهيم : ٣٧) . ثم ذكر القرآن أن إسماعيل هذا كان نعمة من الله جديرة بالحمد « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ، إن ربي لسميع الدعاء » ، إبراهيم : ٣٩ . [

] فهو يقرنه بإسحاق عند شكره لأنعم الله عليه ، ولو أن إسماعيل كان مطروداً لكان طرده يقتضى دعاء ينم بالنقمة عليه والبغض له ، وليس الشكر لله على أن وهبه هو وإسحاق له . . . عليهم السلام ، ولكن « سفارى » لا يريد أن يكتب الحقيقة ، وإنما يريد التشويه لتاريخ محمد ﷺ بل التشويه لكل ما يتصل به ﷺ ولو كان فى أقدم العصور . [

] وأنه لا يخفى أن هذه الصورة المشوهة لجد محمد الأعلى تمضى مع علم النفس الحديث فى خدمة غرض واحد ، إذ يقرر علم النفس أثر الوراثة فى الأحفاد ، فالجد الشرير تشبهه ذريته ، والعكس صحيح . هذه ناحية . [

] والناحية الثانية أن « سفارى » يلقى - فى عالم الأفكار بكلمته ، وكأنها قضية تاريخية مسلمة ، وكأن القرآن - حين ذكر نقيضها - لا يذكر الحقيقة ، وإنما يذكر أساطير . وهذا خبث فى الطوية ، « ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم » (محمد : ٣٠) . [(١)

[رسالة إسماعيل]

ويقول الكتاب المسلمون : إن السماء أرسلت إلى إسماعيل أباه إبراهيم ليساعده فى بناء

(١) [أبو الفداء : ج ١ ص ١٥ ط دار الطباعة العامرة الشاهانية بقسطنطينية عام ١٢٨٦ وهذه الطبعة التى سنقول عليها فى ذكر الصفحات التى نقل منها « سفارى » معلوماته موضوعه بين قوسين هكذا [...] .

الكعبة [وهنا يهمل سفارى ما ذكره أبو الفداء الذى عول عليه فى كتابه من أن الله هو الذى أرسل إليه إبراهيم . وعبارة الكاتب تحمل فى تضاعيفها التشكيك فى إرسال السماء إبراهيم ليبنى مع ولده إسماعيل الكعبة حرصاً منه على تخفيف ما للكعبة من قدسية الإنتماء لإبراهيم لدى المسلمين ، ولدى غيرهم من النصارى واليهود ، وهو فى الوقت ذاته يشكك فى القرآن الذى يترجمه حين يقرر هذه المشاركة وهذا البعث والتكليف . «وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود» (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ثم يؤكد إنتماء الأمة الإسلامية العربية لإبراهيم وإسماعيل مبشراً بنبوة محمد عليه السلام «ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسلاً منهم يثلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ثم يلعن الذين ينحرفون عن ملة إبراهيم التى بعث محمد بتجديدها ويحقرهم «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه» (البقرة : ١٢٥ - ١٣٠) .

[وكتابة « سفارى ، بهذا النهج تحمل أول الأدلة على الكفر بالقرآن الذى يترجمه ، ولهذا فإنه يرفض مقرراته التاريخية ، ولا يجعل لها أى قدسية ، بل ويشذ عزمته لتشيوها ، بل إن الكاتب بعمله هذا يحجب ما فى كتابه المقدس عن إسماعيل وذريته من تمجيد وتكريم ، وفى كتاب أشعيا الباب ٤٢ أن الدين الجديد فى بيوت قيثار بن إسماعيل^(١) ، وفى سفر الاستثناء الباب ٣٦ ما نصه (جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران) وتوضيح ذلك أن مجيء الرب من سيناء كناية عن إعطائه التوراة لموسى عليه السلام ، وأن إشراق الرب من ساعير كناية عن إعطائه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، وأن استعلانه من فاران كناية عن إنزاله القرآن على سيدنا محمد ﷺ لأن فاران جبل من جبال مكة ، فهى المرادة بقول التوراة : (سكن إسماعيل فى بركة فاران) لأن استعلان الله بالقرآن لم يكن إلا بمكة وما جاورها^(٢) . وفى أشعيا ص ٦٠ : ٧ (كل غنم قيثار تجتمع إليك - كباش نايت

(١) [ثبات الإيمان ونصرة القرآن فى الرد على هاشم العربى الطاعن فى القرآن فى كتابه المسمى بالتدليل ل محمد حلاوة المرصفى ص ٢٦ طبعه الامتياز بالقازيق بعد سنة ١٣٢٩ هـ] . (٢) [نفس المرجع صفحة ٣٦ : ٣٧] .

تخدمك ، تصعد إليك مقبولة على مذبحى - وأين بيت جمالى) وقيدار ونايوت (نايت) هما ابنا إسماعيل . وقوله : (تصعد مقبولة على مذبحى) ، إشارة إلى يوم الأضحى بمعنى .

[وأعجب من «سفارى» أولئك المستشرقون الذين ينكرون قصة دخول إبراهيم وادى مكة على الإطلاق ، فهو أوغل فى الفساد لما ذكرناه . وللإجماع المنقول بالتواتر .]

[تسمية النبي محمداً]

ويعتز الشرقيون بكثرة الأولاد ، فمولد ولد عندهم يعتبر يوم عيد . وأراد عبد المطلب الاحتفال بمولد حفيده (١) وكانت خدمته للكعبة قد أكسبته نفوذاً كبيراً . ومرد الفضل في توليه سدانه الكعبة - وهي أشرف المهام في الجزيرة العربية - يعود إلى فضائله الخلقية قبل شرف نسبه .

وعندئذ قام بدعوة زعماء قبيلته إلى العقيدة [وهى المأدبه التى تقام ابتهاجاً بالمولود يوم السابع] ونهض بعض المدعوين يثنون عليه وسألوه عن اسم الوليد المحتفى به فقال : « لقد سميت محمداً . قالوا ألا يحسن أن تمنحه اسماً مأثوراً عن عائلته ؟ ! فرد عليهم قائلاً : إنى أردت أن يكون محموداً فى السماء محموداً فى الأرض (٢) .

[إرهابات النبوة]

ولقد أحاطت الخوارق بنبأ ميلاد محمد مثله مثل مشاهير الرجال الذين أدهشوا الدنيا . ولا يمل الكتاب العرب من سرد هذه الخوارق ، وإذا صحت شهادتهم ، ففي لحظة ميلاده غمرت الضواحي والمدن القرية بضوء ساطع ، وطردت الشياطين من أقطار السماء ، وزلزل قصر كسرى زلزالاً شديداً ، وسقط أربعة من أبراجه ، وخمدت النار المقدسة فى بلاد فارس -

(١) أبو الفداء [جـ ١ ص ١١٠] حياة محمد : ص ٢ - [فقه السيرة ص ٦٩ ط ٤ دار الكتب الحديثة شارع الجمهورية بالقاهرة] [الطبقات جـ ١ ص ٦٤ أن هذه التسمية كانت استجابة لرؤيا أمه آمنة وهى حامل برسول الله أن تسميه أحمد] .

(٢) ومحمد : اسم مفعول لفعل حمد : ومعناه متصف بالحمد والتمجيد .

وقد كانت مشتعلة منذ أكثر من ألف سنة - وجفت بحيرة ساوه فجأة (١).

[تعقيب]

[وما قرره الكاتب من أن جفاف البحيرة المقدسة ليس له أى دلالة : أراد به مهاجمة فكرة لدى المسلمين وغيرهم : وهى أن هناك من الأحداث الاجتماعية أو الطبيعية الكبرى القاهرة ما يكون تمهيداً للرسالات السماوية ، ويسمى إرهاباً ، ولا شك أن فى إزالة البحيرة المقدسة « ساوه » من الوجود ، تخليصاً للفرس من وثنية كانت ستقف عقبة كئوداً يجتمع حولها الوثنيون لمقاومة التوحيد الإسلامى ، ولا ريب أن سقوط أى معقل للوثنية تمهيد للطريق أمام انتصار التوحيد] .

[ومنطق التفكير الدينى - منذ أربعة عشر قرناً يوجه عام - بل وخارج المجامع الأكاديمية فى العصر الحاضر - كان ولا يزال يجعل من مثل هذا الذى حدث يوم ميلاد النبي محمد ﷺ دليلاً على صدق الرسول فى دعواه ، فالتأثر الوجدانى والقلبى ، لا يخضع للمنطق الرياضى أو الارتباط العلمى بين السبب والنتيجة ، فهناك التفاؤل ، والتشاؤم ، والأمل . وغير ذلك من الأمور . لها تأثيرها الكبير فى الأفراد والمجتمعات . وهى أحوال إن رددتها إلى منطق العلوم الحديثة لا تعد شيئاً مذكوراً] .

[ومن ثم فإن بحيرة ساوه حين غاضت - ان لم يكن لغيبها أثر يوم المولد ، فقد كان له أثر بعد الرسالة حين دعى الفرس للإسلام ، فقد ارتبط الحدث الخارق بمولده ﷺ] .

[حقاً إنه أمر لا يرتبط مع مبادئ الرسالة الإسلامية وعقيدتها برباط ، ولكنه أمسى - وراء ذلك - ذا تأثير كبير فى نفوس الفرس عند دعوتهم إلى الإسلام ، وتوقيت الزلزال أو الثورة البركانية فى جوف الأرض بحيث تزلزل إيوان كسرى فيسقط مع ضخامة بنائه كما سقط غيره ، وبحيث تهبط الأرض بكسر يبلغ مائة بحيرة ساوه

(١) وقد بلغ محيط هذه البحيرة ست Parasanges (حوالى ٥٢٥٠ متراً للوحدة) وكانت تجوبها السفن الكبيرة. ولقد جفت تماماً وشيدت في مكانها مدينة سميت « ساويا » وترجع هذه الحادثة لأسباب طبيعية وإن توافقت مع ميلاد محمد ليس له أية دلالة..

وترتفع القشرة الأرضية حتى تبني فوقها مدينة .. هذا التوقيت سيره الله رب الطبيعة ورب الناس . ومرسل الرسول محمد ﷺ في نسق يخدم الرسالة التي بعث بها الرسول ويسير الأحداث الكونية والبشرية والاجتماعية في خدمة المشيئة الإلهية السامية . [

] وهو بهذا الوضع ظاهرة لفضل الله علينا وعلى الناس يدركها ذو الحس الديني المرهف والإيمان الحى ، ومن ثم فإنهم يذكرونها على أنها من آلاء الله ، وليست من عمل الرسول ، وهى حقائق تاريخية يفسرها المستشرقون والملاحدة الماديون بأنها مجرد ظاهرة طبيعية ويقفون عند ظاهرة الطبيعة ، أما المؤمنون بالله فيمرون من خلال المادة إلى ما وراءها .. ليدركوا جلال الله الذى خلق المادة وسير الأحداث وصنع الطبيعة ، وسخرها فى الاتجاه الذى يخدم الإنسان والتعاليم السامية الإلهية التى نسميها أحياناً المبادئ والفضائل الإنسانية ، [

[وفاة عبد الله]

ومهما يكن من أمر هذه العجائب ، فإن « محمدا » قد أصابه الضر منذ مولده ، إذ تيمم قبل أن يبلغ الشهرين من عمره بموت أبيه عبد الله ، الذى اشتهر بجماله وفضائله أكثر من الاشتهار بالثروة ، كما تمتع بحب أبيه عبد المطلب وثقته .

أرسله أبوه ذات يوم ليشتري [من الشام] المؤن التى تنقص بلادهم الجرداء (١) وعندما مر ييثرب (٢) فاجأه الموت وهو فى ريعان شبابه . ودفن فى دار « الحارث » (٣) خال عبد

(١) لما كانت مكة وضواحيها ليست سوى صحور قاحلة ، ورمال ملتهبة ، فإن سكانها كانوا يضطرون الى الذهاب بعيداً لشراء مؤونتهم ، - ومنذ اليوم الذى اشتهرت به بفضل « محمد » ، بعد أن جعلها حرم دينه - فإن مصر وسوريا واليمن تمدها بكل ما يلزمها لرفاهية الحياة . [وقول « سفارى » (جعلها حرم دينه) ، لاشعارنا أنه صانع الدين ، منكر أن الله هو الذى جعلها حراماً آمناً]

(٢) ولما كانت يثرب ملجأ محمد ، فقد سميت « مدينة النبي » ، أو المدينة فحسب ، وتبلغ مساحتها نصف مساحة مكة ولكن أرضها أكثر خصوبة .

(٣) فى الطبقات ١/ ٦١ ، ٦٢ أن عبد الله دفن فى دار النابغة ، وهو رجل من أحوال بنى عدى بن النجار ولعل اسمه الحارث . والراجع أن النبي كان لا يزال جنيماً . وقيل كان سنه ٧ أشهر ، وقيل ٢٨ شهراً . [

المطلب ، ولم يخلف لابنه الذي كان لا يزال في المهد سوى خمسة جمال ، وأمة حبشية تدعى « بركه » . وقامت آمنة - في بداية الأمر بإرضاع وحيدها ، ثم عهدت به إلى « ثويبه » جارية عمه « أبى لهب » (١) .

[إرضاع محمد]

ولما كان جو مكة غير صحي للأطفال ، فقد كانت العادة أن يسلم الأطفال إلى نساء يصطحبنهم إلى البادية ، وذات يوم حضر كثير من المراضع مكة وسرعان ما عدن محملات بالأولاد والخير الوفير ، إلا أن « محمداً » اليتيم بقى وحده لأن مظهر أمه المتواضع كان يدعو إلى إهمال شأنه ، ولكن « حليلة » التي لم تجد طفلاً تأخذه لترضعه ، جاءت وطلبت « محمداً » ، وحملته معها إلى صحراء « بنى سعد » حيث عاش معها ومنحته حبها وعطفها (٢) .

وبعد بضعة شهور اضطرتها مصالحها إلى الذهاب إلى مكة فاصطحبت معها ، « محمداً » ولما رآته أمه « آمنة » سرت به ورغبت في احتجازه ، إلا أن حليلة تغلبت عليها بإصرارها ، وعادت به إلى بنى سعد .

[والكاتب فيما ذكره : عن العودة إلى مكة من حيث السبب ومنه الحضانة ، يخالف أبا الفداء فيما قرره اذ قال : ثم قدمت به حليلة إلى مكة ، . وهكذا قال صاحب الطبقات ، قال : إنها قدمت بعد انتهاء الرضاعة ومدتها سنتان ، ثم رجعت به لتحضنه ، فمكث عندها سنتان أخريان فعادت به إلى مكة بسبب حادث شق الصدر فطمأنتها آمنة ، على أنه لن يمسه شيطان ، فرجعت به إلى البادية للمرة الثالثة فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً ... ثم قدمت به إلى أمه لترده وهو ابن خمس سنين (٣)] .

[وروى ابن هشام عن حليلة : فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى

(١) أبو الفداء ص ٨ [ص ١١٨ دار الطباعة العامرة ، والطبقات ج ١ ص ٦٧ : ٧٣ وحياه محمد لهيكل ص ١٠٦ ط ٢] .

(٢) أبو الفداء ص ٨ [ص ١١٨ دار الطباعة العامرة] وحياه محمد لهيكل ص ١١٧ والطبقات ج ١ ص ٦٧ : ٧٣ [جناب أحمد بن يوسف وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦ : ٣٨] .

(٣) [الطبقات ج ١ ص ٧٠]

مصنت سنتان وفصلته - أى فطمته - فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا... فلم نزل بها حتى رده معنا فرجعنا به ، فوالله إنه - بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه - لفى بهم - أى غنم صغار - لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد ...، وحكى قصه شق الصدر^(١) .

[فعودة حليلة به إلى مكة بعد أشهر لم تكن كما قال «سفارى» ، بعد أن أخذته حليلة للرضاع فى المرة الأولى ، ولا كانت العوده بسبب مصالحها ، وإنما كان هذا بعد أربع سنوات هى مدتا الرضاعة والحضانة . وكان بسبب خوفها على النبي بسبب حادث شق الصدر ، وإنما اختلط الأمر على المستشرق .]

[وهذه صورة للقارئ عن مدى عجز المستشرقين فى الاستيعاب والتحقيق للمسائل ، برغم توافر الإمكانات اللازمة للباحث عندهم .]

[شق الصدر]

عام ٦١٦٦ من مهبط آدم . حسب تقدير أبى الفداء = عام ٥٨١ = عام ٥٠ ق هـ = عام ٣ من ميلاد محمد - جناب أحمد بن يوسف .

ومن بين المعجزات المتعددة التى يخلطها المؤرخون بحياة محمد أنهم يذكرون بثقة الحادثة التالية : ذات يوم خرج محمد و« مسروح » أخوه فى الرضاعة [٢] إلى البادية يلعبان ويلهوان ، فقدم عليهما رجلان بملابس بيضاء ، وأمسكا بمحمد ، وطرحاه أرضاً ، وشقا صدره ..

عندئذ أسرع « مسروح » إلى أمه ، وقص عليها ما حدث ، فأتتاها الخوف ، لأنها لم تكن تعلم ما تدبره السماء ، وعادت به إلى آمنة ، وسلمتها وديعتها .

[١ -) المعجزة فى اصطلاح المحققين من علماء المسلمين تطلق على الأمر الخارق للعادة يقع من نبي دعا إلى دين الله فى مقام التحدى لمن ينكرون نبوته : تصديقاً من الله لنبيه ، فهى بمثابة قول الله للناس صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .]

[وبهذا فإن شق الصدر - وهولم يصاحبه ، التحدى ، ولا ، دعوة النبوة ، أمر لا يعد - اصطلاحاً معجزة ، ولكنه يسمى « ارهاص » ، وهذا أول مظهر لجهل المستشرقين

(١) [تهذيب سيره ابن هشام ص ٣٨ .]

بمصطلحات الفكر الإسلامى . [

٢ - تسمية المستشرق أخاً ، محمد ، فى الرضاة ، مسروحاً ، وتقريره أنه الذى كان يرعى مع النبى الغنم يخالف ما جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ . اذ روى ابن سعد أن ، مسروحاً ، هو ابن ثوية أول مرضعة للنبي بعد أمه وقبل حليلة السعدية . أما ابن حليلة فاسمه ، عبد الله بن أبى ذؤيب الحارث بن عبد العزى ، . وهذه صورة أخرى لاختلاط عقليات المستشرقين . وعدم القدرة التامة أو الاهتمام الكامل بتحرير المسائل ، ولم يذكر- هنا - مرجعه الذى استند إليه . [

[و«سفرى» كغيره من المستشرقين أمثال سير ، وليم موير ، ودرمنج ، ينكرون هذه القصة وجرى مجراهم بعض كتاب المسلمين مثل د . محمد حسين هيكل (١) ومحمد الغزالى السقا ، وذكر هيكل أن أسانيد الرواية ضعيفة . فموير يقول : لعل الذى حدث نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه ، و«درمنج» يرى أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير ما يفهم من ظاهر قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وقد نقل «درمنج» روايته عن الخازن فى تفسير الآية وقال هو والغزالى السقا المراد بهذا تطهير القلب وتنظيفه . فإذا كانت للشعر موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها ، فقلوب النبيين بتولى الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها - وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى ، لا فى مقاومة التدلى ، وفى تطهير العامة من المنكر ، لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته ، « عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى . إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، لا يأمرنى إلا بخير » ، (رواه مسلم ١٣٩/٨) . ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطمع الإنسانى ومفاتن الحياة الأرضية (٢) . [

[والحق أن أسانيد الرواية ليست ضعيفة . فقد رواه أبو نعيم فى الدلائل وأخرجه

[(١) حياة محمد ١٠٩ ، ١١٠ ط ثانية .]

[(٢) محمد الغزالى ص ٦٤ : ٦٥ من فقه السيرة ط ٤]

مسلم في صحيحه (١٠١/١-١٠٢) وأحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٨٨) وابن سعد في الطبقات (٩٧/١) عن أنس، أن رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقة. فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني مرضعته - أن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، وقد زاد أحمد في آخر الحديث: قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك الخيط في صدره، وللحديث شواهد كثيرة - يعني أحاديث بنفس المعنى - منها ما يروى عن عتبة بن عبد السلمي. وقد أخرجه الدارمي (٨/١) والحاكم (٢١٦/٢) وصححه، ووافقه الذهبي ومنها ما رواه عن أبي بن كعب عن عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥) ومنها ما رواه عن أبي ذر، ابن جرير الطبري في تاريخه (٥١/٢-٥٢) وما ادعاه هيكلي على الطبري من أنه أحاط الخبر بالريبة إذ يذكرها في حوادث سنة ٣ من ميلاد محمد ﷺ ثم يذكرها والنبى في سن الأربعين قبيل البعثة. مردود على هيكلي، لأن شق الصدر صحته روايته، وأنه حدث أكثر من مرة: مرة في الطفولة التي نحن بصدددها، ثم مرة أخرى عند البعثة، ثم مرة أخرى والنبى في الخمسين من عمره ليلة المعراج. فقد روى البخاري في صحيحه (٢٣٢/٦) ومسلم في صحيحه (١٠٣/١-١٠٤) والنسائي في سننه (٧٦/١) عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: بينما أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت: فشق ما بين هذه إلى هذه .. يعني ثغرة نحره إلى شعرته: قال: فاستخرج قلبي. ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشى ثم أعيد، ودعوى موبر أن الذي حدث هو نوبة عصبية. مرفوضة علمياً، (أ) لأن النوبة العصبية عندما تحدث لا يكون معها إدراك .. وقد أدرك النبى ما حدث له ورواه بنفس الصورة التي ذكرها أخوه في الرضاعة. وهذا التوافق مما لم تجر العادة على حدوثه من أطفال دون أن يكون له حقيقة اشتروا في مشاهدتها. (ب) ولأنه لم يكن لحليمة وابنها غرض أو منفعة في نسج قصة كهذه لرضيعها، وقد كان لها ولغيرها من المرضعات أطفال أرضعهم .. مضى بهم التاريخ دون أن يروين شيئاً مثل ذلك عن أرضعهم. (ج) أن الدعوى لا تقبل بدون

برهان . ودعوى موير ليس عليها برهان ، وانها مجرد توهم . وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً [.

[أما قول درمنجم : إن القصة لا تستند إلى شيء غير الآية « ألم نشرح لك صدرك » فباطل ، وقد ذكرنا الأحاديث الصحيحة التي وردت بشأنها . والآية ليست فى الموضوع كما قال . فثم فرق بين انشراح الصدر وانشقاقه .]

[والشيخ محمد الغزالي السقا يتأثر فى هذه القضية بمنطق المستشرقين فى تفسير الدين والسيرة بالمنطق المادى ، فيقول : « لو كان الشر إفراز غدة فى الجسم ينحسم بانحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب ، كما تزود الطائرة بالوقود ، فتستطيع السمو والتحليق لقلنا : أن ظواهر هذه الآثار مقصودة ، ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك » (١)]

[ومقالة الشيخ هذه تدل على أنه لا يعلم ما وصل إليه العلم من العلاقة بين السلوك والأحوال النفسية وبين الأعضاء . فالأمراض العقلية تعالج بالصدمة الكهربائية ، والمخ يعالج أحياناً بالجراحة ، والشهوة الجنسية تعالج بالعقاقير أو بالجراحة كيما يمسى الرجل حصوراً أو شبقاً .]

[ونحن فى هذا المقام نعى تقريب المسألة . أما أدراك حقيقة الحكمة على وجه اليقين فلا نزعه ، وليس جهلنا بالشىء أو بالحكمة فيه مسوغاً لإنكار وجودهما . فكثير من المكتشفات العلمية الآن كان فى طى الجهالة ، بل وبعيداً عن التصور ، وقد أصبح مما يستفاد به فى حياتنا العملية كالمجهر والطائرة والمذياع ... وما إلى ذلك « وغداً يعرف الحقيقة قوماً » ،]

[وقد اعترض البعض على الحادث بأنه من غرائب الطبيعة . فهو غير ممكن عادة . ونحن نسلم بأنه من الخوارق . ولكن خرق العوائد موجود فى الطبيعة والاجتماع لحكمة يعلمها الله ، وبخاصة فيمن يصطنعهم ، أو يخلقهم غير عاديين لأمر يجرىها على أيديهم ، ولقد كانت طفولة وولادة عيسى عليه السلام منطام أمور

(١) [فقه السيرة - ص ٦٤ ط ٤ دار المكتبة الحديثة بالقاهرة]

غريبة كذلك، فهو بلا أب، وقد تكلم في المهد صبياً، والمستشرقون لا ينكرون هذه الغرائب في شأنه، فلماذا ينكرونها بشأن غيره ؟ . والعجيب أن يقاس الملك على الحداد ويقال: هذا شيء لا يفعله أمثاله . وفي القرآن قالت الملائكة لأمراة إبراهيم ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ حين تعجبت من أن يكون لها ولد بعد بلوغها سن اليأس [

] وقد يعترض على القصة بأن ابن اسحاق ذكر أسباباً أخرى للرجوع بمحمد إلى مكة، فهناك عراف تفرس في د محمد، فصاح: يا معشر هذيل . يا معشر العرب . أقتلوا هذا الصبي ... إلخ .. وهناك نفر من نصارى الحبشة رأوه بعد فطامه بأشهر .. وتحذثوا بعد تحديق فيه - عن شأن عظيم له . وأنهم يريدون أخذه إلى ملكهم .. فخشيت عليه وردته إلى أمه آمنة . [

] ونحن لا ننكر هذه الأسباب لاحتمال تنوع السبب فقد يكون شق الصدر وغيره من الأسباب . وقد يكون كل سبب كان سببا في الذهاب إلى مكة بمحمد يوماً . فقد روى أن آمنة حين عرفت سبب إعادة حليلة لمحمد وأنه شق الصدر، طمأنت حليلة وأعادته معها، وهكذا قيل إن آمنة حين ذكرت حليلة لها قصة العراف طمأنتها عليه وأعادته معها . قائلة: «أتخوفت عليه الشيطان؟ والله ما للشيطان عليه من سبيل» [

] رأى كزيميرسكى: قال: «في القرآن ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ وهو مجاز حملته السنة على الحقيقة فجعلت النص في شق صدر النبي^(١)، وقد أخطأ المستشرق في تفسيره «شرح الصدر» فهو بمعنى الارتياح النفسى، وشرح الصدر غير شقه . والسنة لا تخالف القرآن إن كانت وحياً . وما كان من اجتهاد النبى قبل نزول الوحي ببيان الحكم ثم نزل القرآن بما يخالف الاجتهاد، فلا اعتبار له، وليس هو السنة التى أمرنا باتباعها . وقد ذكرنا أن دليل شق صدر النبى هو السنة وليس القرآن [

(١) [خاتم البين في نظر المستشرقين ص ٢٣]

[وفاة آمنة]

تكفلت آمنة بتربية ابنها [بعد ما سلمته لها حليمة] . وعند ما بلغ السادسة من عمره اصططحته الي المدينة حيث ذهبت لزيارة بنى عدى . وهم أخوالها من بنى النجار^(١) وبعد أن أمضت معهم بعض الوقت عادت إلى مكة ، ففاجأها الموت وهى فى الطريق ، ودفنت فى «الأبواء» وهى قرية صغيرة بالقرب من المدينة .

[كفالة جد محمد ثم عمه له]

ولما علم عبد المطلب بهذا الخبر الأليم ضم إليه حفيده^(٢) . وتولى تربيته وسط أسرته الكبيرة ، ومنحه من حبه وعطفه ما كان يمنحه لأولاده ، ولكن محمداً لم يتمتع طويلا بهذه الرعاية ، لأن جده عبد المطلب كان قد بلغ منتهى الشيخوخة وتوفى عن عشر سنوات ومائة . فضم أبو طالب - شقيق عبد الله - ابن أخيه إلى كتفه ، وجعله تحت وصايته ، وكان يشتغل بالتجارة مثل القرشيين ، فقد كانت التجارة هى مورد الرزق الوحيد لأهالى هذه القرية ذات الأرض الجرداء التى لم تكن تصلح لأى نوع من أنواع الزراعة ، ولقد علم أبو طالب تلميذه فن تحقيق الرخاء فى البلد القحط ، عن طريق المبادلات التجارية المربحة ، وعندما اعتقد أنه نال نصيباً كافياً من العلم أخذه معه فى رحلة إلى سوريا حيث كانت تدعوه تجارته . ولم يكن محمد قد جاوز الثالثة عشرة ، ولكن ذكائه ورجاحة عقله جاوزا هذه السن .

(١) أبو الفدا [١١٩/١] حياة محمد ص ١٩

(٢) أبو الفدا [١١٩/١] .

[أول رحلة تجارية لمحمد]

عام ٦١٧٦ من هبوط آدم طبقاً لتقدير أبى الفدا - عام ٥٩١ م - ٤٠ ق هـ - عام ١٣ من ميلاد محمد .

كانت القافلة تتقدم حتى وصلت إلى بصرى (١) ، وهى مدينة قديمة بسوريا الدمشقية ، حيث كان يوجد بالقرب منها دير (٢) كان يرأسه « بحيرا » الذي قدم إلى الغرباء واجبات الضيافة وعاملهم بكل كرم . وعندما راقب الراهب الشاب القرشى بثاقب نظره قال لأبى طالب . « ارجع بابن أخيك إلى مكة ، واحذر عليه مكر اليهود (٣) . واسهر على راحته ، فإن طالع المستقبل يتنبأ لابن أخيك هذا بأخبار عظيمة .. » .

وعاد أبو طالب بابن أخيه إلى مكة ، وقد كان يتمتع بمكانة مرموقة بين العرب لورائته سدانة الكعبة . و كان منزله مفتوحاً لجميع زعماء العرب . فكان يستقبل فيه أعظم القوم (٤) . كان محمد يتعجب إلى الجميع بفضائله وخلقه ، ولما بلغ أشده أحب الناس فيه جماله ورجاحة عقله ، ولقب بالأمين بين مواطنيه ، وحظى بالتقدير لفطنته فى الإجابة ، وصدقه فى الحديث ، وإخلاصه فى شئون الحياة ، وحسن طويته ، وشدة خوفه من الرذائل . لقد كانت هذه هى سمعته التى سمعها ونقلها إلينا جميع المؤرخين ، والتى حققها محمد فى مكة ، واحتفظ بها إلى الوقت الذى ثار فيه قومه عليه عندما سمعوا أنه يحارب الوثنية ، وعندما خشى عظمائهم من طموحه المتخفى تحت ستار الدين [١٩] .

[أحقاً كان للنبي مطاعم؟]

[هكذا قال سفارى وأمثاله من المستشرقين . ولست أدري ، وليت الكاتب - لو راجع نفسه - يدرى .. لماذا يتهم محمدا بأنه يتخفى تحت ستار الدين ليحقق طموحه ؟ والكاتب نفسه قرر قبل سطور أنه (صلى الله عليه وسلم) ملك على الناس قلوبهم

(١) هذه المدينة التى يطلق عليها الروم «بصرى» ويسمونها اليهود «بيسترا» Beestria أو استاروت «Astarot» (أى دار إستر Ester) تقع على مسيرة أربعة أيام جنوب دمشق ، ويعتبرها أبو الفدا فى جغرافيته عاصمة «حوران» .

(٢) تعتبر الأديرة فى الشرق دياراً للضيافة . ففى جزيرة كندى candie حيث ترك الأتراك أملاكاً واسعة يجد فيها المسافرين المأوى والمأكل مجاناً [يعنى بالأتراك المسلمين]

(٣) أبو الفداء . حياة محمد ص ١١ [١٢٠/١ ط العامرة] .

(٤) نفس المرجع ص ١١ [١٢٠/١ ط العامرة] .

فَأَمَنُوا بعقله ، وبأمانته ، وبخلقه ، وعرفوا فيه جمال الخلق والخلق معاً ، ولقبوه - دون جميع معاصريه - بالأمين ، ؟ وكيف يتهم ؟ وهو رجل ترشحه فضائله وأعماله بين أمته إلى درجة - الأمين الأول ، و - الأمين العام ، الذى إذا أطلق لفظ «الأمين» لم ينصرف إلا إليه ، وكأنه المعلم الدال على اللفظ ، والبيان الواضح المجسم للكلمة .. إن من له هذه الشعبية يكون - بلا ريب - فى مقام الزعامة والسيادة ، وفى غنى عن المكر واللؤم والتخفى وراء أى ستار .]

[وقد ذكر الكاتب نفسه أن - محمد أ ، عليه السلام - سليل المجد . ففى بيته سيادة العرب منذ أمد بعيد ، وجده الرابع هو - قصى ، منشىء ما كان يمكن أن يسمى بلغة عصرنا الحديث - مكة الحديثة ، . والبيوت التى ترأس الأمم لا تنخلع منها الرئاسة ، ولم يكن ينازعها فيها أحد .. وقد كان محمد .. بين أسرته - هو الوارث الطبيعى لهذه الرئاسة ، فقد كان (صلوات الله وسلامه عليه) أحب بنى عبد المطلب إلى عبد المطلب وإلى خليفته من بعده أبى طالب .]

[هذا هو الحق الواضح ، وهو لا يمكن أن يحتجب عن مفكر لولا التعصب الأعمى والغرض الخبيث ..]

[وقد كان فيما عرض على النبى أن تعقد له الرئاسة أو يجمع له المال . إن كان يريد بدعوته مالا أوجاهاً فى الناس . فأبى المال والجاه والرئاسة مصراً على أن يعيش لدعوته بأذلا ماله ودمه . وقد طال جهاده وجلاده حتى أدركته الشيخوخة ولم يتراجع قيد أنملة فى طريق الدعوة التى اختطها الله له . ولو كان يبغي بدعوته غيرها لدفعته الشيخوخة ، وحذر ضياع الفرصة إلى مهادنة خصومه ، وإلى الرضا بأى مغنم تصل إليه يده . ولكنه - كان رائد أصحابه الذين نزل فيهم - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً (الأحزاب ٢٣)]

[وقد قال كارليل الإنجليزى : إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوباً ، فإنه إن كان كذلك فلا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من اللبن ، إذا لم يكن عليهما بمواد البناء على اختلاف أنواعها . فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان ، مدعم الأركان ، مثل دين الإسلام الذى ظل على قوته

وعظمته قروناً طوالاً [٢٢]

[وقال الكاتب الانجليزى المشهور : (هـ . ج . ويلزان) : من أقوى الأدلة على صدق محمد ، كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به . فقد كانوا مطلعين على أسرارهم ، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به ، .]

[وقال (كارليل) أيضاً . « أتريد دليلاً ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبني لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قروناً طويلة لا يعثرها تصدع ، ولا يعثرها أقل خلل ؟ كذلك هل يطلب طالب من مدع للنسبة دليلاً أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قروناً طويلة ويثتمسون له تحمساً كبيراً ؟ »]

[« فمحمد قال بأنه رسول من عند الله ، وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ، ومضى عليهم فى ذلك قرون طويلة ، وهم يحبون دينهم هذا ، ويثتمسون له أكبر تحمس . فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟ »]

[« ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنكنوت ، فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخذع بعض الناس مرة أو مرتين ، ثم يفتضح أمرها ، ويعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق .. (١) »] .

[وقد جاء فى تاريخ الأديان للكاتبة الإنجليزية (أنى بيزانت Annie Besant) فى الجزء الخاص بالإسلام عن تاريخ محمد ما نصه .:-

[« نعم : فإنه يجب عليكم جميعاً معشر الذين لا تتبعون ديانة هذا النبى العربى أن تتحققوا بأنه لا يوجد فى جميع الديانات البشرية ديانة توحى الى الأخذ بها عقيدة أبين صحة ، وأعلق بنفس صاحبها من الديانة التى خرجت من فم النبى العربى .]

[وإذا كان الأمر كما يقول الفيلسوف « Bain » « إن العقيدة تثبت صحتها بسيرة أهلها ، فتأمل فى أتباع محمد ، وانظر كيف تتحكم أقواله الى اليوم - فى أعمال الناس . لا يوجد مسلم فى الأرض يخجل من السجود فى الصلاة ، وإن كان حوله جمهور من

(١) [المستشرقون والإسلام لذكريهاشم زكريا ص ٢٠ ، ٧١ . ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنة التعريف بالإسلام .] .

المستهزئين الذين يكرهون النبي الذي ينتمى إليه ، فانظر الى أى مدى قهرت العقيدة عند أتباعه كل خوف من الموت . فأين تصادف بطولة مثل بطولة هؤلاء الدراويش الأفريقيين الذين اقتحموا مجالاً سلطت عليه بنادق ، كاتلنج ، ووقعوا صفاً بعد صف قبل أن يصلوا الى أعدائهم سائرين الى الموت كما يسير غيرهم إلى خطيبتهم ، كل ذلك محبة في نبيهم وفي عقائد الاسلام ، [.

[ثم قالت في التعقيب على إسلام خديجة وأقاربه الأذنين ، وهذه حادثة ذات مغزى كبير - بالنسبة لمؤسس دين ، فإنه من السهل أن تحصل اتباعاً من جمهور لا يعرفونك ولم يروك إلا على منبر الخطابة ، ولم يسمعوك إلا في محاضرة متقنة ، أو في أجوبة على مسائل موضوعية ، ولكن أن يصير الإنسان نبياً في نظر امرأته وبنته وصهره وأقاربه الأذنين . فهذه هي النبوة حقاً ، وهو انتصار لمحمد لم يحصل على مثله عيسى نفسه ، [.

[ثم قالت : « إن شهادة التلميذ هي أصدق شهادة في معلمه . وكلمة «خبيب» حين أرادت قریش صلبه وكلمة زعيم المهاجرين المسلمين في الحبشة أمام ملك النصارى .. « أياها الملك لقد كنا قبل محمد غرقى في الضلالة ..» إلى آخر ما قال ، مظهر دال على صدقه في دعوى النبوة . » (١)

[وقال شاعر فرنسا الأشهر الفونس لامارتين - وهو خبير في الدراسات الشرقية الإسلامية . انثرون محمداً كان أخا خداع وتدلّيس وباطل ؟ كلا - بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدلّيس من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق . وإذا كانت قوة الصعود والرمي في علم الطبيعة هي المقياس الصحيح لقوة المصدر الذي تصدر عنه الرمية والقذيفة ، فإن العمل الذي يحدثه المحدث في علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية التي تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمناً طويلاً ، وتمشى في الحياة أبداً رخيّة . وهي لا ريب فكرة قوية صدرت من

[(١) الكاتبة توفيت عام ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م وهي زعيمة جماعات «التبصيرية» ولها خمس وعشرون كتاباً ترجمت لمعظم اللغات الحية . وما نقله عن المرحوم محمد فريد وجدى في مجلة الأزهر المجلد السابع ص

وجدان قوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، ولا بد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن .. ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحي الذى تنزل عليه . إن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية .. إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمخ خداعاً ، أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع . وهادى الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب .. ومنشئ عشرين دولة فى الأرض وفتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد^(١) . وقال إن محمداً أقل من إله وأعظم من إنسان عادى أى أنه نبي .

[وقال الفيلسوف الروسى « تولوستوى » : « وما لا ريب فيه أن النبى محمداً من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى مئات الملايين إلى نور الحق ، وإلى السكينة والسلام ، وفتح للإنسانية طريقاً للحياة الروحية العالية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة والهاماً وعوناً من السماء » .]

[وقال (توماس كارليل) أيضاً فى كتابه « الأبطال » : « لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متعدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى تلك الإتهامات التى وجهت الى الإسلام والى نبيه ، وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المذير لنحو أربعمئة مليون من الناس ، والرجل العظيم - فى نظرى - مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، ومحمد - ﷺ - كان كذلك وكان فوق ذلك : الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من السموات العلا (٢) » .]

[(١) المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ ونور الإسلام ص ١٣ العدد الممتاز سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ .]

[(٢) المستشرقون والإسلام ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .]

[وقال العالم الهندي د . ل . فسوانى : تأملت أمر محمد ﷺ ، فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين هؤلاء القوم المختلى النظام ، الفاسدى الأخلاق ، العابدى الأحجار . هذا الرجل العظيم د محمد ، وقف - تقريباً - وحده شجاعاً متحدياً - غير هباب ولا وجل - فى وجه التوعد بالقتل . فمن أعطاه القوة التى قام بها ؟ . كان بطلاً من أبطال الأساطير . ثم استمعوا لكلامه . فمن أين جاء سحر بيانه ؟ ثم أنظروا إلى أعماله . كيف ألف بين النبلاء الأشراف والصعاليك المنبوذين حتى صاروا إخواناً وخلاناً ؟ .. ونحن هنا فى الهند إلى الآن - لا نزال نقتل من أجل جواز لمس البعض البعض الآخر . وعدم جواز ذلك . ولا نزال عاجزين عن إباحة الدخول إلى بيوت الآلهة للمنبوذين من أبناء جلدتنا .. من أين استمد محمد ﷺ قوة حياته الغالبة ؟]

[«الهند - الآن - مصابة بشرب الخمر ، والرجل محمد ﷺ - كما تقول الكتب المقدسة - اقترح مقاطعة الخمر وكل شراب مسكر [بل أخبران الله أمر بذلك] ، فقام أصحابه وألقوا دنان الخمر فى أزقة المدينة ، وحطموها تحطيماً . لقد كان تصرف محمد فى قومه كالتنويم المغناطيسى . فمن أين جاءه سر هذه القوة ؟ »]

[« ألم ترأنهم كانوا أشتاتاً قد عمتهم الفوضى ، فألف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة ، وكانوا راسبين فى التوجس فرفعهم وأنقذهم ، وجعلهم عظماء أقوياء فى أعين أمم الأرض كلها ، فصارت الأمة العربية صاحبة القيادة العليا فى التمدن ، وصارت اللغة العربية آخذة بيمينها مصباح التهذيب والرقى .. والتهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوروبا نشأة جديدة ، وإنسانية جديدة . »]

[« إليك يا محمد - ﷺ - وأنا الخادم الحقير - أقدم إجلالى بخضوع وتكريم (١) . إليك اطأطأ راسى . إنك لنبى حق من الله ، قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزلى الأبدى . »]

[هذه تأملات واتجاهات فكرية متنوعة تقيم الأدلة على صدق محمد فى دعواه الرسالة ، وأنه لم يكن ذا أطماع فى جاه أو مال . أردت أن أذكرها على لسان كبار

[(١) المستشرقون والاسلام ص ٢٨١ - ٢٨٢]

الكتاب العالميين وفيها الكفاية .

[وأقول : وفضلاً عن ذلك فمن دلائل نبوته أيضاً الاجماع على الحاجة إلى مبادئ الاسلام ، وعلى أنه كان صادقاً في صغره . فما كان ليدع الكذب صغيراً ويقتصره كبيراً ، ويدع الكذب على الناس ليكذب على الله . ثم ان كمال رسالته وشمولها أعظم من أن يدركها بشمولها عبقرى واحد . ثم إنها تضمنت أخباراً بالغيبيات أكدها الواقع مملاً يعرف إلا من الله .]

[حرب الفجار]

وفي سن الرابعة عشر اشترك محمد في الحرب لأول مرة (١) ، وذلك مع أقارب ابيه في حروب الفجار (٢) . وقد ظهر بين المحاربين بشجاعته في المعارك التي دارت بين قريش وكنانة ، ثم اشترك في الحرب ضد قبيلة هوازن . ولقد انتصرت قبيلته في كل هذه الحروب .

[تجديد بناء الكعبة]

استتب السلام بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ففكرت قريش بعد انتصارها على أعدائها في تشييد بناء تخليداً لمجادها ، ولما كانت الكعبة (٣) وهي المعبد المقدس منذ العصور القديمة الذي كانت قريش تتولى الدفاع عنه - لا تتسع مساحتها للعديد من القبائل ، فقد فكرت قريش في توسيعها (٤) . وهدم المعبد ، وأعيد بناؤه على نفس النمط ، وعندما ارتفع البناء إلى المستوى الذي يتعين فيه وضع الحجر الأسود (٥) ثار الخلاف عليه بين القبائل ، لأن كلا منها

(١) أبو الفداء - حياة محمد ص ١١ [١٢٠/١] وكذا محمد حسين هيكل ص ١٤ (ط ٢) .

(٢) يوجد عند العرب أربعة أشهر حرم هي . الحرم / ورجب / وذو القعدة / وذو الحجة . وتسمى الحروب التي تقع فيها حروب الفجار ، أي الحروب المحرمة [وفي الأصل المترجم (حروب الكفر) وهو خطأ] .

(٣) بدأت خدمة الكعبة بإسماعيل الذي كان الرعيم الديني الأول . ثم انتقلت إلى ابنه إسماعيل وخلفه بنو جرهم في اشرف مهمة في الجزيرة العربية ، ولكن انتهاكهم حرمة الأماكن المقدسة حرّمهم منها . وانتقلت بعد ذلك إلى بني خزاعة . ثم أخذتها قريش واحتفظت بها حتى زمن محمد .

(٤) الجوزي . كتاب العبادات . مناسك الحج . الفصل ٦٨ .

(٥) يقول الكتاب العرب إن الحجر الأسود كان في مبدأ الأمر من الحجر الصغير الأبيض اللون احضره جبريل إلى إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة . وفيما بعد لمست امرأة غير طاهرة فتحول بياضه إلى سواد .

تريد أن تحظى بشرف وضعه في مكانه ، وبعد مداولات عديدة اتفقت القبائل علي الاحتكام لأول من يدخل في رحاب الكعبة ، ولقد ساقط الصدف محمداً ، واختير حكماً فقرر أنه يجب وضع الحجر الأسود علي بساط مفروش ، وأن يأتي من كل قبيلة رجل ويمسك بأحد الأطراف ، ويرفعوا البساط معاً . وعندما ارتفع الحجر الأسود بالقدر الكافي رفعه محمد بيده ووضعه في مكانه ، ثم استكمل البناء وكسى بستائر فاخرة .

[لم يكن هناك بساط وإنما فرش النبي رداءه ووضع فيه الحجر الأسود باتفاق المؤرخين]

[الزواج بخديجة]

عاد محمد إلى مشاغله الهادئة مجدداً في كسب رضا عمه أبي طالب ، فقد كان محمد في ريعان شبابه ، وكان مشهوراً باستقامته وذكائه ، وسمعت خديجة بذلك ، وكانت أرملة غنية ونبيلة ، وكانت مثله من قبيلة قريش الشهيرة ، وكانت لها تجارة واسعة تشعر أنها بحاجة إلى رجل ذكي يتولى ادارتها ، فوقع نظرها علي محمد ، وعرضت عليه امتيازات كبيرة إذا ما قبل إدارة أعمالها (١) فوافق بدون عناء ، وسافر إلي سوريا حيث كانت تقتضي هذا مصالح خديجة ، وصاحبه في رحلته « ميسرة » (٢) خادم هذه السيدة ، فباع البضائع التي عهد بها إليه ، وأجرى مبادلات رابحة ، وعاد إلى خديجة محملاً بالخير الوفير ، وكانت سمعة محمد قد كشفت عنه ، وبدأ غيابه طويلاً في نظر خديجة ، ثم تحقق أمهلاً وازداد فرحها وسرورها بنجاح محمد في مهمته ، وشعرت بقلبها يميل إليه (إنها عبارة أبي الفدا) .

(١) أبو الفداء ص ١٢ ، ١٣ [(ج ١ ص ١٢٠) وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٨] د . هيكل - حياة محمد ص (١٢٨)]

(٢) طبقاً لرواية ميسرة التي ذكرها جناب الورع المسلم - كانت هذه الرحلة زاخرة بالعجائب ، فطوال الوقت الذي كان المسافر المعصوم من السماء يعبر فيه الصحراء العربية الملتهبة .. كان هنالك ملك ينشر جناحيه ليحميه لفتح أشعة الشمس ، وكان يسير تحت هذا الظل الخارق للعادة ، وفي بصرى عند ما جلس تحت شجرة جافة اخضرت الشجرة ، واكتست بالأوراق والزهور ، ولقد حدثت هاتان المعجزتان في حضور الراهبين «نستور» و«بحيرا» اللذين نسج المحدثون عنهما أساطير عديدة ، فأسلما واعترفا بنبوة محمد «جناب» . ولكن هاتين المعجزتين اللتين رواهما خادم لم يكن لهما وزن عند أبي الفدا الذي رفض أن يجعل من حياة محمد أسطورة سخيقة .

[رجعت إلى أبي الفداء فلم أجد لما قاله المستشرق ذكراً ، وإنما قال أبو الفداء :
«ولما قدم رسول الله بمال خديجة ، وحدثها ميسرة بما شاهده من كرامات النبي ﷺ
عرضت خديجة نفسها على النبي ﷺ فتزوجها ، (ج ١ ص ١٢٠ من أبي الفداء) .
[ثم قال سفاري] ولم تحاول خديجة أن تقاوم شعوراً طبيعياً . بل انسأقت بكيانها في ركاب
هذا الشعور وعرضت يدها على من أنبته في قلبها ، فقبل محمد هذا التكرم بامتنان ،
واصطحب أبو طالب زعماء قريش [إلى بيت خديجة] وأقام حفل الزواج ، والتقى خطبة
جديدة بأن تنقل هنا لأنها تحيطنا علماً بالتقاليد العربية القديمة :

[الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ،
وبيتاً مججوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخي ، من
لا يوازن به فتى من قريش ، إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ،
وإن كان في المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مستردة ، وله في خديجة
بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ... وما أحببتم من الصداق فعلى^(١)] .

[وروى أنه قال بعد ذلك : « وأن الفحل لا يجدع له أنف ، أي العظيم لا يرد عن
طلبه ، ولكن قد رويت هذه العبارة عن أبي سفيان عندما علم بزواج ابنته بمحمد ﷺ
بعد أن التقى أبو طالب هذا الخطاب جمع بين الزوجين ودفع عشرين بغيراً مهراً لخديجة
تسلمها أهلها ، ثم أعدت الوليمة ، ورغبة في أن يزداد الحاضرون بهجة أمرت العروس جواريتها
أن يرقصن علي إيقاع الدفوف . (٢)]

(١) لم يكن العرب يتزوجون المرأة إلا بعد أن يجعلوا لها صداقاً تتمتع به في حال طلاقها [٢] ، ولقد ساد هذا
العرف الحكيم الذي شرع في بلاد متعددة في الزوجات ، وأكدته آيات عديدة من القرآن وأصبح هو القانون
السائد بين المسلمين .

[وما قاله الكاتب في التعليل لمشروعية الصداق من أن علته تأمين المرأة عند الطلاق ، إنما يغمز به
مشروعية الطلاق ، لأن الصداق تأخذه المرأة وتتفقه عادة في أفراح الزواج ، أوفى تأسيس عش الزوجية ،
ولا يودع مدخراً ليكون تأميناً للزوجة . وهذا يعلمه الكاتب جيداً . ويعرفه كل الخالطين للشرق الإسلامي]
(٢) يحتفل المصريون اليوم بالزواج على نفس الطريقة تقريباً ، ففي اليوم المحدد لإقامة حفل الزواج ، تذهب
صديقات العروس وقريباتها إلى دار أسرتها ليأخذنها ويصحبنها في مركب إلى بيت الزوج ، ويتقدم
الموسيقيون والراقصات المركب . أما العروس فتسير في خطى هادئة تحت مظلة رائعة ، وقد تحلت بالذهب
والجواهر مع أنها هي وصريحياتها في ثياب الحجاب ، وحين يبلغ المركب منزل الزوج تنسل السيدات إلى
الطابق العلوي حيث يتاح لهن النظر إلى الرجال من خلال المشرييات ، وعند انتهاء الوليمة يجلس المدعوون =

وكان محمد فى ذلك الوقت يتجاذب مع أسرته أطراف الحديث ، ولم يكن قد بلغ من العمر سوى خمسة وعشرين عاماً ، بينما بلغت خديجة الأربعين ، وكانت أول من آمن برسالته، وقد عاشت معه عشر سنوات بعد النبوة (١) .

لقد أثرى هذا الزواج محمداً ، ولكنه لم يفقده توازنه (٢) . ولقد أحب طوال حياته المرأة التي كانت سبباً فى ثرائه . وبقدر ما عاشت معه قاوم قانون بلاده الذى كان يبيح له الزواج بأكثر من واحدة فإن الرخاء لم يغير قلبه ، ولقد جاءته حليلة المربعة ذات يوم تشكو إليه فقرها، فرق لها قلبه ، وطلب إلى خديجة أن تحسن إليها فأعطتها قطعاً من أربعين شاة عادت به حليلة سعيدة إلى صحراء بنى سعد.

[التحدث بغار حراء]

ويسكت التاريخ [عن ذكر شيء] فى هذه المرحلة ، ويخيم السكون على خمسة عشر عاماً من حياة محمد ، فالجهل مطبق بكل ما فعل فى حياته من سن الخامسة والعشرين إلى الأربعين ، ولكن أبا الفدا - وحده - يقول كلمة ، وكأنها ومضة من النور يلقبها علي التاريخ . قال : «إن الله ألهمه حب الخلاء ، فعاش معتكفاً ، وكان يقضى كل عام شهراً فى غار بجبل حراء (٣)» .

== على الأرائك حلقا يتحدثون فى وقار ، يدخنون ، ويستمعون إلى الموسيقى ، ويلهون بمشاهدة فتيات راقصات يتمتعن بمرونة غريبة فى أجسامهن فيأتين بحركات مثيرة ، ويصنعن أوضاعاً شهوانية ، وبين آونة وأخرى يزغرد النساء تعبيراً عن فرجهن ، بينما «العالم» (أى الفتاة ذات العلم) تنشده الشعر فى مدح العروسين ، وفى الحب ، ثم يتفرق الجمع ويرى المسلم وجه زوجته لأول مرة .

[والكاتب يخطئ فى شرح معنى كلمة «العالم» فهي ليست ذات علم . وإنما هى بلغة مصر (المعلمة) أو (الغزمية) ويراد بلفظ العالم أو المعلمة . المغنية الشعبية ، ولكن الكاتب أراد أن يحط من لفظ «العالم» مؤنث العالم الذي اشتهر فى لغات الفرنجة بعالم الدين ورجال الفقه الإسلامى . كما اتهم الكذب على المسلمين فكثيرون كانوا يرون زواجهم قبل الزواج وقد خان المستشرق الأمانة العلمية لأنه يعلم ان الاسلام لا يقر هذا فالنبي يقول «انظر إليها لعله يؤدم بينكما» - أى يوفق بينكما .]

(١) يؤكد Naracci فى حياة محمد ص ١٥ أن خديجة ماتت عن ٤٩ عاماً حيث كان محمد قد بلغ الثالثة والأربعين . ولكن شهادة جميع المؤرخين تهدم هذه الرواية . انظر «جناب» و Elcodi وأبا الفداء [١١٧/١] .

(٢) أبو الفدا [١١٧/١] أحمد بن يوسف الجزء الأول الفصل (٤٠)

(٣) أبو الفدا ص ١٣ - [١١٧/١]

[هل الإسلام من صنع محمد ؟]

وفى هذه السنوات التى يخيم عليها الظلام والغموض عكف مشرع الجزيرة العربية [؟] علي إرساء أسس مجده المستقبل [؟] . كان فى سكون عزلته يفكر فى هذا الدين الذى سوف يخضع له الشرق .

فقد أدى تشتت اليهود بعد هدم « أورشليم » واشتعال الحروب الدينية بين الروم الي أن زحرت رحاب الجزيرة العربية باليهود والنصارى ، فدرس محمد عقائدهم [؟] وضم الي هذه المعارف تاريخ بلاده [؟] فقد كانت كنيسة الشرق منقسمة ، مزقتها مجموعة من الطوائف التى نشأت فى أحضانها ، وأهمل الحكام شئون بلادهم ، وركزوا كل اهتماماتهم فى مساندة القضايا المذهبية الدينية (الثيولوجية) . بينما كان الفرس تحت راية كسرى يحملون الحديد والنار ، ويدقون أبواب القسطنطينية . وكاد العرب ينسون فكرة التوحيد فغرقوا فى ظلمات الوثنية ، وتدنس حرم الكعبة التى شيدت لعبادة « الكائن الاعظم » [؟] وصور إبراهيم وإسماعيل وهما بمسكان بأيديهما بسهام الخط وأحاط بالحرم ثلاثمائة وثن . هكذا كان حال الشرق حين فكر [؟] محمد فى إنشاء الإسلام ، و جمع العرب المنقسمين تحت لواء قانون واحد ، فقد أعطى موسى بنى إسرائيل التوراة ، أما مخلص الناس فقد منحهم الانجيل ، فأراد محمد أن يظهر أمام أمته ويده كتاب إلهي ، فعكف علي نظم القرآن [؟] ونظراً لعلمه بملكة العرب البيانية فقد حرص علي أن يستميلهم بجمال الاسلوب ويدهشهم بروعة الصور بدلاً من أن يقنعهم بالحجة والبرهان .

[العالمية الإسلامية]

[هكذا فى هذه السطور ، رأينا المستشرق ضلل قومه عن رسالة محمد ﷺ حين وصفه بأنه « مشرع الجزيرة العربية » لينفى عن رسالته عمومها للناس فى مستقبل الأجيال ، وعالميتها فى كافة البقاع ولكافة الأجناس . وقد بلغ بالكاتب فى امتهانة عقول القراء الحد الأقصى . فهو يذكر هذا فى مقدمته لترجمة القرآن الذى ضم بين نصوصه العديد من الآيات التى تنص على عموم الرسالة وعالميتها . قال تعالى فى أول سورة الفرقان «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» وقال فى سورة سبأ ٣٨ « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .]

[والدلائل واضحة على أن جميع رسالات الأنبياء السابقين كان يصيبها التغيير والتبديل قليلاً أو كثيراً مما اقتضى بعثة مرسلين آخرين ، ولو أن الله أراد أن تكون رسالات السابقين لمحمد من الأنبياء عامة للبشر كافة فى طول الأزمان والأبداً لحفظ هذه الرسالات من التغيير ولأبقى أصولها من الزوال .]

[ولكنه سبحانه ضمن حفظ القرآن ورسالة النبى محمد وحده «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ولذلك أعلن صفة الكمال والتمام للإسلام لأنه الدين الخاتم «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» «ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين» ، ولم يعلن الله لدين سابق ما اعنه للإسلام عن تمام وكمال وحفظ (١) .. بل على العكس من ذلك نجد النص فى سفر التثنية من التوراة (١٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقتة ، وأن الله باعث غيره بغيرها ، يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك - من اخوتك - مثلك - له تسمعون ، وقال (١٥-١٨) . «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، و (٣٣: ١-٢) هذه هى البركة التى بارك بها موسى بنى إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سحير ، وتلاًلاً من جبل فاران (٢) . «وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم ، ، فهذه الآيات من سفر التثنية تدل على أن الله يبعث نبياً مثل موسى فى يمينه نار شريعة ملتهبة ، وأن الله يلقى فى فمه كلاماً فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله إليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ولا أدومها إلى يوم القيامة .]

[وهذا النبى أشعيا يبشر ببعثة نبى آخر فى الاصحاح ٤٠ من السفر المنسوب إليه]

[وفى سفر ملاخى بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بنى إسرائيل والزيور ، تدل كلها على أن ما كان عندهم لم يكن آخر رسالات الله ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام .]

(١) [الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى . المحاضرة السابقة ص ١٣٩-١٥٩ المطبعة السلفية بالقاهرة .]

(٢) [بركة فاران هى التى سكنها هاجر وابنها إسماعيل كما فى سفر التكوين ٢١-٢٩]

[وهكذا الإنجيل يتضمن النص على أن المسيحية دين مؤقت يعقبه دين الإسلام العام الخالد ، ففي إنجيل يوحنا (١٤ : ١٦) « وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر ليبقى معكم إلى الأبد ، وفيه (١٦ - ١٢ - ١٣) « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، فهذه نصوص بيينة تؤكد توقيت رسالة عيسى ، وعموم الرسالة التي تليها وخلودها وهي رسالة الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ لا للعرب خاصة ولكن للبشرية عامة . ولذلك قال ﷺ : « ختم بي النبيون ، ، وقال « ألا لا نبي بعدى ، . »]

[وهل أتى نبي آخر غير محمد ﷺ برسالة عامة لجميع البشر ؟]

[إن اليهود كما نرى يزعمون أن إله العالمين هو إله أمتهم وحدها ، وأسفارهم لا تخاطب غيرهم ولا تدعو لإلههم إلا أسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرفع إلا غنم بنى إسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته إلا فى قراهم وأرضهم والمنسويين إليهم ، ولم يرغب فى إعطاء خبز الأولاد للكلاب . وكذلك صحائف (ويدا) الهندية - وهي الكتب المقدسة التي يدعى الهنالك أنها منزلة على أنبيائهم من السماء - لا تطرق نبرات تلاوتها غير آذان الأمة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس مناكيد ، وآذان الشودر (أى الأنجاس) إذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيها الرصاص .. [المذاب] ..

[أما الرسالة المحمدية فهي الأولى والأخيرة من رسالات الله التي جعلها للناس كافة .. ذلك لأن إله الرسول ﷺ هو إله جميع الأمم وهورب العالمين « الحمد لله رب العالمين » فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلها « رحمة للعالمين » برسالة لجميع البشر « إن هو إلا ذكرى للعالمين » (الأنعام ١٠١) - « قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض » يطالب بها الإسلام كل من بلغه نداؤه « وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (الانعام ١٩) . وفى صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال (بعثت الأنبياء قبلى إلى أممهم خاصة ، وبعثت إلى الأمم كلها عامة ، .]

[هل للرسالات المخالفة للإسلام كمال الاسلام ؟]

[الإسلام دين وفى ما يحتاجه المرء من اعتقاد قلبى ومن عمل للجوارح يتعلق بالله وبالناس وبالنفس والآداب . فهو دين عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق . وهذا مظهر اكتماله ووفائه بحاجات البشر . أما غيره من الكتب السماوية حين نقارنها بكتاب الإسلام ، فلا نجد فيها هذه الخاصة . فما فى التوراة والإنجيل من العقائد لا يروى الغليل ولا يشفى العليل .]

[نعم . نجد فيها ذكراً لوجود الله وتوحيده ، ولكننا لا نجد فيها دليلاً يؤيد ذلك ، ولا برهاناً يحمل النفوس على التصديق به ، كما لا نجد فيهما ذكراً للصفات الإلهية التى تزكو بها الروح الإنسانية ، وتطهر بها نفوس البشر ، وتنشأ بها محبة الله وعرفانه .]

[فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور ، ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحى والإلهام ، والصلة بين الله ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة ؟ وما معنى الإيمان بالأنبياء ؟ وما معنى عصمتهم ؟ ، هذه المسائل كلها لم يتكشف أمرها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبياً من الأنبياء ، تصدى لذلك وأفاض فيه ، أو على الأقل ليس بين يدينا ما يدل على هذا] .

[أما الجزء على الأعمال وأمر الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح فى التوراة ، ولا نقرأ عنه فى الإنجيل إلا فقرتين فى جواب يهودى ، والجنة والنار لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك ، بينما الرسالة المحمدية هى التى أفاضت فى هذه الأمور بوضوح عظيم]

[وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة ، فإنه يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١: ١٨ ، ١: ١٩) وذكر فيها الملكان ، كما التبست فى الإنجيل حقيقة روح القدس التباساً تاماً حتى لا يتسنى للقارئ أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . بخلاف الإسلام الذى وضح أمر الملائكة ووصفهم وذكر أعمالهم وأسماء بعضهم ، فهم وسائط بين الله ورسله ، ومنهم ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما

أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٤﴾

[أما فى الأعمال ورأسها عبادة الله ، فان التوراة تتوسع فى ذكر القرايين وآدابها وشرائطها وعلى تناقض حاد بين المذاهب الإسرائيلية فيها - وفى التوراة ذكر الصوم والأدعية وذكر بيت ايل أو بيت الله ، ومع ذلك فإن هذه الأمور غير واضحة ، ولا تسترعى أنظار الناظرين حتى إن منهم من جنح إلى إنكارها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نجد فى التوراة أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، ولا كيف يدعو الناس ربهم ويسألونه حاجاتهم ، ونرى فى الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، ولكن ليس فيها ذكر لآداب العبادة وشرائطها وأوقاتها.]

[أما الإنجيل فقلما ترى فيه ذكراً للعبادات . بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم نجد فى فقرة منه (متى ٢٤-٢٥) ذكراً لتقشف المسيح وصيامه أربعين يوماً . وفى الإنجيل أيضاً اعتراض اليهود على المسيح بأن أصحابه لا يصومون ، وفيه ذكر دعاء دعا به عيسى عليه السلام فى الليلة التى أرادوا صلبه فيها . وفى ذلك الموضع دعاء آخر له ، لكننا لا نجد ذكراً لعبادات أخرى .]

[أما الإسلام ففيه الصلاة والصوم والحج مفصلة آداب كل منها وشرائطه ومواقيته وسننه وفرائضه . أما المعاملات أو قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، فقد فصلتها شريعة موسى وفى بعضها شدة . فجاء الإسلام وأقر معظمها ، وأضاف ما نقص فيها ، وحذف الشديد ، وجعل هذا الباب جديداً ، بأن يكون للناس كافة بعد أن كانت أحكامه خاصة ببنى اسرائيل .]

[ونحن لا نرى ذكراً لقوانين المملكة فى الزبور ولا فى الإنجيل ، وقد نجد فى الإنجيل بعض الأحكام فى الطلاق . أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه ، مع أن الدين العالمى الأبدى الذى يتكفل بحاجات المجتمع البشرى يتحتم أن يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى عليه السلام خالياً من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية إلى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالإغريق والروم .]

بينما استوعب الإسلام هذه القوانين فوضعت الأصول المحكمة الكافية التي أمدت الفقهاء والقضاء بكل حاجاتهم نصاً أو استنباطاً زهاء ألف عام . ولم يعرف العالم كله إلى الآن قانوناً أعَدل ولا أرحم بالإنسانية ولا أصلح لها من قوانين الإسلام .

[وأما الأخلاق ففي التوراة أحكام تتعلق بها منها سبعة تعد أصولاً ، وليس في هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابى : وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما . أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهى النواهى : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تخادن خليله جارك . لا تطمع فى مال جارك ، . وبعض هذه الأصول داخل فى بعض فهى فى الحقيقة أربعة .]

[ولم يزد الإنجيل على هذه السبعة إلا محبة الغير . أما الإسلام فملئ بأحكام المعاشرة وفيه كثير من قوانين المعاملات مفصلة ، وفى ليلة الإسراء أعطى الله أمة الإسلام اثنى عشر حكماً أساسياً . منها واحد فى التوحيد ذكرتها سورة الإسراء (٢٣-٣٩) وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهى ، اقرأ «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه .. [إلى] .. ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة» ..]

[فالأمور الإيجابية هى]

- | | |
|----------------------------|-------------------------------|
| ١]- بر الوالدين وطاعتهما . | ٢]- إيتاء كل ذى حق حقه . |
| ٣]- الاحسان إلى اليتامى . | ٤]- الوزن بالقسطاس المستقيم . |
| ٥]- إيفاء الكيـل . | ٦]- الوفاء بالوعد . |

والامور السلبية

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------|
| ١]- لا تقتل أولادك . | ٢]- لا تقتل نفسك . |
| ٣]- لا تقرب الزنا . | ٤]- لا تقفُ ماليس لك به علم . |
| ٥]- لا تبذر فى النفقة واقتصد فيها . | |

[وهكذا عنى الإسلام بكرامة الجنس البشرى ومكانته من سائر المخلوقات «ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على

كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴿ (الاسراء ٧٠)]

[وكان الإنسان قبل الإسلام يرى نفسه أخط منزلة من معظم المخلوقات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطئ رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكاً أو أبيض لامعاً ، ولكل ذى لبن سائغ ، أو لعاب قاتل ، فعبد النجوم والبقر والأفاعى والنيران . وكل ما يخشى شره أو يرجى خيره من الكائنات . فرد الله للإنسان اعتباره قائلاً : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ (الحج ٦٥) ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ (النحل ١٢) ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ (الأنعام ١٦٥) . وبهذا تجرد الإنسان الذى يدين بالإسلام من كل ما نسجته حوله أيدي الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة .]

[وقد بشر الإسلام بأن الإنسان يولد على الخير . وله ماتجنى يداه خيراً أو شراً . بينما ديانات الصين والهند - التى تؤمن بالتناسخ - تقرر أن الروح التى تسكن المرء إنما هى روح أخرى تعذب أو تسعد جزاء عمل أسلافه الذين ماتوا ، وانتقلت أرواحهم إليه . وكذا المسيحية تحمل كل مولود خطيئة آدم . ولكن القرآن يقول ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .]

[وكان براهمة الهند والزرذشت - يحسب كل أن أرضهم الممتازة وغيرها محروم من رسالة السماء . وكذا كان بنو إسرائيل يعتقدون أن رسالات الله خاصة ببعض أسباطهم . أما القرآن فقد قال : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (سورة فاطر) ، ﴿ لكل قوم هاد ﴾ (الرعد) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴾ (الروم) وبينما كفر كل أهل ملة بغيرهم قال القرآن ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ (البقرة) ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ (النساء ١٣٦) .]

[وكل الديانات تجعل بين الناس وريهم وسائط . فاليهود يتخذون من سبط لاوى ومن تناسل منه شفعاء بينهم وبين ربههم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين وخلفائهم

من الرهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم الى الله . فما ربطوه فهو مربوط بالسماء ، وما حلوه فى الأرض فهو محلول فى السماء . كما زعم البراهمة أنهم مخلوقون من يمين الله ، فهم وسطاء الخلق إليه حين يتقربون ويعبدون ربهم . بينما ألغى الإسلام الوسائط جميعاً . فقال ﴿ وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (البقرة) وأمر النبى بهدم الأضرحة . وألغى امتيازهم من البشر ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ بينما نرى فى هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله عز وجل وتنتحل بعض صفاته . [

] وهكذا نرى أن الإسلام وحده هو الذى جمع الخصائص التى تجعله - دون سواه من الأديان - ديناً عاماً لكل عصر وجيل وجنس ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبدل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [

] فما يجنح إليه سفارى وغيره من المستشرقين من التنصيص على أن النبى محمد ﷺ ، « نبي العرب » ، إنما يوحون به إلى معنى فاسد ، وأكاذبية ضالة مضلة [

] وقد ذهب « سوندرس » - المحاضر الأول بقسم التاريخ بجامعة نيوزيلانده - مذهب سفارى ، وقال إن عمر هو الذى نشر الاسلام خارج الجزيرة ولم يكن ذلك فى برنامج محمد ، وذلك من الكاتب قياس على أسلوب انتشار المسيحية واليهودية بعد عيسى وموسى . فقد كان هذا على أيدي الحواريين من بعدهما ، بينما القرآن فيه نحو أربعين آية تدل على طبيعة العموم فيه ، وأنه للناس كافة ، وأن الله رب العالمين .. وليست اليهودية كذلك . فهي تجعل الرب إلها لليهود . ويقرر قصد محمد نشر دينه للعالم كافة كثير من المستشرقين الخصوم مثل نولدكه وجولد سير وارنولد[^(١)].

[شبهات أخرى على عموم الرسالة]

[ويذكر المستشرقون والمبشرون شبهات أخرى على عموم رسالة الإسلام ليثبتوا خصوصتها بالعرب ، فمن ذلك قولهم ^(٢) :

[(١) إن القرآن يقول ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ فأثبت أنه نبي العرب وحدهم .

(١) [المستشرقون والاسلام ص ٢٨٧ : ٢٨٨].

(٢) [ثبات الايمان ونصرة القرآن للشيخ محمد حلاوة الموصفى ص ٨٨].

والجواب أن هذا تخصيص بعد تعميم ورد في آيات كثيرة ، نحو قوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [

(٢) وقالوا : انه لا حق لمحمد في انذارنا ، فانا منذرون من قبل عيسى بن مريم عليه السلام . والجواب - ان يقال لهم : لو استقمتم على شريعة عيسى ما أنذرکم محمد ﷺ ، إذ لم يقل لكم عيسى أنى اله أو ابن اله . بل اخترتم ذلك من أنفسكم فوجب إنذارکم.]

[إنكار «وليم موير» عموم الرسالة (١)]

[قال وليم موير : إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً . فإن المعنى الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يتهدأ إلا لها ، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج .]

[وكذا وقف الامير «ليونى كيتانى» ، يتشكك فى أن الرسالة المحمدية كان يفكر النبى فى إنطلاقها خلف حدود الجزيرة العربية (٢) .]

[الرد على وليم موير وكيتانى]

[أولاً : لا يمكن أن يقبل العقل الادعاء بأن محمداً لم يفكر فى عموم رسالته ، وقد تناولت عموم الرسالة عشرات النصوص التى ذكرنا بعضها . ولا يمكن أن تكون دعوى العموم غامضة ونصها كما فى القرآن . ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف ١٥٨) ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (سبأ ٢٨) - ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ (ص ٨٧، ٨٨) ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر

(١) Nuir : the caliphate p 43-44 (1924)

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ص ١٧٧ ج ١ ط ٣ سنة ١٩٥٣ النهضة المصرية .]

من كان حياً ويحق القول على الكافرين» (يس ٣٦، ٦٩، ٧٠) والحديث النبوى الشريف ، وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، .

[وكيف يقال عالمه الذى كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب ، مع أنه أولاً - أرسل كتبه ورسله إلى الحبشة والروم ومصر وفارس وغيرها من الإمارات . وثانياً - أنه بشر يوم الخندق وغيره بفتح فارس والشام ومصر ، إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة ^(١) ، وثالثاً - أنه خرج إلى الشام صبيّاً وفتى بالتجارة مع عمه ثم مع ميسره فى مال خديجة وعرف من امر الروم ما عرف . رابعاً - أنه رأى المرفى مكة ، وقد صبر وصابر حتى دانت له الجزيرة ، فأصبح ذا شوكة هددت الروم وفارس بل والحبشة - إن صحت رواية سعد القائلة أن غزوة علقم بن مجرز للحبشة كانت فى عهده ^(٢) ، لا عهد عمر - كما رجحه الطبرى وابن الأثير ^(٣) .]

[أفيقال : إن هذا الذى ذاق حلاوة النصر على الصعاب ، والذى أصبح القوة الجديدة الحصينة بالجزيرة بين الروم والفرس كان فكره مغلقاً على الجزيرة ؟ وهو الذى قال عن بلال إنه ، أول ثمار الحبشة ، وعن صهيب ، أول ثمار الروم ، ومثل هذا عن سلمان الفارسي ، أفيقبل أن يقال : إن الإسكندر المقدوني ونابليون بونابرت الفرنسى ، أرادا تكوين أمبراطوريات كبرى فتصدق الدعوى . فإذا قيل هذا عن محمد أبيناً أن نصدق لا لشيء [لا لأنه عربى ١٩٠٠]]

[دعوى أن الإسلام أنسب دين للعرب]

[يردد المستشرقون هذا قائلين : إن العرب أقبلوا عليه بينما لم يستجيبوا لليهودية والمسيحية اللتين لا توافقان منهاخ العرب . وجرى تلامذتهم مجراهم ... وهذه نظرة تأخذ صورة البحث العلمى للإيهام بأن الإسلام دين خاص بالعرب وابن بيئتهم . والرد على هذا أنه يناسب كل الأجناس والبيئات فى كل العصور بدليل اقتحامه

[١] (أورد الطبرى ج ٤ ص ٣٢٨ ط القاهرة سنة ١٣٢٦ لابن عبد الحكم رواية مماثلة ج ١ ص ١ ، ٢ من

فتح مصر طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .]

[٢] (الطبرى ٣٢١/٤ سنة ١٣٢٦ وابن الأثير ٢/٤٠٠ الكامل فى التاريخ ط بولاق وقد رجحا انها فى عهد

عمر وفى الطبقات ١١٧/٢ انها فى عهد عمر .]

الأسوار على كل البيئات والأجناس، وسيطرته على قلوب أهلها. وتجنيدهم للدفاع عنه]

[الدين العالمي في المستقبل]

[وإذا كنا ناقشنا مبدأ عالمية الإسلام من حيث النصوص الدالة على ذلك .. فإننا نضيف إلى ذلك أن العالم جميعاً يتجه طبيعياً إلى تعاليم الإسلام مما جعل بعض المفكرين الكبار يتوسمون استغلال البشرية به .]

[ومن هؤلاء الكتاب الكبار الفيلسوف الإنجليزي « برناردشو » إذ يقول :]

[لقد وضعت دائماً دين محمد ﷺ موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة . فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس .. ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً . وقد بدأ كونه مقبولا لديها اليوم .]

[وقد صور « اكليروس » - يعنى رجال الدين المسيحي - القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب التعصب الذمى أو بسبب الجهل الممقوت .]

[ثم قال : « ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد ﷺ وكراهية دينه . وكانوا يعتبرونه خصماً للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلاً مدهشاً فرأيناه بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى « منقذ الإنسانية » .]

[وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة للذين هو فى أشد الحاجة اليهما . ولقد أدرك ذلك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال « كارليل » و « جوت » . هكذا وجد تحول حسن « فى موقف أوروبا من الإسلام » .]

[ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد ﷺ . وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشكلاتها .]

[فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد ﷺ حتى ليكن أن يقال - إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ ، وأنه لن يمر القرن العشرون حتى تعتنق الأمبراطورية

الإسلام . (١) . [

[وقال « ماسينيون ، فى كتاب الإسلام والنظام العالمى الجديد ، إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض عمليات المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية ويقف فى نفس الوقت الى جانب حقوق الولد والزوج ، ويشجع الملكية الفردية ورأس المال التجارى . وبذا يحتل الإسلام - مرة أخرى - مكانا وسطاً بين نظريات الرأسمالية البورجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية .] (٢)

[وفى محاضرة للاستاذ « بوزورت سميث ، عن « محمد والمسلمين ، أنه قال : أما الإسلام فكل شئء يختلف فيه عن غيره . وإننا لنعرف الكثير عن محمد ، كما نعرف عن لوثر وملتون . ومن الامور التى دفعتنى إلى إعتناق الإسلام .. دعوته إلى المساواة بين الناس . ومن الإنصاف لهذا الدين أن نذكر أنه الدين الوحيد الآن الذى يستطيع أن يقضى على ما ينتاب العالم اليوم من نزعة عدم الرضا .]

[وقال « رينان ، : لم أدخل مسجداً قط إلا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حين أذكر أنني لست مسلماً . وإنى لعلى يقين من أن فى أوروبا وأمريكا آلافا يتمنون مخلصين أن يعتنقوا الإسلام ، ولكن تعوزهم الشجاعة ليعلموا ما يخفون . وإنى لأقولها كلمة حق مدوية بأننى ارتضيت الإسلام ديناً ، ورائدى فى ذلك قول الله سبحانه : ﴿ قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين .. ﴾ (٣) .]

[رد الدكتور دراز]

[وكتب الدكتور محمد عبد الله دراز مقالاً يرد فيه على من قال إن الإسلام دين محلى ، جاء فى مرحلة طفولة البشرية . فقال ما خلاصته . إن الإسلام دين عالمى لكل العصور القادمة :]

[(١) المستشرقون والإسلام لذكريها هاشم ص ٢٨٥-٢٨٦ ونور الاسلام ص ٧٢٠ من المجلد الرابع

عام ١٣٥٧ هـ .]

[(٢) المستشرقون والإسلام ص ٢٩٧]

[(٣) المرجع السابق ص ٣٠٠ .]

[١ - فقد انتشر بسرعة فائقة بين أمم مختلفة فى ألسنتها وأبدانها ونزعاتها وطبيعة أراضيها وأجوائها ، وفى أساليب حياتها . فأثبتت بصلاحيته لها كلها خاصية العالمية فيه .]

[٢ - لقد واجه الإسلام أقسى حروب التدمير .. فظل قادراً على الثبات فى وجهها . وعاد خصومه .. كناطح صخرة يوماً ليوهنها .. فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل .]

[٣ - ولا يزال الإسلام قابلاً للانتشار كلما رفعت الحواجز الصناعية الإرهابية أو الإنحلالية من طريقه . فالنفوس تتقبله كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع :]

[أ - لمجاوبته للفطرة الانسانية ، ووفائه بحاجات العقول والقلوب ،]
[ب - ولخلقه روح الأخوة بين أتباعه ، فالمسلم - حتى فى عصور تعدد الخلافات - كان كما يقول المؤرخ الألماني « متز ، فى كتابه « نهضة الإسلام ، كان يشعر أنه حينما حل فهو فى قلب وطنه .]

[ج - ولروح التسامح التى ينشرها بين كافة طوائف البشر لأنه « لا إكراه فى الدين » . وقد ظلت هذه الروح المتسامحة فى شتى العصور بين المسلمين . كما قال المؤرخ الألماني « كريم ، فى كتابه « حضارة الشرق فى عهد الخلفاء ، وكما قال المؤرخ الفرنسى « جوتييه ، فى كتابه « أخلاق المسلمين وعوائدهم ، اذ قارن بين المسلمين وقبولهم كل المال والنحل داخل مجتمعاتهم . وبين مسيحيى الغرب حين نشبت الحرب فى جنوب فرنسا بين المذاهب المسيحية نفسها ، فنهض البارون « سيمون دى مونتفور ، بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين ، ومعهم فرقة من الرهبان ، الى مقاطعة « لانج دوك ، لاسئصال الديانة المجوسية منها حتى أهلكوا كل من فيها ، وهكذا فعلوا مع فرقة « بوهميا ، التى نبتت بعد ذلك . ومع جماعة الإصلاح الدينى التى نشأت فى شمال ألمانيا بعد ذلك . وقد دامت المعارك بينهم وبين الإصلاحيين زهاء ثلاثين عاماً ، ولم تقف الحرب إلا على أساس عدم تعايش سلمى فى دولة واحدة ، بينما الخوارج والشيعية وأهل السنة يعيشون مع الأديان كافة فى إطار دولة إسلامية واحدة .]

[ولم يعرف الأوروبي التسامح إلا فى صورة إنحلاله وتحلله من مسيحيته ،
بينما المسلم يكون متسامحاً وهو أشد ما يكون مستمسكاً بدينه .]

[المنطق القرآنى]

[والعجب أن ينفى الكاتب عن القرآن وصفه بأنه مقنع بقوة الحجة وسلامة
المنطق وصحة البرهان ، بينما القرآن لم يترك أسلوباً من أساليب الإقناع إلا استعمله ،
ولا حجة للمشركون والملاحدة إلا نقضها .]

[ففى دعوى وجود إلهين للعالم أو أكثر قال القرآن ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله
لفسدنا ﴾ ، ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ
المضلين عضداً . ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين زعمتم فدعوهم ، فلم يستجيبوا
لهم . وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ وهى أدلة عولت على مقررات علم النفس والواقع العملى
المشاهد فى المجتمع . والسخرية المنطقية فى أسلوبها اللاذع والمنطق الجدلى الذى لا
يدفع .]

[وفى الرد على منكرى البعث قال القرآن ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟
قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر
الأخضر ناراً .. الآيات ﴾ (يس ٨٠) . ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ،
وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ (الروم ٢٧) .]

[وهكذا لقى « مستر فرانك فوستر » ، الإقناع ، عن القرآن ، ولعل أقوى دليل
على فساد الدعوى ، أن القرآن نقل البشرية من أحط منزلة إلى أسماها . فمن الحمق
أن يقال عنه أنه لا حجة فيه ولا منطق ، وإلا فبماذا أقنع الملايين إن لم يكن هذا بقوة
الحجة .] [١٩]

[نزول القرآن منجماً (جزئياً)]

ويرجع الفضل فى نجاحه [ﷺ] إلى خطة بمقتضاها لم يكن ليظهر من القرآن إلا عدداً
محدوداً من الآيات - الفنية بعد الفنية - وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً . وبهذا الاحتياط
الحكيم أصبح يتحكم فى حديث السماء ، ليجعلها تتحدث حسب الظروف
والملاسات .] [٢٠]

[والعجب أن يذكر سفارى هذا بينما القرآن قد ضم بين دفتى المصحف أسئلة كانت تعرض على النبى ﷺ فلم يجب عليها حتى نزل الوحي بالإجابة ، ولو أنه ﷺ كان قد أعد القرآن فى الخمسة عشر عاما السابقة على إعلان البعثة .. لما كان فى حاجة إلى انتظار الرد انتظاراً أدى الى أن اتهمه الكفار يوماً بأن الله هجره . إذ منع عنه الوحي فى المدة التى تسمى تاريخياً ، فتور الوحي ، ونزل فى هذا قوله تعالى ﴿ ما ودعك ربك وما قلى . ﴾

[بل إن القرآن ذكر أفعالاً وأقوالاً للرسول فى موضع اللوم والنقد كقوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم . حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (الأحزاب- ٣٧) والمرء لا يضع نفسه موضع اللوم . فلو كان محمد صانع القرآن لما ذكر نفسه فى مقام المؤاخذه .]

[دعوى أن القرآن صنعه محمد مستعيناً بالكتابيين]

[هذه الدعوى ذكرها سفارى ، وذكرها آخرون . فالعرب فى الجاهلية حكى القرآن عنهم أنهم قالوا ﴿ أساطير الأولين اكتبها فهى تملئ عليه بكرة وأصيلاً ﴾ . ومن المستشرقين الذين قالوا هذا ، يوحنا الدمشقى ، الذى كان معاصراً للنبى ولهرقل . ثم قال بهذا ، ثيوفانيز البيزنطى ، ثم ، نيكيتاس البيزنطى ، فى القرن التاسع ثم ، وليم الطرابلسى ، المتوفى سنة ٨١٧ م وقد ذكر فى كتابه « حياة النبى محمد ، توفى عام ٦٣٢ م (٦١٢٢ من بدء العالم) - ثم توماس كارليل ، . ثم ، أ. ج. فينسينك ، عضو المجمع اللغوى السابق وقد قال : «إن القرآن كتاب مسيحى نسخه محمد ﷺ وقد رد عليه الاستاذ حسين هوارى فى كتابه «المستشرقون والإسلام ، (ص ٧١) . وبهذا قال «بودلى ، «دجيب ، وتجاهل هؤلاء التاريخ . فإن النبى لم يوجه الدعوة فى العهد المكي إلى اليهود والنصارى وقد كان النصارى لا شوكة لهم حتى يتألفوا بالأخذ منهم . كما أن معاداة النبى لليهود تعلن استحالة القول بأنه استعان بهم على نشر دينه بأخذ معلومات عنهم . والإسلام فى طبيعته يحارب العنصرية والطائفية فكيف يصنعها محمد بتقريب الكتابيين منه .]

[الأدلة على ان القرآن من عند الله]

١ - [إن أبرز دليل على أن القرآن كتاب الله هو ما تضمنه من أسرار وأحكام وتشريعات ومقررات علمية واجتماعية لا يمكن أن يكون لها مصدر - مع تنوعها ودقتها وتميزها بين ثقافة العالم أبان نزول القرآن - إلا مصدر واحد هو الله خالق السموات والارض . فإن المشرعين نراهم يقترحون القوانين اليوم ثم تبدو فيها الثلمات فيرجعون عنها مقربين أنهم أدركوا - مؤخرأ - عدم موافقتها للنفوس أو العمران أو الظواهر الطبيعية . ولكن تشريعات القرآن لا يعنوها هذا النقص .]

[و مرجع هذا إلى أن فلاسفة البشرية يجهلون أسرار الخلق ، بينما القرآن أنزله الذى يعلم السرى السموات والأرض .]

٢ - [ومن ناحية الصورة قال القرآن ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ ووجه الاستدلال فى الآية أنها تبين أن لكل إنسان ولكل عصر طابعاً خاصاً فى التفكير . وفى أسلوب التعبير وفى التصوير البيانى . وهذا يعرفه كل نقاد الأدب والفكر ، ولو أن القرآن كان تجميعاً لآثار العرب الأقدمين ، ولما خلا فى الديانات الإسرائيلية . لاضطربت أفكاره وتشريعاته وصوره البيانية بل وطرق الأداء اللغوى ، ولكن خلو القرآن من أى اضطراب .. واتساق معانيه وعباراته واستواءها ، كل ذلك يقف دليلاً على وحدانية مصدر القرآن ونسبته إلى الله العزيز الحكيم .]

٣ - [ومن ناحية استحالة احتمال أن يكون القرآن من صنع البشر ، نحن نعرف أن القرآن نفسه تحدى فصحاء العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا . قال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (البقرة ٢٣-٢٤) . وقال ﴿ قل لكن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . (الاسراء ٨٨) وقال ﴿ أم يقولون افتراه . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن

كنتم صادقين ﴿ (هود ١٣) . وقد استمر التحدى من جهة القرآن والإستسلام من جهة خصومه بعد عدة محاولات فاشلة . ولهذا فإن عتبة بن ربيعة لم يلبث حين سمعه أن آمن بأنه ليس من قول البشر . ومن المغالطات أن ينسب كزيمرسكى إلى محمد بن عبد الوهاب القول بإمكان الإتيان بما هو أبلغ من القرآن (١) .]

٤ - [وقد جنح القرآن فى الإقناع بأنه كتاب الله أنزله على محمد ﷺ نبيه ورسوله إلى الدليل التاريخى فقال ﴿ قل لو شاء الله ما تلونه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ (يونس ١٦-١٧) .]

٥ - [وقد ذكر القرآن من أخبار الغيب الماضى ما كان مجهولاً لعصره ﷺ ولعصور عديدة من بعده . ثم جاءت الدراسات الأثرية وكشفها تؤكد صدق القرآن فى دعواه . وهذا التصديق يفرض علينا أن نعممه فى كل ما نزل فى القرآن . بما فى هذا نصوصه التى تؤكد أن القرآن من عند الله وليس من عند محمد كقوله تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (وهذه) الأخبار التى ذكرها القرآن وليس لها ذكر فى الكتاب المقدس تنفى صحة دعوى المستشرقين والجاهليين الأولين أن القرآن مجموع من الكتب المقدسة السابقة وغيرها وتدل على أن القرآن من عند الله علام الغيوب .]

٦ - [القرآن تضمن من القضايا الدينية التى جاءت فى الكتب السابقة ما لا يعلمه إلا المتخصصون فيها من أحبارها مما يضمنون به على العامة ، فضلاً عما ليس من ملتهم . ولهذا فإن نجاشى الحبشة لم يلبث حين سمع قراءة جعفر بن أبى طالب سورة مريم وما فيها من قصة يحيى وزكريا وعيسى ومريم أن سالت دموعه وقال: ليس بين ما نسمع منك الآن يا جعفر ، وبين ما تقول ديانتنا إلا سمك هذا القضيب (٢) . .]

(١) [خاتم النبیین فی نظر المستشرقین ص ١٠٤ .]

(٢) [لبات الإيمان ونصرة القرآن ص ٥٦ .]

[شبهات اخرى]

[وقد اعترض بعض المستشرقين والمبشرين واتباعهم على دعوى أن القرآن من عند الله بقولهم : لو كان من عند الله لما وجد فيه تعارض وتناقض ، وقد وجد التعارض بين قوله سبحانه في النحل ﴿ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ﴾ إذ يدل على أن القرآن بين . وبين قوله سبحانه في آل عمران ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات - هن أم الكتاب - وآخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ . فهذا يدل على أن القرآن فيه متشابه لا يعلم تأويله إلا الله . وهذا معناه أنه غير بين .. فكيف يكون في آية النحل ﴿ عربي مبين ﴾ وفي آية آل عمران ﴿ آيات متشابهات ... وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ مع أن المبين هو الذي لا يحتاج إلى تأويل ؟ ..]

[والجواب]

[إن المبين هو اللفظ الذي دل على معناه الموضوع له ، ولا شك ان اللفظ المشتابه كلفظة « اليد » ، في قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » دل على المعنى الموضوع له وهو الجارحة المخصوصة إلا أن هذا المعنى لا يصح أن يراد لاستحالة الحدوث عليه تعالى ، فيلزم أن يفوض فيه الأمر إلى الله الذي يعلم تأويله . وذلك رأى السلف .]
[أو يراد من اليد غير المعنى الموضوع له لعلاقة بينهما ، وذلك المعنى هو القدرة . وذلك رأى الخلف .]
وحيثُ خرج لفظ اليد من المتشابه ورجع إلى المحكم كما يشير إلى ذلك التعبير بلفظ « أم » ، في قوله تعالى « هن أم الكتاب » ، أى أصله . بحيث يرجع ما فيه من المتشابه إليها ، وعلى هذا فالمتشابه عربي مبين ، وإن لم يكن المعنى الموضوع له مراداً .]

[كما استشكل « هاشم العربي » نزول البلاد الإنكليزية في « تذييله » للفصول الثلاثة الأولى من كتاب المستشرق الأنجليزى « جرجس صال » فقال بعد ما ذكرناه « إن التناقض في القرآن يظهر أيضاً في قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (الاسراء - ١٦) فهو يناقض

قوله ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ وقوله ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ . [

أ] - فالآية الأولى تفيد الأمر بالفسق ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ فتناقض الآية الثانية . [

ب] - وتدمير من لم يفسق من أهل القرية . يناقض الآية الثالثة ، . [

[والجواب]

أ] - ان المأمورية في الآية الأولى ليس هو الفسق كما زعم . بل المأمورية هو الطاعة . وتقدير الكلام . (أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا) ، كما تقول : أمرت فلانا فعصاني ، ولنا أن نقول : إن الأمر بالفسق مجازي . والمعنى . صببنا عليهم النعم ، وافضناها عليهم فبطروا وفسقوا . كأن الفسوق من حيث كونه ناشئا عن نعمة الله التي أدت بهم الى البطر - مأمورية . [

أونقول - معنى أمرنا ، أكثرنا ، . ويكون المعنى ﴿إذا أردنا إهلاك قرية أكثرنا المترفين المطيعين لهواهم . ففسقوا . فأهلكناهم﴾ ومن ذلك قوله ﷺ . « خير المال سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة ، (أى كثيرة النتاج) . [

وعلى كل تفسير من هذه التفاسير ، فإن غير المترفين الذين لم يفسقوا استحقوا الإهلاك لعدم اعتزالهم الفاسقين ورضاهم بفسقهم . [

وقد قرئ : « أمرنا ، بمعنى جعلنا أمراءهم مترفين فأدى حكمهم إلى الهلاك . وما قيل من قبل يقال هنا . [

كما استشكل الكاتب بقوله تعالى ﴿فاليوم ننجيك ببذنك لتكون لمن خلفك آية﴾ فقال : إن نجاة فرعون من الغرق يناقض قوله سبحانه في سورة الإسراء ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ وفي سورة الزخرف ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ حيث أنهما لا تفيدان نجاة فرعون بل إغراقه [

[الجواب]

أن الآية لا تفيد النجاة بعد قوله تعالى ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت﴾ . بل تفيد اليأس من النجاة لتوبيخه بقوله ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾ . [

[نعم فى الآفة وعد بأن جثته لا تصل إلى قاع البحر كغيره بل تلقى على الساحل لتكون عبرة لمن يأتى بعده ، بدليل قوله « لتكون لمن خلفك آفة » بمعنى أن الله يجعله عبرة لمن يعتبر فليست النجاة إلا للجثة التى هلكت غرقاً كما هو واضح من السياق .]

[وقد ذكر الكاتب آيات مثل هذه وتحدث عن النسخ فى القرآن باعتباره ظاهرة للتناقض ، وقد صدر لى كتاب « النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه » ، رددت فيه كل دعوى للنسخ فى أى آفة (١)]

[النبي الأمى]

لقد انفق [النبي] خمسة عشر عاماً كاملاً فى إرساء أسس نظامه الدينى ، وبرع فى إعلانه بوضوح مثل فلق الصبح ، وفى إخفاء اليد التى تربط مصائر الناس بالسماء وتظاهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة ، واعتمد على فصاحته الطبيعية ، وعلى مواهبه المتدفقة التى لم تخنه أبداً ، وتصنع لهجة النبى المؤثرة . فقد كانت « إجيرى » Egerie هى التى تقوم بإلهام الملك الأسطورى «نوما» Numa (ملك روما) فاختار محمد الملك جبريل معلماً له .

[تعقيب]

[والعجب أن يقول الكاتب هذا فى القرن الثامن عشر الميلادى بعد مضى اثنى عشر قرناً على الرسالة . وقد تحدث القرآن عن النبى فوصفه بأنه « النبى الأمى » وتلقى العرب - الذين عاصروا النبى وكانوا فى مقام التحدى والعداء ، وكانوا يتلمسون السقطات - خبر أميته هذا بالقبول . ولم ينكروا ذلك عليه لأنهم يعرفونه أمياً كما يعرفون أنفسهم . فهذا الإتهام من الكاتب للنبى بأنه كان يتظاهر بالأمية فقط ، إتهام ينقضه اجماع الخصوم والأصحاب فى عهد نزول القرآن ، وفيما بعد نزوله على أنه « النبى الأمى » ، فهذا من الحقائق المتواترة تواتر العلم بوجود مدينة مكة وبإريس . ومنكر الأخبار المتواترة اما جاهل شديد الجهالة أو غبى . أو معاند للحقيقة .]

(١) [نبات الايمان ص ١٢٨ - ١٤٣ .]

[فلى يعظم النبى ويتهم]

[قال « فلى ، قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام دينى سياسى مازال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد- كمشرع- بين أقدم الأمم الآسيوية . وثبات نظامه مدى أجيال طويلة فى كل نواحي الهيكل الاجتماعى ، لدليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والاسكندر ،]

[هكذا يظهر فلى رسول الله فى مظهر العبقرى الذى نسج الدين من فكره برحيق عبقريته . وقد اسلفنا الرد على هذا بأن القرآن الذى جاء به النبى إنما يحمل دليل تصديقه ﷺ بما فيه من إعجاز . تضمن النص على أن محمداً رسول وما يأتى به «إن هو إلا وحي يوحى» .]

[ونضيف الى هذا أن العبقرى - بل وكل إنسان - لا يجد عظمتة الشخصية فى أن يطفىء بريقها الذاتى ويحببها باسناد كل مصادر الإضاءة والبريق إلى آخر . فهذا مما ينافى طبائع الأشخاص . إنما يتهرب المرء من العمل السئ أو الردىء فينفيه عن نفسه وينسبه إلى غيره .. ولو أن هذا العمل العظيم - وهو الإسلام - صنع رجل لا فتخر بنسبته إلى نفسه فقط .. فكيف ومحمد ﷺ قد نسب كل عظيم إلى ربه « إن أنا إلا نذير مبين » « قل ما كنت بدعا من الرسل » .]

[ثم إن ليكورغوس والاسكندر خمد ذكرهما وانطفأت آثارهما ، وخذ محمد ودينه يضيئان للبشرية . فلو كان محمد مزيجاً ليكورغوس والاسكندر لانطفأ تاريخه وتعاليمه ، كما انطفأت تعاليم وتاريخ الرجلين . ولكن صدق الله العظيم « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .]

[كازيميرسكى والأمية]

[كتب كازيميرسكى البولندى ، ترجمته للقرآن بالفرنسية ووضع لها مقدمة فى تاريخ الرسول . وأنكر أن النبى كان أمياً يوحى إليه القرآن وقال : « من المحتمل أن يكون فعل ذلك ليظهر أمام قومه فى صفة رجل موحى إليه من السماء (١) ، ثم قال :

(١) [خاتم النبیین ص ٩٧ .]

« لقد اقتبس محمد فقرات من الكتاب المقدس ضمنها القرآن وأوردها مشوهة إذ أن بعضها يخالف التوراة ، . » [

[الرد على كازيميرسكى]

[إن مخالفة القرآن للكتاب المقدس فى بعض الفقرات ناشئة عن تحريف الكتاب المقدس عبر القرون ، ولو كان النبى قد تلقى هذا عن مخالطيه من النصارى أو اليهود لما وقعت هذه المخالفات . فما سماه تشويهاً هو الدليل على عدم التلقى من البشر . ودعوى أنه عليه السلام كان قارئاً قلنا إنها باطلة لإجماع خصومه على تصديقه فى دعوى أميته وقد كانوا مخالطيه . ثم ماذا يصير الرسالة الاسلامية لو كانت منقولة عن الكتب السابقة مادامت قد أصبحت افضل من المنقول عنه من حيث نضج القضايا التى تعرضها ومن حيث صحتها وتكاملها وشمولها وعمق النظرية ؟ أليس هذا الرجحان فى مزايا الجديد جديراً بأن يوجب علينا الإيمان به والالتزام له والمنافحة عنه . ؟]

[إثبات أمية النبى]

[استدلل الأستاذ الإيبارى على أمية الرسول بالآتى (١) :

١ - لقد اتخذ النبى كتاباً للوحى كأبى بكر والأرقم بن أبى الأرقم وشرحبيل بن حسنة وعلى بن أبى طالب ثم خالد بن الوليد ومعاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن الأرقم وغيرهم . ولو كان كاتباً ما احتاج إليهم .]

٢ - فى غزوة أحد أرسل العباس بن عبد المطلب إلى النبى خطاباً مع رجل من بنى غفار فاستقدم النبى أبى بن كعب ليقرأ له الخطاب ، فلما انتهى أبى من قراءة الكتاب استكتمه النبى الخبر . ولو كان النبى يقرأ ما ورط نفسه فى استدعاء أبى ليقرأ له سراً خطيراً .]

٣ - وفى عام الوفود ، جاء وفد ثقيف ليبياعوا النبى ، وسألوه أن يكتب لهم كتاباً فيه شروط تريحهم . فقال النبى ﷺ : « أكتبوا ما بدالكم ثم ائتوني به ، فذهبوا إلى على يسألونه أن يكتب لهم كتاباً يعرضونه على النبى ، وطلبوا منه أن يذكر فيه إباحة الربا والزنا لهم . فأبى على أن يكتب ذلك ، فذهبوا إلى

(١) [تاريخ القرآن لابراهيم الايبارى ص ٤٧ - ٤٩ دار القلم .]

خالد بن سعيد بن العاص كى يكتب لهم فكتب ما أملوه عليه تاركاً للنبي التصرف . ثم ذهبوا بالكتاب إلى النبي وقرأ القارىء الكتاب عليه . فلما انتهى إلى الربا قال رسول الله ﷺ : « ضع يدى عليها فوضع يده » فقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » [١] . ثم محاها وأمر بالكتاب أن ينسخ بعد ما شطب . [٢]

[٤] - وفضلاً عن هذا ، فالقرآن وهو حجة الحجج - ذكر هذه الأمية فقال « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى » . واستدل على إعجاز القرآن بدليل الوقوع المعروف لدى المخاطبين فى عصر النبي فقال « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك » وقد كانت الأمية هى الظاهرة السائدة فى المجتمع . ولم يكن بالمدينة كلها من الكتاب إلا بضعة عشر كاتباً منهم سعد بن زاره والمنذر بن عمرو وأبى بن وهب وزيد بن ثابت ورافع بن مالك وأوس بن الخولى . فكان الكاتب مشهوراً فى عصره . ولو كان النبي كاتباً لما جهل العرب المخالطون له ذلك ، ولكذبوا القرآن فى دعوى الأمية . [٣]

* * *



الفصل الثاني
الرسالة في العهد المتأخر

الفصل الثانى

[الرسالة فى العهد المكى]

[بدء الوحي]

عام ٦٢٠٦ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٢١ م - ١٣ ق.هـ -
٤٠ من ميلاد محمد .

بلغ مشرع الجزيرة سن الاربعين . وهو الوقت الذى كان قد اختاره [١٩] ليعلن فيه عن مجيء بعثته ، فأنعزل حسب عادته فى غار جبل حراء ، وفى صحبته بعض الخدم [١٩] ، فقد جاءت الليلة التى توجت حياته بالمجد ، حسب تعبير أبى الفداء (١) . فنزل جبريل من السماء وقال له « إقرأ » (٢) . قال : ما أنا بقارىء . قال الملك : إقرأ بأسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق [النص الفرنسى : من التقاء الجنسين] إقرأ وربك الأكرم (الجدير بالعبادة) الذى علم بالقلم (استخدام القلم) . علم الإنسان ما لم يعلم . « وضع فى قلبه شعاع العلم » .

فأنشد [١٩] محمد هذه الآيات . وتقدم خطوات نحو وسط الجبل (٣) ، فسمع صوتاً من السماء يردد هذه العبارات « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » ووقف يتأمل حتى اللحظة التى اختفى فيها الملك عن نظره .

[تعقيب على دعوى أن القرآن شعر]

[لم يخف على القارىء سوء قصد المستشرق من اختيار لفظ « مشرع الجزيرة » ، عند ذكر النبى وهكذا يجب ألا يخفى قصده السيئ من عبارته « فأنشد محمد هذه الآيات .. » وكأنه يردد مع كازيميرسكى قول الجاهليين من العرب الأولين .. أن القرآن شعر ينشده محمد .]

[وقد رد القرآن عليه وعلى أمثاله هذا الاتهام فقال : « وما علمناه الشعر وما ينبغي

(١) أبو الفداء ص ١٤ . [١١٧/١] .

(٢) القرآن سورة العلق الآية الأولى وما بعدها .

(٣) أبو الفداء . ص ١٥ ، ١٦ [١١٧/١] .

له . ذلك أن مقام الزعامة السياسية والاجتماعية ، والتبعات الملقاة على كاهل الزعماء السياسيين والاجتماعيين لا تسمح لهم بالتحلق في آفاق الشعر والشعراء ، كما أن الشعر ليس الأسلوب الطبيعي للحقائق والمعارف التي يقتضيها الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، فما بالنا بمقام النبوة ، وهي قمة الإصلاح السياسي والاجتماعي والعقدي؟! بل أن عباقرة الشعر كلبيد حين سمعوا القرآن لم يجدوا للفصاحة معه مقاماً فتركوا قريضهم .

[وقدماً اقترح ترويج هذه الإشاعة ، فقال الوليد بن المغيرة للمقترحين .. «لقد عرفت الشعر هزجه ورملة وقصيره ومدیده ، والله ما هو بشعر ، ولا شك أن الوليد العربي المكي أعلم بالشعر العربي من سفاري ؟ »] .

[دعوى وجود خدم بالغار]

[وما زعمه سفاري من وجود خدم للنبي يصاحبونه في غار حراء .. منقوض بأمرين :]
[أولهما

[أن غار حراء ليس فقط قصراً أو متنزهاً يتسع للخدم ، ولكنه كهف صغير لا يتسع لإيواء أكثر من فرد واحد ، ولا يتسع لأعمال خدمة ، ولا حوله زروع أو محال تجارية يتزود منها الخدم بما يحتاجه سيد مخدوم .]
[ثانيهما :

أن طبيعة الخلوة عمل رياضي روي يتنافى مع مظاهر الخدمة والرفاهية ، ولكن الكاتب رأى أن يضيف على محمد صورة الملوك الجاهليين كأمرئ القيس في رحلاته للصيد ، ليضع « محمداً ، في الجو الذي يهيئه لحوار الإتهام بطلب الملك والاعداد له .. وهذا هو التهافت المزرى بالمؤرخ المغرض .. » يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون » (الصف : ٨)]

[السابقون إلى الإسلام]

[خديجة :]

لم يكن لمحمد صاحب يعرف سره . فلم يكن هناك بد من تصديق كلامه [هكذا ينسى المستشرق من ذكرهم من الخدم الذين زعم أنفاً أنهم كانوا معه في الغار] .

وتوجه [عليه] في بدء الأمر إلى زوجته وأثر بسهولة على عقلها بعد أن كان قد ملك قلبها ، وقص عليها ما شاهده ، ولم ينس أى ظرف من الظروف الجيدة التي لازمت هذا المشهد فقالت له خديجة : « إن ما تخبرني به لبشير بالخير (١) ، والذي نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

وبعد أن علمت هذا السر من محمد ، ذهبت على الفور لتفضي به إلى قريب لها يدعى « ورقة » ، كان يعكف على دراسة الكتب المقدسة ، وكان على علم بكتب اليهود والنصارى ، فأيد رأيها وأكد لها أنه سيكون نبي العرب [٢] فأثلجت هذه الشهادة صدرها ، ولم تستطع الإمتناع عن أن تقصها على زوجها .

[على ابن أبى طالب]

كانت خديجة أول من آمن برسائله وأول من اعتنق الإسلام (٢) ، ولم يقم محمد بإثارة أية ضجة في أول أمره ، وأما اتبع الطريق التي رسمها لنفسه خطوة خطوة ، وبكل أدب . وبعد إسلام خديجة وجه نظره إلى على الذي كان أحد أبناء عمه أبى طالب ، وتكفل به محمد في وقت اقترنت فيه مكة واشتدت بها الجماعة ، وظل منذ ذلك الحين يتولى تربيته في بيته بعناية أبوية . ولما علم في تلميذه طبعه الحاد وخياله المتدفق غذى فيه نزعاته الطبيعية ، وجعله جديراً بأن يكون فذاً في مغامراته الحربية ، ولم يكن من العسير السيطرة على قلب كان محمد يملؤه بفضل إحسانه وإنعامه ، فصديق على بقول محمد على الفور ، وأقسم أن يفدى عقيدته بالدم ، ولم يكن على قد جاوز الحادية عشر في أشهر الآراء (٣) .

[تعقيب]

[هكذا أراد الكاتب التعليل لإسلام خديجة وعلي بأنه كان تأثراً عاطفياً ، وقع نتيجة لدافع الحب من خديجة كما أنه ثمرة النعمة والإحسان إلى على ، ومن المشهور أن علياً حين أراد الإسلام طلب منه النبي أن يتروى في هذا الأمر ، ويستشير والده ، ولا يتعجل فقال على : ان الله حين خلقني لم يستشر أبا طالب . فكيف استشير في عبادة

(١) [أبو الفداء : ص ١١٧] أحمد بن يوسف « التاريخ » الجزء الأول الفصل التاسع .

(٢) ان كلمة إسلام مشتقة من فعل (أسلم) وليس معناها كما يقول الدكتور « بريدو Prideaux (ص ٢) » الدين الذي يخلص ، وإنما معناها « الاستسلام لله » .

(٣) مؤلف كتاب السيرة [وفى أبى الفداء كان علي في التاسعة وقيل في العاشرة وقيل الحادية عشر ج ١ ص ١١٨] .

الذى خلقنى انسانا من الأناس حتى ولو كان أبى ؟! وهذا يدل على أن عليا لم يتابع ابن عمه إلا على بينة من الأمر . كما أن خديجة لم تتابعه إلا عن اقتناع [.

[زيد بن حارثة]

وقرر محمد ألا يترك كافراً داخل بيته . ولما كان « زيد بن حارثة » عبداً يشر بمواهب عظيمة ، فقد ربطه محمد إلى شخصه برباط الدين الوثيق ، وآمن زيد بفرحة وبهجة برسالة سيد كان ينتظر منه الحرية، ولما اعتنق الإسلام اعتقه « محمد » .

[أبو بكر الصديق]

وكان أبو بكر (١) مواظباً ذا نفوذ في مكة ، مشهوراً باستقامته وبثرواته ، فشرع محمد يعمل على إسلامه ، اعتقاداً منه أنه جدير بأن يعطى قوة لدينه الجديد ، وتوج النجاح مجهوداته، وأصبح أبو بكر من أقوى أنصار الإسلام ، لقد كان إسلامه نصراً كبيراً ، فحمل أبو بكر بين أصدقائه شعلة الإيمان التى ملأت صدره وأخضع بها الكثيرين ، وقدم إلى النبی عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، آمن الجميع واعتنقوا الإسلام ، وكانوا الرعيل الأول للديانة المحمدية ، وتبعهم كثيرون غيرهم ، وغمر الفرح محمداً عندما رأى أبا عبيدة وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وقد انضموا تحت لوائه (٢) .

[الإعداد السرى للرعيل الأول]

ولقد كان عدد أتباعه قليلاً حتى ذلك الوقت ولكن شرف نسبهم وثرواتهم ومواهب الكثير منهم .. كل ذلك داعب قلب « محمد » بالأمانى المعسولة [١] ، ولكنه كان ضعيفاً، فلم يكن فى استطاعته أن يكشف عن نفسه ، وقرر ألا يظهر إلا أمام المؤمنين، تفرغ لتعليمهم ، ولتثبيت إيمانهم ، وطوال أعوام ثلاثة حرص على أن تظل دعوته واهدافه الواسعة تحت ظلال من السرية ، ولما اعتقد أنه يستطيع ان يعتمد على الطاعة العمياء [١٩] من المؤمنين الجدد ، أعلن عن نزول وحى جديد ، فظهر له جبريل ، وأمره بأن يدعو عشيرته ، وأن يستحثهم على الإسلام فنادى علياً ، وقال له : « أعد لنا وليمة ، وهىء لنا حملاً مشوياً ، واملاى إناء كبيراً

(١) كان اسم أبى بكر « عبد الكعبة » « فغيره إلى اسم « عبد الله » . ولما زوج ابنته عائشة من النبی حمل بعد ذلك اسم « أبو بكر » تشرفاً بهذا الزواج . (ومعناه أبو الفتاة البكر .)

(٢) أبو الفدا ص ١٨ [١٩٨/١] .

باللبن ، وادع بنى عبد المطلب ، فقد حان الوقت الذى أعلن إليهم فيها إرادة السماء .

[التعقيب]

[هكذا بأسلوب التآمر الاستعماري الذى يعيش فيه الكاتب ، أراد أن يفسر تاريخ حركة الإنقاذ والهداية السامية حين اخذت دور السرية] .

[والحقيقة أن النبي ﷺ فى مرحلة الدعوة السرية لم يكن يبغى تربية جنود له على الطاعة العمياء لذاته ، بل كان يريد تربية جنود مستنيرين بدعوتهم ، يعرفون أبعاد ورسالتهم وأصولها ومراميها ، فأخذ يدرّبهم على تطبيقها حتى يكونوا صورة حية تعبر عن هاتيك المبادئ التى جاء بها رسول الله ﷺ . شاملة كل جوانب الحياة ، وكل ما بين جوانح الانسان . فهذه السنوات الثلاث لم تكن للتخفى ، ولكنها للتفرغ أو مرحلة التدريب والإعداد ، بلغة العصر- للانطلاق بالرسالة علماً وعملاً على أوسع نطاق على المستوى العالمى .]

[وفى هذه المرحلة لم تتوقف الدعوة الفردية . وإنما الذى طرأ عليها فى المرحلة الثانية هو إضافة العمل بأسلوب الدعوة العامة أو ما يسمى بالدعوة الجماهيرية التى يقصد بها تهيئة الرأى العام لتقبل هذه التعاليم ، والكشف من خلالها عن الملكات الالامعة وعن ذوى الاستعداد للعمل المتتابع من أجل الدعوة ، كيما يبذل لهم مجهود خاص ، فيمروا بمرحلة الدعوة الفردية التى لا يتم- إلا من خلالها- بناء رجال الدعوات وأصحاب المبادئ .]

[بل أن الطاعة العمياء التى زعمها الكاتب مرض اجتماعى جاء النبي لحربه ، بل هو مجاءات رسالة الإسلام لعلاجه ، وفى السيرة النبوية ، وفى الحديث الشريف أمثلة تدل على هذا بوضوح ، ففي غزوة بدر حين أمر النبي أصحابه بالنزول فى مكان حدده لهم قال له أحد الجنود : « يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله . أم هو الحرب والمكيدة ؟ » قال له النبي ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة ، قال الرجل : « إذن ليس هذا بمنزل . وإنما يجب أن ننزل بدرأ فلغور المياه حتى نصب عندنا جميع مياه المنطقة . فان جاء العدو لم يجد ماء ، فشرب ولا يشربون ، ونرتوى وأعداؤنا من الظمأ يهلكون » . فأقره النبي ﷺ وأمر أصحابه أن ينتقلوا إلى حيث أشار الجندى . ولم يستبد برأيه ، ولم يكن من الجند- كما ترى-

طاعة عمياء] .

[وأخرج النبي بعضاً ، وقال قائده لمن معه : « اجمعوا خطباً » ، فجمعوا له الخطب . فأشعل فيه النار ، وطلب من جنده أن يتفحموا فيها قائلاً : « أليس الله أمر بطاعة الأمير؟ ، فلم يطيعوه الطاعة العمياء بل خالفوه واحتكموا الى النبي فقال لهم ﷺ : « لو دخلتموها ما خرجتم منها . إنما الطاعة في المعروف » ، أى أنها ليست طاعة إلا في حدود الدستور الإلهي .]

[فهذان مثالان يصرخان بأنه ليس في الإسلام طاعة عمياء ، ولا كان الرسول يدرّب اصحابه عليها ، وإنما علمهم الطاعة في المعروف .]

[الدعوة العامة]

عام ٦٢٠٧ منذ هبوط آدم - حسب تقدير أبي الفداء

- ٦٢٢ م - ٩ ق . هـ - ٤٤ من ميلاد محمد

أطاع على أمر الرسول فأعد وليمة وبلغ عدد المدعوين الأربعين ، وجميعهم من أقارب أبي طالب [عشيرة النبي الاقرين] وأكلوا حتى شبعوا . وعند انتهاء المأدبة ، أراد محمد أن يتحدث إليهم وبدأ يكلمهم عن دعوته الجديدة . إلا أن أبا لهب لم يرقه هذا الاستقبال وقاطعه وهو يقول بخبث : « لقد طال احتجارك لضيوفك ، فهلا كفت عن استغلال تسامحهم !؟ »

بهذه الكلمات تفرق الجمع ، ولكن هذه المصادمة لم تثبط همة محمد وقال لعلى : [أرأيت كيف سبقني هذا الرجل الى الكلام : فاصنع لنا في غد كما صنعت اليوم واجمعهم ثانياً]

فنفذ على أمر محمد ، وحضر آل عبد المطلب المأدبة وما أن فرغوا من طعامهم حتى وجه إليهم محمد العبارات الآتية : -

[ما أعلم انساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئكم به . قد جئكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى (١) فيكم ؟ (أضاف النص الفرنسى « ويكون

(١) كلمة خليفة « مشتقة من « خلف » وهو اللقب الذى اتخذته من خلف محمداً ، ولكن علياً ، بالرغم من =

وزيرى (١) ويكون قائد جيشى ، وهى زيادة مفتعلة لم يذكرها أبو الفداء (٢) . [دهش المدعون من هذا الحديث ، فالتزموا الصمت ، ولم يجرؤ أحد على أن يعلن عما فى طوية نفسه ، فاعتناظ على ونهض قائلاً : « يا رسول الله أنا هو سوف أشاركك أعباءك ، وسوف أنزع عيون أعدائك ، وسوف أحطم أسنانهم وأشق صدورهم » (٣) ... لم يفاجأ محمد بهذا الاندفاع . فقبل علياً وقال على مسمع من الحاضرين : « هذا هو أخى وقائد جيشى وخليفتى اسمعوا له وأطيعوه . »

انفجر الجميع بالضحك ، والتفتوا إلى أبى طالب قائلين : عليك من اليوم أن تتلقى الأمر من ابنك وأن تدين له بالطاعة .

[تعقيب]

[وهكذا يحرص الكاتب منذ البدء ، وفى خواتيم الكتاب على إبراز الرسول وصهره ودينهما فى صورة المحارب وفى صور وحشية ، ولهذا أضاف الكاتب من نسج خياله الكاذب قوله « وقائد جيشى »]

[والقصة لم يصح منها إلا دعوة عشيرته الأقربين . أما ما جاء بشأن على بن أبى طالب والوصية له ، فهو من خيال فسقة الشيعة حينما لعبت بهم الأهواء السياسية وقد رده أيضاً درمنجم فى كتابه (٤) . ومن البدهى أن النبى لو أراد أن يوصى بالإمارة على قوم فإنما يوصى بذلك عند ما يكون القوم داخلين فى طاعته وله عليهم حق الولاء ... أما والأمر هكذا ... حشد لكفار يناصبونه العداء ... فإن الوصية لا مكان لها .. فكيف يطلب النبى إلى

=اختياره ، لم يحمل لقب خليفة إلا بعد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولقد اثار هذا الظلم [١٩] . الشقاق بين الفرس والأتراك ، فالفرس ينظرون إلى الخلفاء الثلاثة الأول على أنهم مغتصبون ولا يمنحون لقب الخليفة إلا على ، بينما العثمانيون يتمسكون بالعكس ، ومن هذا الخلاف نشبت حروب مزقت الامبراطوريتين . [والكاتب يعنى بالفرس الشيعة ، ويعنى بالأتراك اهل السنة] .

(١) كلمة «وزير» معناها «مستشار» ولقد كان على أول من حمل هذا اللقب الذي يطلقه العثمانيون على الضابط الاول للتاج .

(٢) [أبو الفداء ١/١١٩]

(٣) أبو الفداء ١٩ - [١/١١٩] .

(٤) [حياة محمد لدرمنجم ص ٩٢ ط ٢] .

خصومه قبول زعامة غلام فى الطفولة الناضجة . ان الذين وضعوا قصة الوصية هذه .. بلهاء .. ولا يقبلها [إلا أخرق .]

[ثم قال سفارى :]

لم توهن هذه البداية غير السارة من عزيمة الرسول الجديد ، فقد كان رابط الجأش ، وطفق يتقدم بخطى ثابتة نحو تنفيذ ما نوى . واستمر فى استمالة أقاربه وأصدقائه للدين الجديد ، وشرع يرعد الوثنية ويصعقها ببلاغته الغلابة ، فارتعد الشعب إشفافاً على آلهته ، وخشى الأشراف على سلطانهم ، وكان الحقد ثمار جهد محمد ، فهجرته عائلته ، ولم يبق على الوفاء له إلا أتباعه وحدهم .

[هل حقاً لم يناصر النبى أقرباؤه ؟]

[ان الكاتب يفتري الكذب ، فقد كان من عشيرته عليه السلام من ناصره ووقف إلى جواره كعلى بن أبى طالب وجعفر وحمزة . بل وأبو طالب نفسه بالرغم من عدم إشهاره الإسلام .]

[وإنما جنح الكاتب إلى هذه الفرية لينفى ما قاله المنصفون من المستشرقين فى مزية إسلام بعض أقاربه . فقد قال الكاتب الإنجليزى المشهور هـ . ج . ويلز : « إن من أقوى الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به ، فقد كانوا مطلعين على أسرارهم ، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به (١) » .]

[وقال المستشرق « ادوار مونتييه » ، إن مما يملأ الباحث إعجاباً بخطة محمد الدينية أنه فى بدء نشاطه كان أول المؤمنين به هم من بين أسرته وأقاربه ، وأننى لأعتقد ان محمداً هو الوحيد بين مؤسسى الديانات الذى امتاز بأن يضم - أول ما يضم - أقرب الناس إليه برباط الدم ، ورباط القرابة القريبة (٢) » .]

[وقد قال « فولتير » ، « إن الرجل لا يكون عظيماً فى داخل بيته .]

(١) [المستشرقون والاسلام لتركياهاشم زكريا ص ٢٧ ط ١٩٦٥ - ١٣٨٥ .]

(٢) [المستشرقون والاسلام ص ٥٥٣ .]

ولابطلاً في أسرته ، يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه ، لاطلاعه على دخيلته في مباله . وهذا الحكم يشذ عنه أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويقول « باسورث سمث » : « ان ما قيل عن العظماء في مبالهم لا يصح - على الاقل - في محمد رسول الإسلام » ، واستشهد بقول (كبن) : « لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه . إنه قبل أن يتقدم إلى الناس جميعاً تقدم إلى الذين عرفوه انساناً المعرفة الكاملة . فطلب من زوجته وغلّامه وأقرب أصدقائه إليه ، وأحبّ خلّانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلأ ، فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته ، وأن حليلة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ، ودخيلة نفسه ، وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها ببهتانته ونقائصه ، أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التي عاشرته خمسة عشر عاماً ، واطلعت على دخائله في جميع أموره وأحاطت به علماً ومعرفة ، فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه في نبوته » [

[إن أعظم الناس لا يأمن لزوجه - وإن كانت له زوج واحدة - بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حلّيلها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله ، لكن رسول الله كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته ، وهن في حل من أن يخبرن الناس في وضح النهار بكل ما رأين منه في ظلمة الليل ، وإن يتحدثن في الساحات والمجامع بما يشاهدن منه في الحجرات ، فهل عرفت الدنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها الى هذا الحد ، ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه ابعد الناس عن السوء . (١) ..]

(١) [الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى كبير علماء القارة الهندية في هذا العصر - ترجمة محمد ناظم الندوى ص ٧٣ ط السلفية بالروضة بالقاهرة] .

[التوسط لوقف الدعوة]

ظل أبو طالب يساند في الخفاء مصالح ابن أخيه الحبيب إلى نفسه ، وجاءه زعماء قريش ومن بينهم « عتبة » و « أبو سفيان » و « أبو جهل » وغيرهم من صفوة كبراء القبيلة [هكذا أراد الكاتب بلفظ القبيلة تصغير شأنهم - فهم من زعماء مكة بل والعرب - وفي الغرض من شأنهم غرض من شأن مالقيه النبي من عسف واهتمامات .]

وخاطب هؤلاء أبا طالب بهذه الكلمات : « يا أبا طالب . إن ابن أخيك يسفه آلهتنا . ويتهم شيوخنا الحكماء بالجهل ، ويدعى أن آبائنا عاشوا في الضلال الميّن . أوقف زيغه وقاوم طموحه خشية أن يدب الخلاف ، ويضطرب السلام الذي نعيش فيه (١) » .

بدا التأثير على أبي طالب من هذه الشكوى ، ورد على المندوبين بعبارات لطيفة ، ووعدهم بوضع حد لعنف ابن أخيه .

[تعقيب]

[هذا ما قاله سفاري . ولكن هل نقل سفاري هذه العبارة عن أبي الفداء (أوقف زيغه وقاوم طموحه) ؟ ! إنها زيادة أقحمها الكاتب زوراً على أبي الفداء الذي ينسب إليه الكلام . أراد أن يوحى بها إلى القارئ أن كبار قريش وقع في روعهم أن دعوة محمد ﷺ صيحة طامع ذي مآرب شخصية ... والحق أنها لم ترد على ألسنتهم ، وما كان محمد ﷺ موضع اتهام بهذا بين العرب الذين يعرفونه ، وإنما النص كما رواه ابن هشام وأبو الفداء مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا : « يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آبائنا . فلماذا أن تكفه عنا وإما أن تخلص بيننا وبينه ... » (تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٩ وأبو الفداء

(١) أبو الفداء ص ١٠ - [١١٩/١] .

ج ١ ص ١١٩] .

[تشبث النبي بالدعوة]

كانت هذه المواقف بلا جدوى ، وشدد محمد حملته على الوثنية ، وأثبت بطلان عبادة الأوثان ، وضلال من يعبدونها ، وكانت خطبه تحمل لمحات من النور الساطع ، فتبدد الظلمات الكثيفة التي كان الشعب يرزح تحتها ، وانزعجت قريش من ذلك ، وخشيت أن ترى زوال الدين الذي كانت تحميه ، وبدا لها أن النفوذ الذي تتمتع به في ظل الأوثان بدأ يتزلزل ، فاجتمعوا للقضاء على الذي يقوض بنيانه ، وذهب رؤساؤها مرة ثانية لمقابلة أبي طالب وخاطبوه قائلين : « إذا لم تسكت ابن أخيك ، وإذا لم تكبح حماسه المتهورة [١٩] فإننا سنحمل السلاح للدفاع عن ديننا ، ولن تحول بيننا وبين عزمنا روابط الدم والقربى ، وسنرى في أى جانب يكون النصر » .

[دعوي التهور]

[ليس في النص العربي ما ذكره « سفاري » من اتهام قريش للنبي « بحماسة المتهورة » ، فهي زيادة من الكاتب للإيحاء بأن حركة الإسلام كانت دفعة شباب ، وحماسة ذي طموح ، ليذهب بالسامع عن الصورة الحقيقية للداعي الذي كان المثل الأعلى في الحكمة والروية والصبر والمصابرة . فقد كان ﷺ شيخاً وقوراً في العقد الخامس من عمره .

[واللفظ الذي قالوه كما في رواية ابن هشام « يا أبا طالب : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تكفه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا .. حتي تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتي يهلك أحد الفريقين] (١) .

خاف أبو طالب من هذه التهديدات ، وبادر بإبلاغها إلى محمد (٢) فتلقى منه هذا الرد

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٠ .]

(٢) أبو الفدا ص ٢١ - [١١٩/١] .

العزیز : « يا عم لو سلحت فريش الشمس والقمر ضدی ، ولو رأيت هذين الكوكبين أحدهما عن يميني والثاني عن يساري . فإني لن أتهاون فيما عزمت عليه » .

[هكذا في الأصل المترجم ، أما النص العربي فقد قال رسول الله ﷺ : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر ما تركته حتي يظهره الله ، أوأهلك فيه (١) » .]

ولما أيقن أبو طالب أن الوعد والوعيد ليس لهما أي سلطان على قلب يمثل هذا التصميم ، لم يستطع أن يمتنع عن أن يقول له : « وبماذا أجيب قريشاً ؟ أما من جهتي - ورغم أنني استهجن سلوكك [١٢] - فإني أشعر أنني لن أتخلي عنك أبداً مهما كان القرار الذي يتخذه أعداؤك » .

[تعقيب]

[وهكذا يروي سفاري على لسان أبي طالب (أنني استهجن سلوكك) وفي هذا افتراء علي التاريخ ، وعلي أبي طالب الذي أعلن عند موته أنه يؤمن بصدق محمد : وما يمنعه من إعلان هذا إلا خشية اتهامه بالجزع من الموت ، ولا أدري كيف يعرض زعيم نفسه وقومه للخطر دفاعاً عما يستهجنه ؟ والنص العربي كما يرويه كتاب السيرة : فقال أبو طالب : « إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك إلى شيء أبداً (٢) » .]

[التفكير في مقاطعة المسلمين]

ومع ذلك فقد اجتمعت القبيلة [قريش] وقررت مقاطعة جميع من اعتنقوا الإسلام إلا أن نفوذ أبي طالب وفر الحماية لحمد فترة من الزمان ، وحال بينه وبين أن يدخل في الحظر العام.

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٠ وأبو الفداء ١/ ١١٩

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧١ .

[إسلام حمزة وهل للنبي قصر ؟]

سأقت الصدفة إلى النبي سنداً قوياً ، إذ كان قد انسحب إلى صرح [١٤] على جبل الصفا .
[هكذا أراد الكاتب - في خبث - تصوير بيت محمد بسفح الجبل بأنه كالترسانة
المسلحة ، وكالحصن المنيع ، وكبيوت كبار القوم ، فوصفه بأنه « صرح » ،
أي قصر كبير ... والمعروف أنه كان بيتاً متواضعاً] [كما أن الكاتب
قال : انه ﷺ « انسحب » ، والنبي لم يعرف الإنسحاب من الدعوة يوماً من
الأيام] .

ولما قابل أبو جهل (١) محمداً أوسع سباً وإهانة ، فالتزم محمد الصمت . وعلم حمزة
(٢) أحد أبناء عبد المطلب - وهو معروف بشجاعته - ما أصاب ابن أخيه من شتم ، وكان
عائداً من الصيد يحمل قوسه على كتفيه ، فتفجر غضبه وأسرع لكي ينتقم لابن أخيه .
وذهب رأساً إلى حيث تجتمع قريش ، وما أن لمح أبا جهل حتى رفع قوسه وشج به رأسه
قائلاً هذا جزاء أهانتك ابن أخي . نهض بنو مخزوم من فورهم واستعدوا لدفع العدوان .
وإمعاناً في التحدى أعلن حمزة لإسلامه قائلاً : « أشهد أن محمداً رسول الله وأن ما جاء به
حق من عند الله (٣) » .

(١) اسمه عمرو بن هشام ، وكنيته أبو الحكم -- بمعنى أبو الحكمة [والنبط العربي أبو الحكم يفتح الحاء والكاف]
ولقد أدى حنقه علي محمد إلى تسمية النبي له « أبا جهل » ، يعني « أبا الجنون » ، ولا ينطق المسلمون اسمه أبداً
من غير أن يضيفوا إليه « لعنه الله » . أبو الفداء (أنساب قريش) . ويخلطه « ماراكي » « بجهن » عم محمد بينما
هما شخصان مختلفان [وليس في أعمام النبي من يسمى « جهناً » ولا « جهلاً » كما زعم سفاري ولكن فيهما
« جهل »] .

(٢) كان أبناء عبد المطلب : العباس وحمزة والحارث وجهل والمقوم ودرار وأبو لهب وأبو طالب واسمه عبد
مناف « والزيير وعبد الله (والد محمد) ، ولم يسلم منهم سوى العباس وحمزة (أبو الفداء - أنساب قريش -
[ص ١١٤] وبالرجوع إلى « نسب قريش » للهدلي (١٥٦ - ٢٣٦ هـ) وجدت الكاتب حروف اسم
« جهل » الي « جهل » ، كما حروف اسم « ضرار » إلي « درار » انظر ص ١٧ ، ١٨ طدار المعارف . وقد
عني بنشر الكتاب المستشرق أ. ليفي بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة بالسوربون ومدير معهد الدروس
الإسلامية بجامعة باريس]

(٣) [رواه الحافظ ابن عبد البر « الدرر في مختصر المغازي والسير » ص ٤٣]

[إسلام عمر]

لقد كان إسلام حمزة انتصاراً عظيماً لمحمد ، فقد جدد أمل أتباعه ، وخفض رأس قريش ، ولم تجسر على أن تظهر حقدتها علناً - بعض الوقت ، ثم تفاقم خطر هذا الحقد الدفين ، فخططت في الظلام للقضاء على نبي المؤمنين ، ولم يكن ينقصها سوى رجل ذى تصميم يستطيع أن يخنق هذا الدين الجديد في مهده بقتل رئيسه ، فتطوع عمر (١) الشرس لهذا ، وشجعت قريش تهوره فانطلق ممسكاً بالسيف الذى ينوى غرسه فى صدر محمد.

وبينما هو فى طريقه قابل « نعيماً » الذى سألته عن الغرض الذى من أجله توسع سلاحه على هذا النحو ، فلم يخف عليه عمر أمره ، وأفضى إليه بما عزم عليه ، فقال له نعيم [ابن عبد الله العدوي وشهرته الفحّام] : « لماذا تعرض نفسك للأخطار ؟ إنك إن ارتكبت هذا الجرم فإن بنى عبد مناف (٢) لن يصبروا على ترك قاتل قريشهم يمشى على الأرض ، فهلا ذهبت إلى أختك وزوجها سعيد فرأيتهما ؟ فلقد صبا. (٣) »

(١) لقد سمي عمر - الذي كان مجرد النطق باسمه يلقي الرعب فى النفوس - باسم الفاروق - أى القاسم - لأنه شق أحد المسلمين شقين لأنه رفض الاحتكام الى محمد (الطبرى) .

[وبالرجوع إلى تاريخ الطبرى وجدت أنه ذكر إسلام عمر فى المجلد ٢ ص ٣٣٥ ط دار المعارف دون أن يذكر ما نسبته إليه سفارى . وقد روى الخازن القصة فى تفسيره الم تسمى إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت] وهو رواية منقطة تروى نزول الآية فى منافق يقال له بشر . وقد قتله عمر باعتباره مرتداً يرفض حكماً من احكام الدين . وقد روى مرة أخرى بأن الآية نزلت فى المحتكم اليه . وهو أبو بردة وقيل برزة وقيل كعب بن الأشرف ، وهذا الاضطراب فى الرواية . يجعل الحديث ساقطاً . ولكن المستشرقين يجمعون السواقط . وقد أهمل الطبرى فى تفسيره ذكر القصة (الطبرى ٥/٩٠، ٩٢، ٩٣ : ٩٥) اليمنى بمصر والخازن ١/٦١ ط التقديم العلمية بمصر]

(٢) عبد مناف هو اسم أبى طالب .

(٣) [الدور فى اختصار المغازى والسير ، لابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد البر ص ٣٦٨ و ص ٦٢٣ وأبو الفداء / ١٢٠ .]

بهذا الخبر شعر عمر أن سخطه قد تضاعف ولكنه غير هدفه وتوجه إلى منزل أخته أمينة [والمعروف أن اسمها فاطمة وليس كما قال سفاري أمينة] (١) .

وكان هناك [في منزلها] من يقرأ من القرآن السورة التي عنوانها (طه) فسمع عمر قراءة بعض الآيات ، ثم دخل وعندما أبصره الجمع خبيء الكتاب ، وساد الصمت ، فسأل عمر أخته قائلاً : « أى كتاب كنتم تقرأون ؟ » فلم تجبه : ولما لم يتمالك غضبه لطمها على وجهها وأمرها بطاعته . فقالت له « إن إهانتك لن تجدى ، إننا لا نستطيع أن نلبى طلبك ، فالتمس لنا العذر ، إن رفضنا هو قانون لا نعيد عنه » .

لإزداد هدوء عمر ، وألح في طلبه ، ووعد بإعادة الصحيفة إذا سلمت إليه ، فلم تمنع « أمينة » [الصواب فاطمة] أكثر من ذلك ، وسلمته القرآن فأخذ يقرأ عدة آيات ، فحلت في نفسه الحمية للدين محل الغضب . وقال « يا لها من دعوة سامية ! كم أنا أوقرها . إننى اتحرق شوقاً لاعتناق الإسلام أين هو محمد ؟ قالوا : إنه في قصر الصفا (٢)] هكذا يحرص سفاري علي تسمية بيت النبي قصراً كما أن المشهور أنه كان في دار الأرقم لا بيته] كان محمد قد لجأ إلى هناك ليتلافى اذى قريش وكان يحيط به أربعون مسلماً - رجالاً ونساء - يتلقون عنه مبادئ الدين الجديد . ومن بينهم حمزة وأبو بكر وعلي ، وذهب بعمر إلى هناك . وطرق الباب ففتح له ، ولما أبصر الحاضرون عمر متوشحاً سلاحه ، ألقى الرعب في نفوسهم ، ولكن محمداً الذى لا يعرف الخوف - نهض وأسرع اليه وأخذ بتلايبه وجذبه إلى الداخل وقال له : [ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتي ينزل الله بك قارعة] . والذي قاله سفاري يدل علي

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص ١٠٠ و ١٠١ ط دار سعد بمصر .]

(٢) أبو الفداء ص ٢٥ - [جد ١ ص ١٢٠] .

[أراد الكاتب أن يوهن أن الصفا مكان بعيد يمكن الاخفاء فيه بعيداً عن الرقباء . والواقع أن الصفا قرب المسجد الحرام وفي وسط مكة . فكيف التخفى والاحماء بالصفا وهو وسط الأعداء ؟]

جهله بالاساليب العربية : [ياابن الخطاب هل عزمت على الوقوف تحت هذا الباب إلى أن يسقط السقف فوق رأسك] .

فرد عمر : إننى جئت مؤمناً بالله ورسوله . ودخل عمر فى الإسلام وأصبح من أقوى أنصاره المدافعين عنه ، ولم تلن شراسته بل احتفظ بطبعه ، فقد كان لا يقبل التفاهم ، وكان يتحدى جموع قريش ويدخل وسط الكعبة ذاتها ..

كان انشقاق عمر - وهو من اشرف نبلاء قريش - نذيراً بقرب انهيار دينها ، فاتخذت إجراءات عنيفة للحيلولة دون هذا الانهيار ، وأصبح الاضطهاد والأذى عاماً . ولكن محمداً - الذى كان ضعيفاً ، ولم يكن فى مقدوره الدفاع عن دينه - خضع للظروف وسمح للذين ليست لهم أسرة تمحيهم أن يهاجروا إلى مملكة الحبشة (١) .

[الهجرة الى الحبشة]

[الهجرة الأولى]

[رجب عام ٥ من البعثة كما في تاريخ الطبري ٢/٣٢٩] وعام ٦٢٠٨ من هبوط آدم . حسب تقدير أبى الفداء عام ٦٢٣ م - ٨ ق هـ - ٤٥ من ميلاد محمد .

لقد أملت السياسة على محمد هذا رأى إلا وهو أن يهوى ملجأ لوقت المحنة . وانحاز إلى هذا رأى اثناء عشر رجلاً وأربع نساء [وقال الطبري أحد عشر . وقيل عشرة

(١) الحبشة : اسمها مشتق من « حبش » وهو نفسه « كوش » بن كنعان بن حام بن نوح . (عبد الباقي فى كتابه عن سمو الاحباش) ويكتبها بالاغريق (...) واللاتين ABASSENI ومعناها بالعربية « جمع من الأمم » دخلت هذه الشعوب الى الحبشة عن طريق مصر ، وأسسوا أمبراطورية ، وقاموا بعدة غزوات فى اليمن ، ولقد أسسوا هناك - قبل ميلاد محمد بستين عاماً - مملكة كانت عاصمتها « سبأ » . وشن أبرهة أمير اليمن حرب الفيل ضد أهل مكة . ولقد هلك جيشه كله ، وكان ذلك عام ميلاد محمد (عبد الباقي) .

ج ٢ ص ٣٣١ .

وأبرز هؤلاء الصابئين هم عثمان وزوجته رقية بنت محمد ، الزبير بن العوام ، وعثمان بن [مطعون ^(١)] وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف ^(٢) ، فأبحرت هذه الفرقة عن طريق البحر الأحمر ، ووصلت إلى مملكة النجاشي ^(٣) الذي استقبلهم استقبلاً كريماً .

[الهجرة الثانية]

وتبعهم بعد ذلك ، جعفر بن أبي طالب وغيره حتى بلغ عددهم (٨٣) رجلاً و (١٣) امرأة ^(٤) من مكة .

[صحيفة المقاطعة]

ولكى توقف قريش هذه الهجرة ، ولكى تحرم أتباع محمد من هذا المأوى . أرسلت بعثة إلى ملك الحبشة ، فكلفت عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ليقدا إلى الهدايا ، وليطالباه بتسليم المهاجرين . فأئجزا مهمتهما ،

(١) [حرفه سفاري إلى متون Matoun وقد نشأ خطأ عن تصحيف الكلمة في أبي الفداء إلى مطعون (ج ١ ص ١٢٠) والتصويب (مطعون) من كتب السيرة انظر الدرر لابن عبد البر ص ٥١] .

(٢) هذه الهجرة الأولى - والهروب - غير معروفة عندنا ، ولكنها مشهورة بين المسلمين ويحدد تاريخها كل من Elcona و جناب بأنها في العام الخامس من بعثة محمد [وكذا في الطبري ٣٢٩/٢ وابن سعد في الطبقات ج ١ ص ٢٠٤] .

(٣) النجاشي كلمة حبشية معناها « الملك » ، وهي كلمة مشتركة تقال لجميع حكام الحبشة مثل كلمة « فرعون » لحكام مصر . (عبد الباقي - تاريخ الحبشة ص ١ من الفصل الثاني) . وهذا الاسم حوره المؤرخون الفرنسيون وجعلوه Negus

(٤) أبو الفداء ص ٢٥ - [١٢١/١ (وقيل ١٩) امرأة كما في فقه السيرة ص ١١٩ والذي في أبي الفداء . وثماني عشرة نسوة ، وفي تاريخ الطبري ٢/٢٣٠ قيل ٨٢ رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم] .

ولكن الملك حايى المسلمين بعد أن استمع بإعجاب إلى ما قصه عليه جعفر عن
نبي الجزيرة ، ورد البعثة بهداياها .

ولم يخفف هذا الانخفاق من حقد قريش ، ولما لم تتمكن من القضاء على
«محمد» فى الخفاء - وهو الذى يحوطه جمع من المتحمسين الذين يسهرون على
حياته .. فقد اعلنت مقاطعة جميع بنى هاشم (١) . وصدر الاعلان باسم جميع
القبائل (٢) . فحرم الزواج منهم ، كما حرم التعامل بينهم وبين سائر العرب ،
وأصبحت المقاطعة عامة ومستمرة إلى أن يحين الوقت الذى يقبلون فيه ان يسلموا
المبتدع الخطير [١٤] . إلى غل الامة وكتب القرار فى صحيفة من الرق ،
علقت داخل الكعبة .

[بنو هاشم فى شعب أبى طالب]

عندئذ لم يجد بنو هاشم - سواء الوثنيون منهم أو المؤمنون - الأمن بين مواطنيهم ،
فلجأوا إلى قصر [١١] أبى طالب [يعنى بالقصر «الشعب» الذى يسكنه] حيث
وجدوا المأوى ، أما أبو لهب (٣) بن عبد المطلب فهو وحده الذى انضم إلى صف
قريش ، ودامت عزلة بنى هاشم ثلاث سنوات كانت فيها الطرق المؤدية إلى
الشعب [فى الأصل الفرنسي . القصر] تحت حراسة الأعداء ، مما اضطر
المعزولين إلى أن يذهبوا لشراء مؤونتهم وهم يحملون السلاح ، وكانت الأشهر الحرم -
التي تحرم فيها الحرب - هى وحدها الوقت الذى كانوا يتمتعون فيه بحريتهم .

(١) كان بنو هاشم من أبرز العائلات فى قريش . وكانوا يملكون سدانة الكعبة ، وكان «محمد» من هذه
العائلة .

(٢) أبى الفداء - حياة محمد ص ٢٦ - [١٢١] ويحدد «جناب» تاريخ هذا الحدث بأنه بعد ذلك
بعامين .

(٣) أبو لهب : عم «محمد» كان دائماً عدوه الألد ، وكانت أم جميل - زوجته ، وهى بنت أبى سفيان تشاركه
حنقه على «محمد» وكانت (تضع) [فى النص تزرع] الشوك فى الأماكن التي كان يمر بها وسورة «المسد»
تقضى عليهما بالخلود فى النار ، ولقد أعطى له هذا الاسم إيداناً بالمصير الذى ينتظره . أما اسمه الحقيقى فهو
عبد العزى (أبو الفداء) [ص ١٢١] .

[هذا استنباط سفاري] ، وكانت المقاطعة لازالت مستمرة عند ما ترددت الشائعات في الحبشة بأن أهل مكة قد أسلموا . مما دفع بثلاثة وثلاثين من المهاجرين إلى الإبحار صوب الجزيرة العربية . وما أن وصلوا إلى الساحل حتى تبين لهم كذب هذا الخبير فعادوا من فورهم إلى المهجر عدا عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن مظعون [في النص بن متون] . فهم وحدهم الذين تجرأوا ودخلوا مكة . [بل دخل كل المسلمين الآخرين دون جوار أحد ، وتواروا ، فلاحقهم الأذني حتي اضطروا إلي الهجرة الثانية للحبشة ومعهم آخرون ، وقد جاء في سيرة ابن هشام أنه قد دخل عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي مكة بجوار الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الاسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بجوار من أبي طالب ابن عبد المطلب وأم أبي سلمة برة بنت عبد المطلب . أنظر تهذيب سيرة ابن هشام ص ١١٣ وفقه السيرة ص ١١٨ : ١١٩] .

[نقض الصحيفة]

كانت العداوة مستمرة بين الفريقين ، ووقعت اشتباكات عديدة بينهما في كثير ما الأحيان وكانت النتائج مختلفة . ولكن حدثا غير مرتقب جاء فأوقف الشقاق المدني . إذ أن الأرضة (١) قد أكلت الصحيفة التي صاغتها أحقاد قريش ، وعلم « محمد » بذلك . وسواء أكان قد اشترك في هذا الحادث أو كان ما حدث أمر يرجع أثره إلى الطبيعة . فإنه عرف كيف يحقق منه أكبر الفائدة ، فقال لأبي طالب : [يا عم ان ربي سلط الأرضة علي صحيفة قريش (٢) فلم تدع فيها غير أسماء الله (٣) ونفت منها الظلم والقطيعة ،] .

(١) [في النص الفرنسي . الدودة والصواب : الأرضة] (٢) أبو الفدا ص ٢٧ [١/١٢١٢] .

(٣) كانت هذه الوثيقة تبدأ بعبارة « باسمك اللهم » ولم يبق غيرها ، أما الباقي فقد فني كله . (أبو سعيد عبد الرحمن في كتاب الأنوار ، ولقد أورد Maracci رواية أخرى عن أحمد عبد الرحيم مضمونها أن الأرضة (الدودة في النص) أكلت كل الأماكن التي كتب فيها اسم الله وترك الباقي سليماً . ولكن هذه الرواية التي رفضها في الجامع الصحيح الامام البخاري ليست لها اية حجية عند المسلمين ، أما Maracci فقد ارتضاها واستخدمها .

[أبو طالب يعلن إتلاف الله للصحيفة]

وذهب أبو طالب إلى قريش وحمل إليها نبأ ما حدث وقال : « إذا كانت الواقعة صحيحة فاحمدوا نار أحقادكم دوننا ، وارفعوا عنا قرار مطاردتكم لنا ، أما إذا كان الأمر مجرد غش فإنني ارتضى تسليمكم ابن أخى . »

قبلت قريش هذا الشرط ، وانطلق الجمع إلى الكعبة فوجدوا كل شيء مطابقاً تماماً للحديث أبى طالب . فألغى قرار قريش ، وعاد المسلمون إلى مجتمعهم ، وتمتعوا بحقوقهم من جديد كما كانوا فى الماضى .

[المعروف فى كتب السيرة أن قرار فض الحصار والعزل تم نتيجة ثورة بعض الأحرار من قريش على الصحيفة حيث كان مجتمع قريش حاضراً عند الكعبة حتى قال أبو جهل : « ان هذا لأمر بهيب بليل ، . وقد روت كتب السيرة حديث أبى طالب ولم تذكر أنه كان السبب الوحيد لالغاء قرار العزل] .

[عام الحزن]

كان سنة ٦٢١٣ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - ٦٢٨ م - ٣ ق هـ - ٥٠ من ميلاد الرسول محمد - ١٠ ق البعثة .

لقد كان إلغاء قرار قريش [المعلق بالصحيفة] ، قد أوقف الأعمال العدوانية بين الفريقين [الحق أن العدوان كان من جانب واحد هو قريش] ولكن تمزيق الصحيفة لم يطفىء الضغينة المشبوبة فى النفوس ، وإذا كان محمد قد ذاق شيئاً من الراحة فالفضل فى هذا يرجع إلى نفوذ أبى طالب .. وما هى إلا فترة قليلة خطف الموت بعدها هذا المعين .

وبينما كان أبو طالب فى سكرات الموت أراد محمد أن يقتنص [١٩] لحظة ضعفه ؟ لكى يدفعه إلى النطق بما يفيد إيمانه بعقيدة المسلمين وهى « لا إله إلا الله محمد رسول الله (١) » ولكن الشيخ كان يتمتع بقدر كاف من القوة المعنوية لكى يعطيه الإجابة التالية: « يا ابن أخى . كنت أود أن أحقق رغباتك لولا أننى أخشى العار ، ولست أريد أن تعتقد قريش أن الخوف من

(١) أبو الفداء ص ٢٨ - [١٢٢/١] وجناب [ولماذا لا يقال أراد النبى إلقاء عمه من النار فى آخر لحظة ، وقد روى أبو الفداء قولاً أنه اسلم عن ابن عباس وإن كان قولاً غير مشهور] .

الموت هو الذى جعلنى أسلم». وهكذا انتهى دور أبى طالب الذى مات عن أربع وثمانين سنة، وكان محمد لا يزال يبكى موته عندما خطف الموت زوجته خديجة التى كان يربطه بها الحب وعرفان الجميل فبكاهما هى أيضاً .

كانت هاتان الخسارتان إيذاناً بوقوع النكبات ، فاستيقظت العداوة والبغضاء . ونشطت قريش فى إيذائه بعد أن أصبحت لا تحسب حساباً لأحد ، وأحاط به المضطهدون له مثل أبى لهب والحكم وعقبة الذين كانوا أصدقاءه فى الماضى ، وصاروا لا يتركون أية فرصة تسنح إلا ويتعرضون له فيها بالأذى . وكانوا يسبونوه وهو فى داره ، ويسبونوه وهو فى صلاته ، وناصبوه العداة فى كل مكان . فاشتكى « محمد » فى القرآن من ذلك بهذه الكلمات ﴿أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ؟. أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟. أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ؟﴾ (١).

[الكاتب هنا وفي كثير من المواطن يصور النبي بأنه الذى ينزل القرآن ويصنعه ويؤلفه وقد رددنا عليه] .

[الذهاب الى الطائف]

ولما أصبح محمد هدفاً لكل هذا الأذى غادر وطنه وتوجه إلى الطائف (٢) . هذه المدينة الجبلية التى تقع على بعد عشرين فرسخاً شرقى مكة والتى كانت تتمتع بمزايا عديدة ، لقد كانت مدينة حصينة ، وتقطنها قبيلة قوية شغوفة بالحروب ، وكانت أراضيها خصيبة .

كل هذه الاسباب شجعت على أن يبحث له فيها عن مأوى ، وأملأ فى أن يتقبل اهل الطائف دعوته الجديدة بالترحاب .. توجه إلى مجمعهم الذى كان يتكون من أشرف رجالها ومن بينهم مسعود [وعبد ياليل] وحبيب بن عمرو [بن عمير] ، ووجه إليهم حديثه ، فبين لهم ضلال عبادة الأوثان ، وعرض عليهم صورة رائعة لقوة الله الواحد الذى يعبد ، ورسم لهم روائع خلقه ثم قال: «إنى رسول الله ، ولقد أمرنى أن أدعوكم إلى الاسلام ، فبرز له أحد الحاضرين وقال [إني أمرط (أمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله احداً يرسله غيرك ؟! وقال الثالث : والله لا أكلمك ابداً .. لئن كنت

(١) سورة العلق - الآية ٩ وما بعدها .

(٢) انظر جغرافيا الإدريسي .

رسولاً من الله كما تقول : لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام : ولئن كنت تكذب علي الله ما ينبغي لي أن أكلّمك . (١)

التزم محمد الصمت وخرج من الاجتماع ، وقد كان من أهل الطائف من استقبله استقبلاً أكرم من ذلك . أما عامة الشعب الذي سب آلهم فقد ثاروا عليه وطرده من المدينة . فغادر الطائف صائحاً [اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علي الناس . يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين . وأنت ربي ، إلي من تكلني ؟ إلي بعيد يتجهمني (يلقاني بغلظة ووجه كربه) أم الي عدو ملكته أمري [! ؟] إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك . لك العتيبي حتي ترضني ولا حول ولا قوة إلا بك] . وعاد إلى مكة فبلغها في الثالث والعشرين من ذي القعدة . (٢) .

[دعوة القبائل في موسم الحج]

لم تفت هذه النكبات في عضد محمد ، فلقد كان فوق كل المصائب . وكانت احتفالات الحج (٣) قد بدأت ، وهي التي كانت تجلب إلى مكة جموعاً غفيرة من الناس ، وكان محمد يستفيد من هذا الوقت للدعوة ضد الوثنية . وكان يرفع صوته ضد الآلهة الزيفة في الطرقات ، وفي الميادين العامة ، وفي كل مكان ويقول لوفود الحج [يا بني فلان : إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني (٤)] .

كانت الجرأة التي يحارب بها الأصنام بين عبادها تعرض حياته للخطر ، ولكن

(١) أبو الفداء - حياة محمد ص ٢٩ - [١٢٣/١] وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣٠

(٢) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣١ ط دار سعد مصر] وجناب .

(٣) كان الحج سائداً قبل محمد بوقت طويل ، وكان العرب يحتفلون بذكرى إبراهيم وإسماعيل ، ولم يكن ذلك إلا عرفاً سائداً . أما المشرع [محمد] فقد جعله حكماً من الأحكام [الحق أن العرب كانت تعد هذا ديناً وان الله هو الذي شرعه] .

(٤) أبو الفداء - ص ٣٠ - [١٢٣/١] .

الموت لا يخيف ذوى الطموح . ولقد كان أسلوبه فى دعوة القبائل الغربية أكثر رفقاً من أسلوب دعوته لأهل مكة ، وذات يوم كان على تل يسمى « العقبة » قابل ستة من سكان يثرب كانوا يتجاذبون أطراف الحديث (١) .

[بدء إسلام الانصار]

عام ٦٢١٤ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٢٩ م - ٢ ق . ه ٥١ م محمد - ١١ من البعثة .

كان ستة من يثرب يتجاذبون أطراف الحديث عند العقبة فدنا [ﷺ] منهم واشترك معهم فى الحديث فأكبروا الذوق الذى ظهر به فى أعينهم فغبطوه عليه ، ولسوا فيه حديث المهذب وكياسة القرشى (٢) ، فاستمعوا له باهتمام . ولما أدرك محمد وقع حديثه فى نفوسهم أراد أن يستكمل إقتناعهم فقرأ عليهم بعض آيات القرآن حيث رسم صوراً جذابة لقوة الله ، وحيث يدعو الناس جميعاً إلى عبادة اله الكون الواحد .

أخذ الإعجاب يعقول الغرباء ، فاستسلموا لسلطان الإسلام وآمنوا برسالة محمد (٣) وثبتت الحماسة [١٤] التى بعثها فيهم ولم تمح أبداً . ولما عادوا إلى المدينة أصبحوا رسلاً للدين الجديد، وشرعوا يدعون إليه بنى قبيلتهم ، وكانت المدينة منقسمة بين الأوس والخزرج ، وكان المسلمون الجدد يتمون إلى الخزرج (٤) ، وكانت القبيلتان على اتصال وثيق بقبيلتى بنى قريظة

(١) العقبة . اسم تل قريب من مكة كان لبنى ظفر فيه دار كان يعزل فيها محمد كثيراً عن الناس . (أبو الفداء) [١٢٤/١ والطبرى ٣٥٢/٢] . هكذا قال سفاوى وقد اختلط عليه الامر لجهله باللغة فبنو ظفر ورد ذكر حائطهم فى بيعة العقبة الأولى كما سيأتى وهو بالمدينة وليس حائطاً لهم بمكة كما فى أبى الفداء الذى يرجع إليه الكلام فى [١٢٤/١] .

(٢) كانت قبيلة قريش هي أرقى وأقوى قبيلة فى الجزيرة ، وكانت لغتها أصفى لغات العرب وأجزلها . (٣) أبو الفداء ص ٣٠ - [٢٣/١] .

(٤) لما عبر موسى صحراء الجزيرة العربية وهو على رأس بنى إسرائيل أرسل جيشاً يحارب الذين كانوا يسكنون يثرب وخيبر وبعض الأماكن القريبة من الحجاز ، وأمرهم بقتل جميع أعدائهم ، ونفذ الأمر عندما سمحت الفرصة .. ولما انتصر اليهود أفنوا هذه الشعوب وجاءوا يحتلون المدن التى خلت من أهلها ، ومكثوا هنالك إلى أن تهدمت سدود «إرم» وأغرق اليمن [ربما يقصد سد مأرب] .. وعندئذ هرب الأوس والخزرج من الطوفان ولجأوا إلى الحجاز ، وطردهم اليهود من يثرب ، وتركوا لهم خيبر وبعض الحصون الأخرى ، أبو الوفاء [١٢٤/١٦] التواريخ العالمى ج ١ .

وبنى النضير اليهوديتين اللتين كانتا تقطنان الحصون الواقعة على مشارف المدينة ، وكانوا قد استمعوا كثيراً إلى اليهود يتحدثون عن نبي سيفرض سلطانه على جميع أمم الأرض ، ولعلمهم بمقدار شوق اليهود إلى مجيء هذا النبي ولاعتقادهم أنهم وجدوا هذا النبي في شخص «محمد» بادروا إلى اعتناق دينه لكي يحظوا بالفضل العظيم . وهكذا يرجع نجاح « محمد » إلى كل من حنكته السياسية وبلاغته [11] .

[هل يرجع انتصار الاسلام إلى بلاغة النبي وسياسته فحسب ؟]

[هكذا يحاول المستشرقون ارجاع أمر انتشار الإسلام الى شخصية الرسول ﷺ لا إلى جوهر دعوته . وخشية افتضاح الكاتب أهمل ذكر هؤلاء الذين قابلوا النبي ورد إلى لقائهم انتصار الإسلام . أنهم كانوا ستة رجال فقط من بني النجار منهم : أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهان وقد كانا يتكلمان بالتوحيد في المدينة من قبل . وهما على وعي كبير بالحقائق الدينية فإذا هما أسلما وصدقاً بمحمد أ يكون هذا الحنكة محمد السياسية ولبلاغته ؟ ، أم المعقول أنه تصديق بعد اقتناع ودراسة ومطابقة ما عند النبي لما يدعوان إليه ؟ .. وهذا لا ينفي اتصاف النبي بالبلاغة والحنكة فهذا أمر من صفاته ثابت ولكن تصديق هؤلاء الخزرجيين به إنما مرده إلى الاقتناع الواعي وحده .]

[وهذا الذي يفتره الكاتب يردده المستشرقون في صور شتى لتأكيد ، فيكتبون مثلاً - عن عمر بن الخطاب ويبرزونه في صورة ضخمة تكاد تحجب حقيقة الصورة المحمدية عند من لا يعرفون الإسلام ، ليربطوا عظمة الإسلام بعظيم من أبنائه وليس بالإسلام ذاته ، وكان من شأن صنيعهم هذا أن يعطوا للمسلمين الذين يستلهمون الثقافة الغربية ، ويصدرون عن مواردها .. الكثير عن « عمر ، بينما لا يجدون إلا القليل المنصف عن محمد ، فإذا كتبوا ظهر هذا القحط في المعلومات عن النبي في كتاباتهم كما ظهر أثر عمر ورجالات الإسلام في الدين الإسلامي كبناء له ومنشئين ، لا كدعاة تابعين .. وإنك لتلمس هذا في كتابة العقاد عن « عبقرية عمر ، من حيث المادة العلمية .. بل والصفحات التي كتبت عن كل شخصية . فتكاد تكون صفحات (عبقرية عمر) ضعف صفحات (عبقرية محمد) .]

[وهكذا عندما كتب المستشرقون والذين انطبعوا بالثقافة الغربية عن الصديق أبي بكر جعلوه المنقذ والمؤسس للدولة الإسلامية ، ومنهم من يجعل عمر هو المؤسس لها ، وكأن عمل محمد ﷺ لم يكن إلا ظلالة باهتة في الكيان الإسلامي ووجود الأمة الإسلامية .]

[وأجراً وقاحة أن كاتبنا المستشرق سفاري - حين يكتب هذا في مقدمة الترجمة القرآنية - يعلم أن القرآن نفسه تضمن الرد علي هذه الفرية التي لم تزد علي أن تكون صدي لمفتريات الجاهلية الأولى ، فإن خصوم النبي من قريش قالوا : إن الإسلام سنها بموت محمد ، إذ أنه ابتر ، فليس له عقب من ذريته يحملون رسالته من بعده ، ونزلت سورة الكوثر تعلن أن الأبرار المنقطع ليس رسالة الاسلام ولكنه سلطان قريش ووثنيتهما وسدنتها «إن شانئك هو الأبتر» .]

[وفي « عمير بن سعد ، جلينا هذه الحقيقة ، وبينما أن الإسلام يحمل في ذاتيته عناصر سيادته وخلوده .. » .]

[وأكبر دليل على فساد دعوي الكاتب هو أن الإسلام كان ولا يزال يجتذب إليه الكثيرين ممن لا يعرفون البلاغة العربية ، بل ولا يعرفون العربية إطلاقاً ، وإنما جذبهم سمو تعاليمه . بل إن عدد المسلمين الذين لا يعرفون العربية أكثر من عدد من يعرفونها ..]

[كما شاهدنا أن الأمم التي ارتبطت بزعماء من العباقرة كانت تصاب بالنكسات في سن الشيخوخة لهؤلاء الزعماء ، أو عقب وفاتهم أو اعتزالهم العمل السياسي ، بينما الإسلام يزداد قوة حتي في العصور التي مال فيها الميزان العسكري والسياسي والاقتصادي لغير صالح المسلمين . فان تعاليمه كانت من القوة والصلابة بحيث غزت جموع القوي المنتصرة الغازية لأراضي المسلمين وحولتهم إلي عبيد يجاهدون للإسلام بعد ان كانوا يجالدونهم ، وتاريخ « التتار ، وتكوينهم امبراطورية إسلامية .. صفة لكل من يقتنسي أن الاسلام ينتصر بذاته على عوامل الفناء ، كما ينتصر به أهله على كواسر القوي الباغية لو أنهم استمسكوا به في جد وإعزاز وإصرار .]

[الإسراء والمعراج]

عام ٦٢١٥ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - عام ٦٣٠ م - ١ ق هـ - ٥٢ م

محمد ..

يحدد التاريخ حادثة الاسراء الشهيرة بعام قبل الهجرة ، ويرى أقوى المؤرخين الذين تبلغ سلطتهم قوة القانون أن الإسراء رؤيا . وقد نسجها « محمد » من خياله لكي يعطى وزناً لطريقة الصلاة الجديدة التي فرضها [١٩] وسوف نورد الوصف الموجز لهذه الرحلة طبقاً لرواية البخارى وأبى هريرة (١) : يقول محمد « كنت نائماً [١٩] بين تل الصفا وتل المروة (٢) حين جاءنى جبريل واقترب منى وأيقظنى وكان يصحب معه « البراق » (٣) . وهوفرس لونه رمادى فضى ، سريع السير إلى درجة أن العين تعجز عن متابعة طيرانه . سلمه إلى جبريل ، وأمرنى أن أركبه فأطعته وانطلقنا ، وفى لحظة كنا على مشارف أورشليم ، فتوقف البراق ونزلت وربطته فى الحلقات التى اعتاد الأنبياء أن يربطوا فيها دوابهم . ولما دخلت المعبد قابلت إبراهيم وموسى وعيسى . فصليت معهم ، ولما قضيت الصلاة ركبت البراق ثانية وواصلنا طريقنا ، وقطعنا - فى سرعة البرق - الفضاء الجوى الشاسع . ولما وصلنا إلى السماء الأولى طرق جبريل الباب فقبل : من الطارق ؟ قال جبريل . قيل : من صاحبك . ؟ قال محمد قيل : أوقد بعث ؟ قال نعم . قيل مرحباً به . عندئذ فتح الباب . ودخلنا فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم . اذهب واقرئه السلام . فأقرأته السلام ، فرد على ، وقال : فلتحقق السماء آمالك يا بنى الكريم يا أكبر الأنبياء . وانطلقنا وكنت اتبع دليلى فى الفضاء الفسيح حتى وصلنا إلى السماء الثانية . فطرق جبريل الباب فقبل : من هنا ؟ قال : جبريل ؟ قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل أوقد بعث ؟ قال : نعم قيل : مرحباً به . وفتح الباب . ودخلنا وقابلت عيسى ويحيى فأقرأتهما السلام فردا على وقالوا : حالفك التوفيق يا أخانا الكريم ، يا أعظم الأنبياء .

(١) أبو الفداء [١٢٢/١] الفصل التاسع .

(٢) أحمد بن يوسف التاريخ الفصل الاربعون .

(٣) معناه المتألق .

[الرد على منكرى الاسراء بالجسد]

[هكذا يحاول المستشرقون والنصاري تصوير حادث الإسراء بأنه رؤيا كرؤيا يوحنا، ودسّوا في هذا نصوصاً خدع بها بعض المسلمين القدامى ، وقد تناولت الرد علي هذا في دراسة لي عن الاسراء والمعراج ، وأحب أن أضيف إلى هذا ان « سفاري ، كذاب أو محرف أو جاهل بمذلول اللغة .]

[فما رواه البخاري إنما هو عن جابر بن عبد الله وعن مالك بن صعصعة ، وكل من النصوص تدل على أن الأمر لم يكن رؤيا . فرواية جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لما كذبتني قريش قممت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته (علامات البيت) وأنا أنظر إليه ، . ورواية البزار عن ابن عباس للحديث « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرياً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه . ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به (١) ، ولا يمكن أن يكون التكذيب لرؤيا رآها في منامه فرويا المصرى نفسه بأمريكا مناماً لا يستغرب .]

[وحديث البخاري الذي انفرد بذكر المعراج رواه عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ... (الحديث) (٢) وهو صريح في أن الأمر ليس حلماً]

[وحديث البخاري عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة اسري به قال : « بينما أنا في الحطيم - وربما قال : في الحجر مضطجعا إذ أتاني آت .. إلي أن قال « ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض . قال الراوي : وهو البراق ، يضع خطوه عند أقصي طرفه ، فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتي أتني السماء الدنيا فاستفتح . فقيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم قيل مرحباً به . فنعم المجرىء جاء . ففتح . (الحديث) ...]

(١)[الطبقات ١/١٤٤]

(٢)[البخارى ج ١ ص ٩٧ في أول كتاب الصلاة ط الشعب .]

[والتعبير بقوله « بينما أنا في الحطيم مضطجعا إذ أتاني آت ، لا يفيدنا النص على أن الإتيان كان مناماً . والدليل علي عدم احتمال أن يكون المراد بالإتيان له بالدابة هو الإتيان بها مناماً هو الضجيج الذي أقامته قريش حول الحادث . ووقوفها ضده طالبة الدليل على قوله ، وحديث جابر ، أن الله جلا له البيت ليصفه لقومه يؤكد أن المراد بحديث مالك هو إتيان جبريل له ليوقطه من أجل الإسراء]

[وحديث أبي هريرة الذي ادعي سفاري أنه يحكي الإسراء « رؤيا ، لا وجود له . وانما نص المروي عن أبي هريرة (١) ، لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس ... (الحديث كما روينا من قبل)]

[ولا شك أن قوله سبحانه « اسري بعبد » تعني ان الإسراء بالجسد والروح معاً . لأن العبد لا يسمى عبداً وهو روح مجرد ، وإنما يكون عبداً بروحه وجسده معاً . كقوله سبحانه « لما قام عبد الله » وكما في قوله « ينهي عبداً إذا صلي » .]

[كما أن افتتاح السورة « سبحان الذي أسري بعبد » بأسلوب التعجب « سبحان » يدل على أن الاسراء الذي تناوله الحديث يدخل فيما يثير العجب . وليس في الحلم عجب]

[ثم إن سفاري يعرف العبارة « أرسل إليه ، وقد شرحها شراح البخاري فقالوا « أرسل إليه ، للعروج به . بدليل أن كل الأنبياء في كل السماوات كانوا يسلمون على النبي بالأخوة والنبوة ، كما سلم آدم عليه بالنبوة والنبوة ، إذ كانت السماء تعلم بنبوته من قبل ، فالأمر له بالرسالة صادر عنها] .

[كما أن رواية البخاري لم تصف البراق بأنه رمادي فضي كما صورته خيال سفاري . وإنما قالت إنه أبيض . وهذه كلها صور تدل على ما ذكرناه من جهل أو كذب أو تحريف المستشرق سفاري . أما المستشرق كزيمرسكي فقال : أنكر معاوية وعائشة حدوث الاسراء بالجسد . فوقف ضدهما الجمهور والشيعة ، وقالوا : الإسراء

(١) [التجريد المصريح لأحاديث الصحيح للزيدي ج ٣ ص ٩٩ و ١٠٤]

بالجسد (١) ومعني هذا أنه إجماع ومخالفته شذوذ .

[صفة المعراج]

وطاف محمد وهو طائر على البراق [هذا رأي سفاري وحده] وهو يقوده جبريل بسائر أقطار السماء ، واستقبل بنفس الحفاوة ، وفي السماء الثالثة حياه يوسف ، وفي الرابعة حياه [، ادريس ، كما في صحيح البخاري وفي الاصل الفرنسي Henoe] وفي الخامسة حياه هارون وفي السادسة موسى ، وفي السابعة إبراهيم وتقبل منه تهانیه .

[عند سدرة المنتهى]

ثم اجتاز [النبي] مساحة شاسعة من السماوات ودخل إلى السدرة (Lotos) ، حيث توجد جنة النعيم ، ولا تستطيع الملائكة أن تجتاز هذه المنطقة ، وبلغت ضخامة هذه الشجرة أن ثمرة واحدة منها تكفي غذاء لجميع مخلوقات الأرض يوماً كاملاً ، وينبع من أسفل هذه الشجرة أربعة أنهار عمل خيال الشرقيين على تجميلها .

[تعقيب]

[لم يصف البخاري ثمر السدرة بما قاله سفاري ونص البخاري : ثم رفعت إلي سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر . وإذا أوراقها مثل آذان الفيل . قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار . نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ . قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع إلى البيت المعمور ، . فأني خيال شرقي أو غربي في هذا ؟ اننا لا نكذب من علي سطح القمر فيما يرويه عنه ، لأنه أعلم به ، ولأننا لا نملك الدليل على تكذيبه . فكيف نجيز تكذيب محمد ﷺ عندما يحدثنا عما رآه في عالم لا نملك الصعود إليه لنعرف كذبه فنكذبه ؟ وإذا كانت الأقمار الصناعية تصور كل نهر في الأرض من ارتفاع شاهق ، فأني غضاضة في أن يري النبي من مكان عال كذلك نهري النيل والفرات ؟] .

(١) [خاتم النبیین ص ١٠٠] .

[إلى البيت المعمور]

وبعد أن جاب محمد مباحج دار النعيم ، ذهب لزيارة [البيت المعمور] بيت العبادة الذي تخرج إليه الملائكة .. إذ يدخله كل يوم ستون ألف ملك يسبحون الله ، ولا تتكرر هذه الزيارة لأى فريق من الملائكة .. وهذا البيت مبنى من حجر كريم أحمر اللون ، يحيط به عدد هائل من القناديل التى تضىء بلا توقف [طبعاً هذا خيال سفاري ، ولم يذكر البخاري أحجاراً ولا قناديل]

وبعد أن صلى « محمد » بالقرب منه قدم إليه ثلاثة أقداح : أحدهما مملوء بالنبيذ ، والثانى باللبن ، والثالث بالعسل . فاختار محمد قدح اللبن ، فهناه جبريل على حسن اختياره وقال له . إنه لدو فال حسن لأمته .

[فرض الصلاة]

وبعد أن اجتاز سماوات ذات مساحات رحية ، ومحيطات من النور ، اقترب من عرش الرحمن الذى أمره بأداء خمسين صلاة فى اليوم ، فنزل محمد إلى سماء موسى ، وأخبره بالأمر السماوى الذى تلقاه . فقال له موسى « ارجع إلى ربك واسأله أن يخفف الفريضة ، فإن أمتك لا تستطيع الوفاء بها » ، فصعد « محمد » إلى الله تعالى [هكذا قال سفاري والنصوص تقرّر أنه صعد إلى العرش لأن الله ليس له مكان يصعد إليه فيه ، وإنما له أماكن ، الدعاء فيها أرجي] . وسأل محمد ربه أن يخفف عدد الصلوات فخففها إلى أربعين صلاة ، ولقد دفعه موسى إلى أن يكرر إلحاحه ، فخففها الله بمقدار عشر صلوات . وأخيراً - بعد أن تكرر ترده بناء على توصية موسى خففت إلى خمس صلوات ، وبعد أن رضى « محمد » ، ودّع موسى وانطلق طائراً [١٩] نحو الأرض ، وأنزله البراق فى المكان الذى كان قد أخذه منه قبل ذلك بعدة ساعات .

[تعليق]

[الكاتب لا يجب ان يكون أميناً في العبارة ، فقد جعل البراق طائراً بعد أن قال من قبل إنه فرس . وربما كان جاهلاً أن البراق كانت مهمته نقل النبي من مكة إلى المسجد الأقصى . ثم صعد النبي على المعراج إلى السماوات العلى . ولما هبط من السماء نزل

على بيت المقدس حيث ركب البراق فعاد به من حيث أتى .[

[نتائج الخبر]

كتب علماء المسلمين مجلدات عن الاسراء ، وتركوا لخيالهم العنان ، فرسموا له صوراً خارقة ، وخلال بعض الملامح السامية - التي كانت تصلح لريشة الرسام « ميلتون » - أضافوا عديداً من الصور العملاقة ، والقصص الصبيانية ، ولقد التزمنا برواية محمد التي قصها بنفسه على قومه اذا صدق بعض المؤرخين ، ولكنه لم يتحقق له النجاح الذي كان ينتظره فلم تكن قریش سهلة الاقتناع. فسخرت من الحالم [١٩] الذي كان يريد أن يصدقه الناس بغير دليل . (١) .

ولقد همس اتباعه لأول مرة ، بل إن بعضاً منهم لم يستطع أن يقاوم السخرية التي انتشرت في كل مكان . فساورهم الشك في نبیهم وعادوا إلى الوثنية ، أما الباقيون فقد تزعزعوا إلا أن محمداً وجد الطريقة التي بثت بها إيمانهم .

صدق أبو بكر الإسراء ، وأكد إيمانه به وصدق حقيقته . وكان لشهادته وزن كبير ، فهدأت الضوضاء ، وأتاحت لمحمد الفرصة من جديد .. لكي يمارس سيطرته [١٩] على العقول بعد أن كادت هذه السيطرة أن تنهدم نتيجة عدم الحيلة ، ولقد استحق أبو بكر ذلك اللقب المجيد ألا وهو « الصديق » أي الشاهد الوفي .

[تعقيب]

[كما استحق سفاري وأمثاله السخرية ، لأنهم يزنون النبوات والروحانيات بغير ميزانها . ولقد كان حادث الإسراء اختباراً حتمياً لإيمان أصحاب النبي بالصلة التي بين السماء والأرض ، فعلي أساسها سيخوضون - بعد عامين أو ثلاثة - أضرب معارك سوف يكون زادهم الأول فيها إيمانهم بالسماء .]

(١) أبو الفدا [بالرجوع إلى أبو الفدا لم نجد هذه الجملة طلاقاً . ج ١ ص ١٢٢ .]

[رد الرازي]

[قال الرازي : كما نقر بنزول الملك وهو لطيف روحاني ، من أعلي السماوات الي الارض رغم لطفه . فإننا لا نستبعد انتقال النبي - وهو جسم كثيف - من الأرض الي أعلي السماوات لتساوي الموقفين ، ولو طعنا في نزول جبريل علي الأنبياء لطعنا في نبوة المرسلين جميعاً . ومادمننا نسلم بها وجب التسليم بنبوة محمد ﷺ .]

[بيعة العقبة]

[البيعة الأولى]

وبينما كانت مكة تجادل في «رؤيا محمد» ، كانت المدينة تدوى بالتمجيد له . فقد نتج عن نشاط المسلمين الجدد هناك زيادة الأتباع ، ورحل منهم اثنا عشر مسلماً [الي مكة في موسم الحج] ليقابلوا محمداً في قصر العقبة [١٢] .

[ما أكذب المستشرقين ؟؟ فإن العقبة مكان لبني عكرمة بن وائل ، يقع علي يسار الطريق القاصد من مكة - بعد واقصة - وقبل القاع ، لمن يريد مكة ^(١) . ولم يكن به أي بناء . ولكن الكاتب يلون الماضي بالحاضر لغرض خبيث] .

وفي العقبة آمنوا بمحمد رئيساً لهم وعاهدوه علي الطاعة والإخلاص ، وأقسموا على ألا يجعلوا لله شركاء ، ولا يسرقوا ، ولا يزناوا ، ولا يقتلوا أولادهم ^(٢) .

ولقد سمى هذا القسم ببيعة النساء [٣] لأنهن عقدن بيعه عاتلة ، وتنص هذه البيعة على عدم الالتزام بحمل السلاح في الحرب المقدسة ^(٣) .

[تعقيبات]

١ - الكاتب يخطيء في بيان سبب التسمية . والحق أن السبب هو أن الله أنزل

(١) كان العرب يقتلون أولادهم خشية الفقر . وكانوا أيضاً يقدمونهم قرابين لأوثانهم جلباً لعطف الآلهة ، ولقد أثنى محمد هذه العادات الوحشية .

[(٢) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٩٨ ط ٣ لسنة

[١٩٥٣]

(٣) أبوالفداء ص ٤١ .

بيعة النساء في سورة الممتحنة الآية ١٢ فيما بعد ذلك . وكان نص الآية هو الذي بايع عليه هؤلاء . فالتسمية ببيعة النساء تسمية متأخرة ونص الآية هو «ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبאיعنك علي ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله . أن الله غفور رحيم » . [

٢] - أراد الكاتب بقوله (أن البيعة تنص علي عدم الالتزام بحمل السلاح) الالتواء بالعبارة . فان البيعة لم تنص علي الالتزام ولا عدم الالتزام . بل سكنت عن موضوع الجهاد نهائياً . والسكوت عن أمر ليس نصاً في شيء عنه . ولا نفياً ولا إثباتاً . وإنما يفهم حكم السكوت عنه من نصوص أخرى ، وقد نزل حكم الجهاد بعد بيعة العقبة وقبل بيعة النساء في آيات كثيرة معروفة . [

[بيعة العقبة الثانية :]

[ويسمونها أبو الفدا الأولى]

وبعد أن اعترف الانصار « بمحمد » رئيساً أعلى للدين^(١) أعادهم إلى المدينة^(٢) . وكلف « مصعباً » التابع المخلص بمصاحبتهم وتعليمهم . وكان عليه أن يعلمهم العبادات الخاصة بالدين الجديد . وأن يقرأ عليهم القرآن . ولقد قام بهذه المهمة خير قيام وعند وصوله إلى المدينة ذهب « أسعد » لاستقباله « وهو أحد الستة الأول - من الخزرج - الذين آمنوا برسالة « محمد »^(٣) وجعله يقبل شقة في

(١) [هذه لغة النصارى ، بينما الاسلام دين ودولة فهو لا يعرف نظام الكهنوت المسيحي]

(٢) سمى سكان المدينة الذين دخلوا الاسلام وبايعوا محمداً على السمع والطاعة وانضموا تحت لوائه بالانصار .

(٣) في الطبقات (١/ ١٤٦ - ١٤٧) أن هؤلاء ثمانية هم : من بنى النجار أسعد بن زرارعة ومعاذ بن عفراء ، ومن بنى زريق - وهم أول قبيلة قريء القرآن في مسجدهم لأول مرة يقرأ القرآن فيها بمسجد - بايع معهم رافع بن مالك وزكوان بن عبد قيس ، ومن بنى سالم بايع عبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن بن زيد بن ثعلبة ، ومن بنى عبد الأشهل من الأوس أبو الهيثم بن التيهان - حليف لهم من « بلي » ، من بنى عمرو بن عوف عويم بن ساعدة . وقيل إنهم ستة : هم أبو الهيثم ، وقطبة بن عامر بن حديد ، من بنى سلمة ، وعقبة بن عامر بن نابت من بنى حرام بن كعب ، وجابر بن عبد الله بن رئاب ، وأسعد بن زرارعة ، =

منزله (١) .

أما أسيد [بن حصين - كما في أبي الفداء ، وأسيد بن حضير - كما في الأنوار المحمدية وابن هشام صحفت في أبي الفداء إلي « حصين »] وهو الأمير العربي . فقد خشي أن تحاك مؤامرة ضد الوطن ، ولهذا ذهب للقاء [مصعب وأسعد] وخاطبهما وهو ممسك بالرمح في يده قائلاً : ما جاء بكما إلى هنا ؟ هل جئتما تستطلعان أحوال قوتنا ؟ أخرجنا من أسوار المدينة . واعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب - في سكية : « إجلس واستمع » ، وتناول جزءاً من المصحف ، وقرأ له بعض الآيات ، وعرض عليه المبادئ الأساسية للإسلام ، فأعجب أسيد بالدين الجديد ، ودخل في الإسلام . ولما كانت صلته وثيقة بسعد [ابن معاذ] سيد الأوس . فقد ذهب للقاءه ، وحيد إليه الدين الجديد وسعى به إلى قريه [أسعد بن زرارة] فقال سعد بن معاذ : [أيها الأمير لولا قرابتك مني ما صبرت علي أن تغشانا في دارنا بما نكره] .

فقال مصعب : [أو ما تسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإلا عزلنا عنك ما نكره . فقال : أنصفت] .

عندئذ قام الرئيس الديني الماهر [٩٩] فأخذ القرآن ، وقرأ أنسب الآيات التي ، يمكن أن يكون لها أكبر الأثر علي عقل « سعد » ولقد حالفه التوفيق في مسعاه . فآمن سيد الأوس .

[دعوة سعد بن معاذ قومه]

وذهب سعد [بن معاذ] وهو مغمم بالحماسة إلى حيث يجتمع زعماء قبيلته (٢) ، وأعرب لهم عن أعجابه بدين التوحيد ، وفخم لهم السعادة في أن يصبحوا اتباعاً له . وألقى في جميع القلوب بكل مهارته وإيمانه ، ونظراً لعجز الشعب عن مقاومة قدوة رؤسائه ، فقد استسلم له ،

== وعوف بن الحارث بن عفراء من بني النجار (الطبقات ١ ص ١٤٧) وفي الدرر، قال ابن عبد البرهم سعة : أسعد وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن الفجلان وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نايي وجابر بن عبد الله . (الدرر ص ٧٠ : ٧١) .

[(١) الذي جاء في الطبقات ١/٤٨ وفي أبي الفداء ١/١٢٤ وفي الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية لبوسف بن اسماعيل التبهاني ص ٥٢ هو أن مصعباً عول على أسعد بن زرارة . وقد حرقها سفاري إلى كلمة « أسد » فذكرنا الصواب] . (٢) أبو الفداء حياة محمد ص ٤٢ [١٢٤/١] .

وما أن أحنى أوائل الناس فى المدينة رؤوسهم لسلطان الإسلام ، بما يشبه الحريق الشاسع الذى يغذى أواره هبوب الرياح ، حتى اشتعلت المدينة بأسرها ، فيما عدا عائلة أمية بن زيد [صحفها سفاري إلى « سعيد »] فهى وحدها التى قاومت تسلط التجديد ، واحتفظت بآلهتها . [وفي ابن هشام هم بنو واقف وبنو وائل وبنو أمية بن زيد . وفي الدررهم حطمة وواقد وبنو أمية بن زيد (١) .]

[بيعة العقبة الثالثة (الأخيرة)]

عام ٦٢١٦ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفداء - ٦٣١ م - صفر ق هـ - ٥٣ م محمد - ١٣ من البيعة .

أما مصعب ، فلم يترك عمله ناقصاً - فلكى يثبت إيمان المسلمين الجدد ، سعى بهم إلى رسولهم [ﷺ] وذهب إلي مكة فى موسم الحج وفى صحبته ثلاثة وستون من أجلهم شأننا . وأخبر محمداً بأنه سوف يقابله فى « قصر العقبة » الذى يأوى إليه . [وقد عرفنا أنه لم يكن هناك قصر كما يفترى سفاري] وكان الموعد الذى ضربه لهذا هو الليلة التالية لذبح الذبائح . واستقبلهم « محمد » بحفاوة بالغة . وكان العباس عم « محمد » لازال كافراً (٢) . ولكن حماسته لدينه لم تجمد فى قلبه نداء الطبيعة ، ولعلمه بالهدف الذى من أجله حضر هؤلاء الأتباع الجدد إلى مكة وجه إليهم حديثاً فى العبارات التالية :

« يا أهل المدينة . أنكم لتعرفون من هو محمد . وما هو نسبه . ولقد فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره ، وليس هناك أمثل من استقبالكم اللطيف ، ولا أنسب من المأوى الذى جئتم تعرضونه عليه ، فإذا كانت دعوتكم له مخلصه فكونوا أوفياء لتعهداتكم ، ودافعوا عن دينكم وأسلحتكم فى أيديكم ، واحموا نبيكم من حقد أعدائه . أما إذا كنتم تحتشون فأبعدوه عنكم ، ولا تستقبلوه لتخذلوه . »

[(١)] الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص ٧٣ - وأنظر أبو الفداء ص ١٢٤/١

[(٢)] أبو الفداء ص ٨٥ [١٢٩] .

[تعقيب]

[هكذا أضاف الكاتب من خياله قوله ، فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره ، والجملة التي بعدها . ولعل السبب هو جهل المستشرق باللغة . فان نص العبارة في أبي الفداء الذي يعول عليه (ج ١ ص ١٢٩) وقد منعناه من قومنا (أي حفظناه وجعلناه كمالوكان في حصن منيع) ففهم المستشرق أن المراد بمنعه فصله وهجره .^(١)]

[والدليل على صحة المعنى الذي نريده نحن هو قوله بعدها ، وهو في عز ومنعة في بلده ، والحق أن الأحقاد وليست الأفكار التي ذكرها سفاري ، هي سبب الخصومة والعداء ، فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولكن الكاتب - وفي مقدمته للقرآن يضيف هذه العبارة ليشكك في هذه الآية ، فإنهم لا يكذبونك]

[ولبيان كذب سفاري يراجع الطبقات (١٤٩/١) . وفي سيرة ابن هشام في هذا المقام مانعه : « أن محمداً حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو علي مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده » فأين هذا من قول سفاري « فصلناه عن الشعب بسبب أفكاره ، ١٢ » .

[رد الأنصار على حديث العباس]

رد عليه الأنصار بقولهم : لقد سمعناه وسنكون أوفياء لمواثيقنا ، وساد الصمت الاجتماع . ولكي يهيب « محمد » الأذهان للحفل الذي سيتبع هذا الحديث ، تليت سورة من القرآن تناسب الظرف . وحين انتهت القراءة نهض وقال : « أبايعكم وأعدكم ألا أترككم أبداً .^(٢) »

[(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٢٤ - الطبقات : ١٤٩/١ - أبو الفداء ١٢٩/١ .]

(٢) « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » (الحج ٣٩) - يقول المفسرون إن هذه الآية هي الأولى التي أباح الله فيها لمحمد حمل السلاح للدفاع ، ولقد تكررت هذه الإباحة في آيات أخرى كثيرة « يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (التوبة ٧٣) - « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (الأنفال ٤٠)

بشرط أن تدافعوا عنى ضد أعدائي بالحمامة التي تدافعون بها عن نساءكم وأولادكم ، وسأله أتباعه : « وإذا متنا فى الحرب من أجلك ، فما جزاؤنا ؟ قال : الجنة . قالوا : « أمدد يدك » فمد يده وعندئذ يابعوه على السمع والطاعة ، وتعهدوا بأن يموتوا قبل أن يخونوا الله ورسوله ، ولقد أيدت السماء هذه الوعود ﴿والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ (محمد : ٦:٥) وفى موضع آخر : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة ١١١).

[تعقيب]

[وهكذا - فى خبث - أراد الكاتب أن يصور وظيفة القرآن بالطريقة البدعية المعاصرة . فيجعل منه ترانيم لافتتاح الأحفال والاجتماعات . إذ يقول تليت سورة .. وحين انتهت القراءة نهض ﷺ وقال (حديثه)] .

[بينما الواقع : أن النبى نفسه هو الذى تلا القرآن بياناً لدعوته (١) . لأن القرآن نفسه هو الرسالة ومضمونه هو الدستور الذى عليه البيعة . وهو الأيديولوجية ، التى تحشد لدعمها القوي] .

[انتخاب النقباء للأنصار]

بعد هذا الافتتاح ، أراد محمد أن يوطد السلام بين أتباعه ، وكانت المدينة منقسمة بين الأوس والخزرج الذين يتتهون فى نسبهم إلى أب واحد ، ولكن هذا الأصل المشترك لم يمنع من فرقتهم ، ولم يحل دون نشوب الحروب الأهلية بينهم (٢) . وسمح النبى للمسلمين الجدد بالحديث وعرض شكواهم المتبادلة ، فأطفأ العدوات القديمة ، ودعا الى الوحدة والوفاق ، وأمرهم أن يختاروا اثنى عشر أميراً من بينهم . ليسهرؤا علي مصالح الشعب (٣) فاخترت تسعة

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٤٤ - الطبقات : ١٤٩/١ - أبو الفداء ١/٢٢٩] .

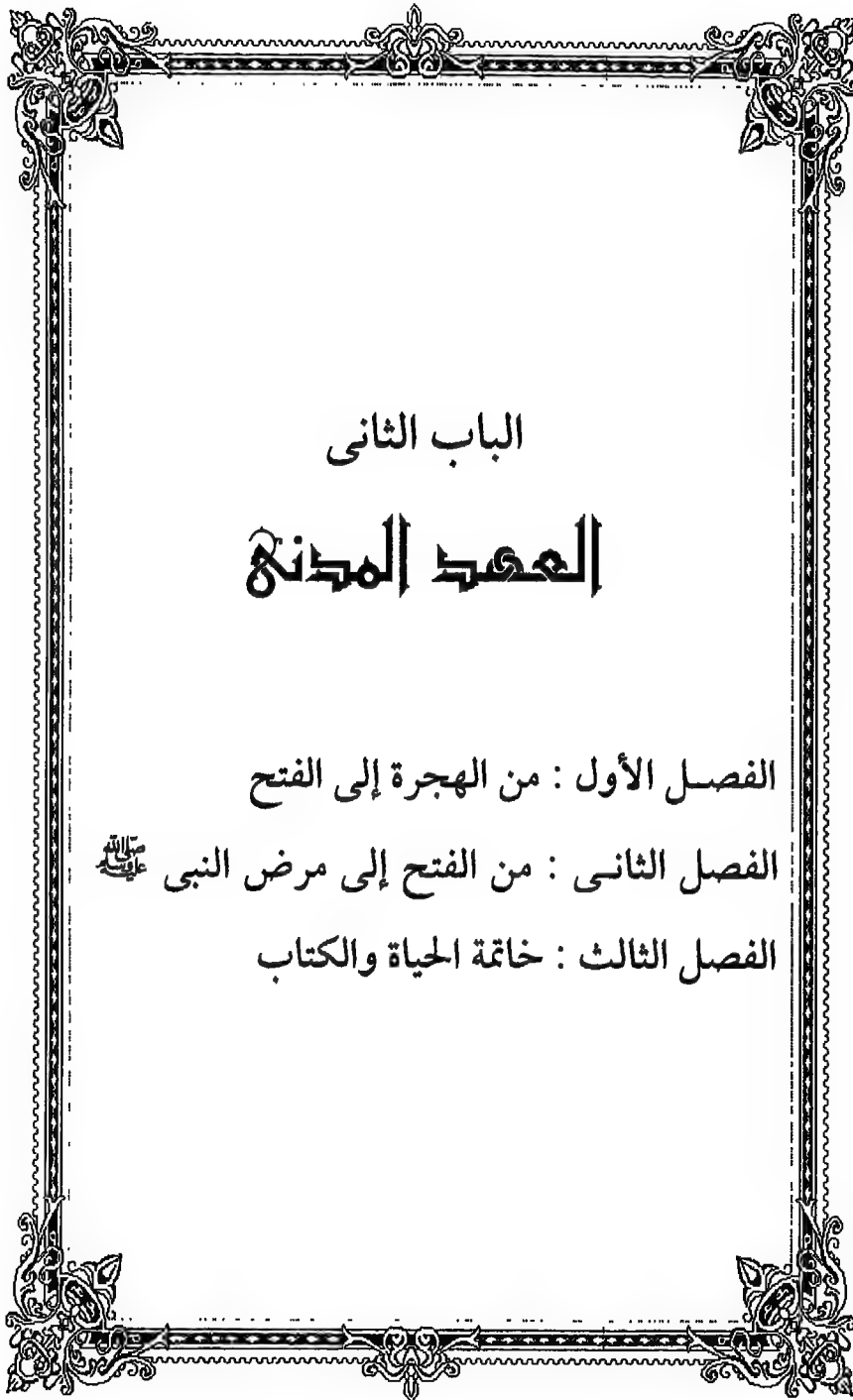
(٢) يرجع أصل الأوس والخزرج إلى «الازد» (بن زيد) بن كهلان بن سبأ بن يشجب (بن يعرب) ابن قحطان (المسمى قحطان فى سفر التكوين) ، بن عابر (أبو الفداء التاريخ العالمى) . [ج ١ ص ١٠٥ و ١٠٧] .

(٣) ابن اسحق : كتاب الأنوار [المحمدية من المواهب اللدنية ص ٥٤] .

من الخرزج وثلاثة من الأوس (١) . فقال لهم : إني أجعلكم المسئولين عن الشعب بنفس القوة التي كان بها اتباع عيسى ، وأنا المسئول ، ورئيس كل المؤمنين الحقيقيين .
وبعد أن نظم على هذا النحو شئون الدين أرجع الأنصار الي المدينة ، وأمر جميع المسلمين بالهجرة اليها ، وبعث بأسرته الي هناك . وبعد أن أصبح لا يخشى أى خطر الا ما كان يهدد حياته الشخصية دخل أسوار مكة وفي صحبته أبوبكر وعلىّ وحدهما .

* * *

(١) احتفظ لنا ابن اسحق بأسماء الاثنى عشر رسولا إسلامياً . [تسميتهم رسلا خطأ من الكاتب فهو يشبههم بيولس وأمثاله من تسميتهم المسيحية المتأخرة رسلاً] وهؤلاء هم : من الخرزج [أسعد بن زرارعة] وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواجه ، و [رافع بن مالك] والبراء [بن معروف] وعبد الله بن عمر [بن حرام] ، وعبادة [بن الصامت] ، والمنذر [بن عمرو] [وسعد بن عبادة] : أما الأوس فهم : أسيد ، وسعد بن خثيمة [فى الأصل الفرنسي ابن كرامة] ورفاعة [بن عبد المنذر . وقد اسقطه ابن هشام وعد مكانه أبا الهيثم بن التيهان [أنظر الدرر لابن عبد البر ص ٧٥ وسيرة ابن هشام ص ٨٧٨] .



الباب الثاني

العصر المديني

الفصل الأول : من الهجرة إلى الفتح

الفصل الثاني : من الفتح إلى مرض النبي ﷺ

الفصل الثالث : خاتمة الحياة والكتاب

[الفصل الأول]

[من الهجرة إلى الفتاح]

[في دار الندوة]

لقد رأينا محمداً - حتى الآن - وهويكافح ضد البغضاء ، ويواجه سب أعدائه بالصمت ، ويقابل قراراتهم القاسية بالثبات ، ومؤامرتهم بالحيلة ، ويستمر - رغم صخبهم - في كسب أتباع جدد . لقد رأيناه يخضع للإسلام أمراء القبائل ، ويكسب بمبعوثيه تأييد ملك الحبشة ، ويعد بمهارته مأوى بالمدينة . وحتى الآن .. لم يظهر الا خلف الستار [١٩] إذ كان منفياً في مكة ، وطريداً في الطائف ، ومحاطاً بأعداء أقوياء .

[وهل الذى يطارد يأسفاري ، وينفي ويحاط بالأعداء ، يكون خلف ستار ؟! ولكن المستشرقين مختلفو الميزان الفكري عندما يتصورون سيرة النبي محمد ﷺ فى ظلال العمل الصليبي العدوانى] .

[ثم قال سفاري :] كل هذا [النفي والطرود والحصار] اضطره إلى أن يغطى سيره بالظلام ، لكي يظهر نفسه بعد ذلك علي مسرح أكبر . ففي الحقة التي اعتقد أنه فيها أضعف من أن يظهر بدعوته فى وضع النهار لم يفرض على أتباعه قانون حمل السلاح ، وإنما مجرد أن استطاع أن يتوقع بعض النجاح ، أنزل [١٩] من السماء الأمر بقتال الوثنيين ، والالتزام بالدفاع عن شخصه حتى الموت .

[ما أكذب سفاري في قوله (أنزل) ١١٩؟] « إن هو الا وحي يوحى » ثم قال : [ولم يتمكن [النبي] الا بعد آلاف العقبات - من أن يحول ضد أعدائه حقدهم ومؤامرتهم.. ولقد استفاد من الظروف . فقد كان الخطر يحدق به داخل مكة ، ولكنه إذا استطاع الهرب من سلاح أعدائه، فإنه سيستقبل - في المدينة - استقبال الفاتحين وسيصبح سيد الإنتقام . [١٩] .

[هذا هو التصور الصليبي الحاقد الذي ينكره القرآن في وصف النبي محمد ، وينكره الواقع التاريخي ، إذ أنه عندما دخل مكة فاتحاً ، واحتشد آلاف القرشيين بين يديه وكان قادراً علي ذبحهم ، أو علي الأقل ضرب الرق عليهم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فهو كما قال القرآن فيه صلوات الله وسلامه عليه ، « عزيز عليه ما عنتم

حريص عليكم ﴿ .[

[قرار الهجرة]

لم يتردد « محمد » في اتخاذ قراره رغم ما كان يكتنفه من أخطار . وحدث ما كان يتوقعه . فقد كان المشركون على علم بارتباطاته مع أهل المدينة ، كما كان هروب أتباعه وأقاربه قد كشف لهم عن نواياه . ورأى المشركون أنه إذا استقبل في المدينة بما يرتضيه فإنه يستطيع أن يسلمهم قبيلتين قويتين .

هذا الخوف جعلهم يتخذون قراراً قاسياً ، هو القضاء على عدو آلهم وعدو قوتهم . واجتمعت القبائل وبدأت المداولة (١) واتفقوا - في صوت واحد - على الموت . ولكيلا يثيروا عليهم عائلة بنى هاشم ذوى البأس الشديد ، قرروا اختيار فتى من كل قبيلة ليضربوا المذنب ضربة رجل واحد (٢) [حتي يتفرق دمه في القبائل فيضطر بنو هاشم لقبول دينه بدلاً من طلب ثأره في القبائل جميعاً] وتأجل تنفيذ القرار الدامي الى الليلة التالية . [حتي يتم اختيار هؤلاء الفتيان] .

[فشل المؤامرة]

ولما علم محمد بالمصير الذى كان يتهدهده ، أخبره علياً الشجاع ، وعهد إليه بوديعة ثمينة أمره أن يعيدها إلى صاحبها . كما أصدر إليه الأمر بأن ينام في فراشه ، ويتغطى ببردته الخضراء ثم يخرج . وبعد أن ضلل يقظة قاتليه ذهب إلي بيت أبى بكر وقال له : لقد آن الأوان . علينا بالهرب . إن السماء تأمرنا به . قال : هل سأبتعك ؟ قال إتبعنى وانطلقا ومعهما دليل هو الشاب المشرك عبد الله [بن أريقط] ولقد يسر الظلام إخفاء هروبهما (٣) .

(١) ابو الفداء حياة محمد ص ٥٠ - [١ - / ١٣٢ والانوار المحمدية ص ٥٤] .

(٢) يقول الكتاب المهيون للمعاجب : إن الشيطان دخل الاجتماع على شكل رجل عجوز . وقاوم كل الآراء التي لم تكن ترمى إلى الموت ، ويضيفون أنه عندما نطق أبو جهل بقرار الإعدام صفق العجوز فنال القرار التأييد الجماعى [أصل هذه الروايات ترجع إلى أسلوب الخجاز . وتعنى أن شيخاً نجدياً تحدث بفكر شيطانى ، ولفظ الواقدى « إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد » الطبقات ١/ ١٥٣ فحملها الجاهلون على سبيل الحقيقة لا الخجاز . ولم يذكر هذه الرواية ثقات المحدثين . فلم يردها الامام البخارى في صحيحه ج ٥ باب هجرة النبى ﷺ ص ٧١ : ٨٣] .

(٣) هذه الحقبة مشهورة عند المسلمين بالهجرة : ويبدأ منها تاريخ الشرقيين ، وذلك في العام الثانى عشر من =

[المطاردة وقصة سراقه]

عام ٦٢١٦ من هبوط آدم - حسب تقدير أبى الفدا - ٦٣١م - صفر ق هـ - ٥٣م
محمد.

ومع ذلك فقد أحاط القتل ببيت محمد ، وفي يد كل منهم خنجر ينتظرون لحظة استسلامه للنوم لكي يضربوا ضربتهم ، وعندما لم يشاهدوا سوى علي مغطى ببردة محمد ، انتظروا حتي الصباح كيلا يأخذوا البريء بجرم المذنب ، فلقد كانوا على ثقة من أنهم قادرون على ضحيتهم ، وأنه لن يفلت من حصارهم ، ولكن النهار كشف لهم خطأهم (١) ، وأدركوا أن محمداً قد هرب ، ولما لم يكن لديهم الأمر بسفك دم علي فإنهم تركوه لكي يسرعوا في ملاحقه فريستهم . وانتشروا على الطريق الموصل إلي المدينة . ولكن « محمداً » كان يتوقع ملاحقه الاعداء فسلك طريقاً ملتوياً (٢) واختبأ في غار بحيل « ثور » جنوب مكة ، ومكث فيه ثلاثة أيام ريثما تخمد حماسة المتآمرين وهي لا تزال في أول اندفاعها (٣) . [هكذا تنتصر الجاهلية

= امبراطورية هرقل (أبو الفدا) فصل الاباطرة الرومان . أبو الفراج في كتاب الاستدلال ، وتوفان في
كتاب CHRONOLOGIE أى تاريخ الاحداث ص ٢٥٦ .

[ورجوعى إلي أبى الفدا ج ١ ص ٦٩ نجده يقول عن هرقل « وكانت الهجرة النبوية في السنة الثمانية عشر من ملكه ، فكون الهجرة لمضى ٩٣٣ سنة لعلبة الاسكندر علي « داراء »
(١) يقول المسلمون المتعبدون الذين لا يريدون أن يتركوا أى عمل من أعمال الرسول من غير أن يصبغوه بالمعجزات : إن محمداً أرسل النوم على القتل بأن ألقى علي رؤوسهم حفنة من التراب وهو يقرأ بعض الآيات .

(٢) أبو الفدا ص ٥١ - [(١٣٣/١) وصحيح البخارى ٧٦/٥]
(٣) وقد لاحظ بعضهم - وهم يتأهبون لدخول الغار ، أن المدخل قد غطى بنسيج العنكبوت ، وأن إمارة قد باضت علي عتبته . عندئذ عادوا أدراجهم ، وهذه المعجزة المزعومة موثوق بها عند المسلمين مما جعلهم يوقرون اليمام .

[تعقيب] : هذه القصة لم يذكرها الشيخان في صحيحيهما ، ولا القرآن الكريم ، فهي ليست من العقيدة الاسلامية في شيء . ودعوى سفارى « توقيير اليمام » ليس لها من النصوص شيء ، وإن كان بعض العامة يجوبن اليمام لهذا الذي قاله سفارى . ولكنه عمل أو عاطفة مظهرها نادر . والقصة إنما تحكى لتصور حقيقة إيمانية صورها البوصيرى بقوله : [وقاية الله أغنت عن مضاعفة : من الدروع وعن عال من الأطم]

المعاصرة للجاهلية الأولى ، فتظهر الكفار في صورة منصفين عدول . كما تبرز الرسول في صورة الهارب من يد العدالة[.

وغادر الغار في اليوم الرابع موازياً ساحل البحر الأحمر ميمماً وجهه يثرب في خطوات سريعة ، لا يصحبه سوى أبي بكر وعبد الله [ابن أريقط] . ولقد أدرك الهاريين سراقه بن مالك ، وكان من أشجع فرسان العرب ، ومن خلفه فرقة مختارة من الفرسان^(١) وكان قد سبق أصحابه وأنطلق في اتجاه محمد . والرمح في يده - فصاح أبو بكر يارسول الله « هذا هو طالب الأذى » فرد عليه النبي قائلاً « لا تخف إن الله معنا » واستدار النبي نحو عدوه فجأة وصاح فيه « ياسراقه » ! فدعر الفرس من هذا النداء ، وانقلب علي الأرض ، فذهل الفارس من سقطته ، وخيل إليه أن هذه السقطة الطبيعية ليست سوى معجزة من المعجزات . فطلب العفو من النبي ، وتضرع إليه أن يدعو له ، فدعا له محمد ، ونجا سراقه ، وتفوقت السماحة على الانتقام ، وأوقف سراقه اندفاع الأجناد وأمرهم بالرجوع .

[تَعْقِيب :

] هكذا يفسر المستشرقون الأحداث الغريبة بردها إلي السنن الطبيعية ، ونحن لا ننكر أن ترد الأحداث الي هذه السنن ولكننا نسأل : أليس سوق الله الأحداث الغريبة والسنن الطبيعية في خدمة عبد من عباده مكرمة يكرمه الله بها^(٢) ؟ وقد رواه البخاري في صحيحه بإسناد صحيح عن سراقه نفسه ، وهو من الثقات الصالحين[.

[تبشير سراقه]

وإذا صدق التاريخ فقد بشره النبي بهذه النبوءة إذ قال : [كيف بك يا سراقه إذا سورت بسوار كسري بروير]^(٣) .

(١) أبو الفدا ص ٥١، ٥٣- [١٣٣/١] والأنوار المحمدية ص ٥٨ وبالرجوع إلى أبي الفداء الذي أشار الكاتب إلى أنه مستعد فيما يقول ، لم نجد ذكر « فرقة ممتازة من الفرسان » كما زعم سفاري ، ولكن جاء في الأنوار أن فتيان قريش كانوا يبحثون عن النبي مع غير سراقه ، وفي ابن هشام وغيره مما ثبت أنه خرج وحده[.

[(٢) البخاري ٧٧: ٧٥/٥]

(٣) في العام الخامس عشر من الهجرة أحضر أجناد عمر - بعد أن حققوا انتصاراً عظيماً على « يزدجرد » =

[في قباء]

وبعد أن أفلت « محمد » من الخطر استأنف السير حتى وصل إلى قباء - إحدى ضواحي المدينة .. وذلك يوم الاثنين الموافق ١٢ من شهر ربيع أول (١) فأواه كلثوم بن العدم [وقيل سعد بن خيثمة] في داره حيث مكث ثلاثة أيام ، وقبل أن يغادر هذه الضاحية وضع أساس مسجد سمي فيما بعد بمسجد التقوى (٢) .

[بلوغ المدينة]

ودخل المدينة يوم جمعة ، وتجمع الناس أمامه ، وتقدم رسول المسلمين [؟] تحت ظلّة من ورق الشجر يحملها أتباعه ، وتنازع الناس في كسب شرف ضيافة الرسول ، وألح عليه الأنصار في أن يقبل السكنى في إحدى دورهم ، وأخذ بعضهم عناق ناقته لاقتيادها نحو بيته ، فقال لهم النبي [خلّوا سبيلها فإنها مأمورة] (٣) .

وأخيراً توقفت الناقة أمام مربد [سهل وسهيل] ابني عمرو [بن عوف] (٤) فنزل الرسول وثق الجموع ذاهباً إلى بيت أبي أيوب الأنصاري .

[أول بناء للإسلام]

كان أول ما عني به محمد هو أن يقدس بقداسة الدين المكان الذي نزل به عند دخوله المدينة، فاستدعى معاذ [بن عفراء] الذي كان وصياً على سهل وسهيل صاحبي هذه

= = ملك الفرس - تاج وأساور هذا الملك المنكوب ، ونادى عمر سراقة الذي كان قد أسلم ، ولكي يعبر له عن تقديره - لشجاعته - ألبسه هذه الكتوز . لقد كان المشهد يدعو إلى السخرية إذ كان شعر سراقة المشيب وذراعه الكثيف الشعر ، مما لا يتسق في هيئته ولونه مع الذهب واللؤلؤ والماس (جناب) .

(١) أبو الفدا ص ٥٢ - [١٣٣/١] .

(٢) جناب [وأبو الفدا ١٣٣/١] .

(٣) عبارة سفاري «الركوها فإنها دابة عجيبة» والتصويب من الدرر ص ٩٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٦٨ .

(٤) أبو الفدا ص ٥٣ - [١٣٣/١] والمربد الموضع الذي يجفف فيه التمر وكان عند بيت أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري .

الأرض، وعرض عليه ثمنها ، ونظرا لغناهم فقد أرادوا أن يهدوها للرسول (١) فرفض وقام أبو بكر بدفع الثمن المتفق عليه . (٢)

[ولم يذكر أبو الفدا ماقاله سفاري . أن محمداً أمر أبا بكر بدفع الثمن . وإنما جاء هذا في الأنوار المحمدية ص ٦٠]

وبعد شراء هذه الأرض بنى عليها مسجداً وداراً لإقامته ، واشترك في إقامة البناء بنفسه مما شجع المسلمين على الاقتداء به لرغبتهم جميعاً في أن يشاركوا في البناء المقدس، وتمت أعمال البناء في أحد عشر شهراً (٣) .

[زواج عائشة]

كان « محمد » يريد أن يرتبط بأبي بكر بجميع « أنواع الروابط » . وكان قد عقد على ابنته عائشة ، وهي مازالت طفلة مما جعله يؤجل الدخول بها ، ثم تزوجها بعد ثمانية أشهر من الهجرة ، وهي لم تتجاوز التاسعة من عمرها (٤) وبنى لزوجته الشابة منزلاً بجوار منزله ، وأولى هذه العناية لكل زوجة من زوجاته اللاتي عقد عليهن فيما بعد.

[هذا المنزل الذي ذكره سفاري ليس الا حجرة بسيطة تفتح علي المسجد]

(١) جناب ص ٧٤ والبخاري [هكذا قال سفاري والحق غير ماقاله فقد روى البخاري في صحيحه ٨٦/٥ وابن عبد البر في الدرر ص ٩٣ وابن هشام في تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧٠ أن معاذاً هو الذي عرض الأرض هدية يسد ثمنها لليثيمين سهيل وسهل] .

(٢) أندفع « الدكتور بريدو » Prideaux وقال : إن هذه الأرض كانت ملكاً لثيمين . وأن محمداً استولى عليها عنوة وطردهما منها بدون رحمة (حياة محمد ص ١١٦) ولم يشر الدكتور « بريدو » إلى أى كاتب ذكر هذه الواقعة التي تحتاج إلى دليل قوى ، ويقرر أبو الفداء وجناب والبخاري عكس ذلك ، ويؤكدون أن محمداً رفض الهبة التي عرضت عليه . فلقد كان « محمد » على درجة كبيرة من الكياسة والدهاء حتى لا يقع في مثل هذا الظلم الصارخ وقت دخوله المدينة . إن الإنسان الطموح لا يرتكب مثل هذا الظلم عندما تكون له مصلحة في أن يظهر بمظهر العدل .

(٣) أبو الفداء « حياة محمد » ص ٥٨ [١٣٣/١٦] . وبالرجوع الي أبو الفدا لم نجد ذكر تحديد مدة البناء ، كما زعم سفاري ، وروى غير ذلك : ففيل سبعة أشهر ، هامش الدرر ص ٩٤ والطبقات ج ١ ص ١٦١ والأنوار المحمدية ص ٦٠] .

(٤) إن حرارة الطقس في الجزيرة تعجل ببلوغ الاتنى في هذه السن ، ولقد كان القبط سكان مصر القدماء - يتزوجون الفتيات في سن السادسة والسابعة ويعنون بتريتهن في بيوتهم حتى البلوغ ، وعندئذ يتمون مراسم الزواج .

[المؤاخاة]

وان حبه [ﷺ] للمتعة التي أنفق حياته في سبيلها [؟؟] لم يكن ليعوق تنفيذ خطته. فقد كان عليه أن يوحد بين مصالح أتباعه المختلفة ، وأن يطفىء أحقادهم القلبية القديمة . وأن يوجهها كلها الى نفس الهدف . وكان المسلمون منقسمين إلى طائفتين هما المهاجرون والأنصار (١) وكان المهاجرون يتفاخرون بأنهم كانوا أول من اعتنق الإسلام ، وبأنهم هجروا وطنهم لكي يتبعوا رسولهم ، ويطالبون بأن يكون لهم الصف الأول .

أما الأنصار فقد كانوا يتفاخرون بأنهم أول من قدموا المأوى للرسول ، وبأنه يعيش في وسطهم ، وبالتالي فهم أجدر بالامتياز والتفضيل (٢) . ولقد نشأ عن هذه المزاعم والدعاوى مناقشات كادت تؤدي إلى نتائج سيئة . إلا أن محمداً عرف كيف يوفق بينهم ، فسن بين أتباعه قانون « الأخوة » الذي كان مبدؤه الجوهرى هو النص على أن يتعامل المسلمون مهاجرين وأنصاراً ويتحابوا فيما بينهم كإخوان ، وأن يجمعوا أسلحتهم للدفاع عن الدين ، واتخذ لنفسه أخاً في السلاح ، وهو على بن أبى طالب ، ثم آخى بين الزعماء الرئيسيين . [لاحظ التشيع المغرض في قول سفاري] .

ولكى يوثق هذه الوحدة أنزل من السماء هذه الآية ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (٣) [وكبرت كلمة تخرج من فم سفاري « أنزل من السماء هذه الآية .. » وبالرجوع إلي مراجع سفاري وغيرها لم نجد مازعمه من انقسام المسلمين عقب الهجرة ، وإنما كان الإخاء يظلمهم ، والآية لم تنزل في المهاجرين والأنصار وإنما نزلت في العرب قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أزال الشحناء من بينهم وآخى بين المجتمعين علي عقيدته [ثم قال سفاري :]

وقد وطد قانون الأخوة الوفاق بين المسلمين . فكلمة « مهاجرون » أو « أنصار » لم تكن

(١) المهاجرون هم المسلمون الذين هجروا مكة واتبعوا محمداً . والأنصار هم سكان المدينة الذين اعتنقوا الإسلام.

(٢) أبو الفدا ص ٥٣ - [٣٤/١] وجناب ص ٧٥ .

(٣) آل عمران : ١٠٣ .

سوى ألقاب مجيدة مجردة من أية دلالة للتفضيل أو الامتياز . وأصبحت المساواة هي الرابطة الوثيقة التي وحدت بينهم .

[القبلة الأولى]

وبعد ذلك أخذ محمد يوجه كل عنايته إلى الدين . فالصلاة - التي هي أساس الشعائر الظاهرة - شرع يشتها بصورة نهائية ، وكان قد قررها في بداية بعثته ، ولكنه لم يكن قد حدد الجهة التي تؤدي في اتجاهها (١) ولقد اعتمد على هذه الآية الرائعة ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله . إن الله واسع عليم ﴾ (٢) وأراد أن يكسب تأييد اليهود والنصارى وقرر أن تكون قبلة الصلاة هي معبد «أورشليم»

[تعقيب]

[أي استرضاء هذا ؟ . ولم يكن للنصاري شأن يذكر في المدينة ، كما أن النبي لم يعبا باليهود إذ أن تغيير القبلة وقع قبل أن يمضي عامان علي لقائه باليهود . بعد ستة عشر وقيل سبعة عشر شهراً من مقدم النبي المدينة] (٣) .

[تغيير القبلة]

عام ٦٢١٧ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفداء - ٦٣٢م - ٥٤ م محمد - العام الأول من الهجرة .

ولم تأت هذه المجاملة بالنتيجة التي كان يرجوها ، إذ كانت الظروف هي التي أملت لها ، ولما أصبح رئيس التشريع الديني والتشريع المدني ، أخذ يتبع سياسته وسعى إلى كسب قلوب العرب جميعاً . فجاءه جبريل بهذه الآية التي يتحدث فيها الله عن قبلة الصلاة : ﴿ قد نرى

(١) يتوجه اليهود في صلاتهم إلى أورشليم ، والعرب في اتجاه مكة ، والصابئون نحو نجمة الشمال . وقدماء الفرس عباد النار نحو الشرق .

(٢) سورة البقرة : [١٥] .

(٣) [الدرر ص ١٠٩] .

تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام (١) ،
وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴿
(٢) فاستقبل هذا الوحي بالتهليل ومازال هذا القانون سارياً حتى اليوم .

[تعقيب]

[هكذا يحاول الكاتب تجريد الرسول من صفة النبوة ، وتجريد التشريع الإسلامي
من كونه « إلهي المصدر ووحيا من الله ، فيقول أصبح « ﷺ » ، رئيس التشريع الديني
والتشريع المدني - ليسلخ من الأذهان قدسية الأحكام القانونية ، ويمحو منها الإيمان
بقديستها ، والحق أن النبي ليس صاحب الشرع وإنما هو مبلغ الشرع ﴿ شرع لكم من
الدين ما وصي به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ الشوري ١٣ ﴿ ولوتقول علينا بعض
الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ الحاقة ٤٤-٤٦]

[مشروعية الأذان]

وكان متردداً في اختيار الطريقة التي ستتبع في نداء الناس الى المسجد (٣) . فلم يعجبه
البوق الذي يستخدمه اليهود ، ولا الناقوس الذي يستعمله النصارى ، ووجد أن صوت
الإنسان أصلح للتأثير على الناس من الرنين الزائف . ولم يكن يحتاج إلا إلى تحديد الصيغة
المطلوبة فجاءت بها رؤيا مزعومة رآها عبد الله بن يزيد ، فأمر بلالا ، مؤذنه بأن ينطق في
المواعيد المقررة بالكلمات التالية : الله أكبر [أربع مرات] أشهد أن لا إله إلا الله [مرتين]
أشهد أن محمداً رسول الله [مرتين] حى على الصلاة [مرتين] حى على الفلاح
[مرتين] [النص الفرنسي « على العبادة » ، الله أكبر [مرتين] لا إله إلا الله .

(١) كلمة « حرام » معناها « المنوع » . ولقد سميت الكعبة كذلك نظراً للاحترام العميق الذي ينبغي لكل إنسان
أن يحمله في نفسه وهو داخل إليها ، ويقول البعض إن سبب التسمية هو أن امرأة دخلت الكعبة وهي غير
طاهرة فحرم على النساء دخولها .

(٢) القرآن سورة البقرة [١٤٤] .

(٣) ابن اسحق [أبو الفداء ص ١٣٤] والبخارى ج ١ / ١٥٧ والطبقات ج ١ القسم الثاني ص ٧ .

[تعقيب]

[ولماذا التشكيك في المروي من رؤيا الأذان . وهو أمر جائز عقلاً ولا دليل علي تكذيبها ؟ حقاً أن البخاري لم يذكر حديث الرؤيا ولكنه يقول - بصيغة المبني للمجهول - فأمر بلال أن يشفع الأذان ، وأن يوتر الإقامة . وترك البخاري لها لا ينفي صحتها ، وليس معني ترك البخاري للحديث عدم صحته ، وتعمره إيراد الفعل ، فأمر بلال ، بصيغة الفعل المبني للمجهول نجعلنا نشك في أن الأمر النبوي لم يكن قبل ترو ومشورة وروية] .

ومنذ تلك اللحظة عنى المسلمون بتعيين مؤذنين في مساجدهم يرددون هذه الكلمات خمس مرات كل يوم (١) .

[الصوم]

وبعد الانتهاء من هذه الفريضة الدينية ، قدس [١٩] عن طريق القرآن الزمن الذي نزل فيه القرآن . فتقرر (٢) الصوم في شهر (٣) رمضان وجعلت منه الآيات التالية ركناً أساسياً من أركان الإسلام . ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم لعلكم تتقون .. شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ... (٤) 》 .

(١) هذه هي الكلمات التي يرددونها المؤذنون من فرق المآذن في الفجر وفي الظهر والساعة الثالثة [العصر] وفي غروب الشمس وبعد الغروب بحوالي ساعتين [العشاء عندما يغيب الشفق الأحمر بعد نحو ساعة وثلاث] .

(٢) أبو الفداء ص ٥٥ - [١٣٤] .

(٣) رمضان مشتق من الرمد أى الملتهب . ولقد سمي هذا الشهر كذلك لأنه كان في السنة الشمسية عند قدماء العرب يأتي في أشد الاوقات حرارة .

(٤) البقرة: ١٨٥ .

[الغزوات]

[سرية عبد الله بن جحش]

ولم تكن الحماسة التي كان يياشربها شعائر الدين والطقوس الدينية لتحول بينه وبين أن يراقب خطوات أعدائه . وكان قد أرسل من قبل عدة حملات للغزو ولكنه لم يكن قد وقع أى اشتباك بعد . ولكى يتابع عن كذب تحركات قريش بعث بعبد الله بن جحش على رأس تسعة جنود وأمرهم بالتوجه إلى « نخله » وهو واد يقع بين مكة والطائف^(١) . والكمون هناك . وبينما هم يضطلعون بمهامهم إذ بقافلة لقريش تمر بالقرب منهم . فنهبوا وعادوا إلى المدينة محملين بالغنائم . ولقد جدد هذا النجاح الطفيف الأمل فى نفوس أصحابهم ، واستفاد منه محمد لكى يؤهلهم لتحقيق نجاح أكبر .

[تعقيب :]

[يفترى « سفاري » على رسول الله وعلي التاريخ الكذب . فالمعلوم أن النبي لم يأمر بالنهب ، وقد ثار النبي وأصحابه لما حدث وقال رسول الله : (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام) وأبي هو وأصحابه أخذ أي شئ من الغنيمة حتي نزلت الآية « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتي يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (البقرة ٢١٧) (٢)]

[بدر]

ونقلت إليه عيونه بأن قافلة قريش عائدة من سوريا وبها ألف بعير محملة بكل نفيس ، وكان أبو سفيان على رأس ثلاثين رجلاً يحرسون القافلة . وعلم أبو سفيان عن طريق عيونه أن الأعداء يعدون كميناً له ، فأرسل رسولا إلى مكة ليبلغهم بالخطر الذى يحيط به . فانطلقت طلائع مكة لنجدته . وكان عددهم تسعمائة وخمسون ، وفى مقدمتهم مائة فارس . أما محمد

(١) أبو الفدا [١٣٤] وصف الجزيرة العربية ص ٥٥ .

[٢] تهذيب سيرة ابن هشام ١٩٠-٢٩١ والدرر ص ١٠٨]

فقد ترك مقاليد حكم المدينة لعمر^(١) [عبد الله] بن أم مكتوم ، وخرج في شهر رمضان^(٢) ولم يكن معه سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم جميعاً من المهاجرين والأنصار ، وكلهم مصممون على النصر أو الموت . وكانت قوة الفرسان تتألف من فرسين وستين بعيراً . ولما وصل النبي « الصفراء »^(٣) - وهي ميناء على البحر الأحمر - علم محمد أن القافلة تقترب من بدر ، وأن المشركين يتقدمون للدفاع عنها . فانطلق على الفور وسار مسرعاً حتى سبق أعداءه وعسكر في طريقهم . وتحصن بالقرب من آبار بدر ، وسيطر علي الماء ، وانتظر قدوم قريش ، وهو في هذا الموقع الممتاز . وما لبثت أن ظهرت قريش ، وهو جالس مع أبي بكر في عريش من ورق الشجر أقامه له الجنود فصاح متضرعاً : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولاك . اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أحنيهم (أهلكهم) الغداة » .

وماكاد الجيشان يتقاربان حتى برز في ميدان القتال من جانب قريش عتبة وشيبة [بن ربيعة] والوليد [بن عتبة] . فأرسل محمد للقائهم عبيدة [بن الحارث] وعلياً وحزمة واشتبك المتحاربون وحاربوا بشجاعة دفاعاً عن شرف معسكرهم . وأسرع كل من حمزة وعلي بعد أن هزما خصميهما إلى نجدة عبيدة [بن الحارث بن المطلب] - الذي كان يدافع بشجاعة برغم أن ساقه قطعت^(٤) - وقضوا على خصمه [عتبة ابن ربيعة] وتركوه إلى حوار زميليه ممدداً علي الرمال . كان هذا النجاح بشيراً بالخير في نظر المؤمنين^(٥) وتضرعوا إلى رسولهم ألا يعرض حياته للخطر ، وأن يتهل إلى السماء وهم يقاتلون .

وتظاهر [؟] بأنه يستسلم لإلحاحهم . وبدافع من الحقد والتعصب اشتبك الجيشان بضراوة وعنف . كان المشركون يفوقون المؤمنين فهم ثلاثة أمثالهم ، ولكن محمداً كان يقود المؤمنين ، وبينما هم يصدون جهود أعدائهم بتفوق كان محمد يوجه هذا الدعاء إلى السماء : (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد)

[(١) التصويب من سيرة ابن هشام ١٩٧/١ والدرر ص ١١٠ ويسمى عبد الله بن أم مكتوم]

[(٢) أبو الفدا [ص ١٣٤ ، ١٣٥] ص ٥١ وابن اسحق .

[(٣) الصفراء : واد فوق بيع مما يلي المدينة ، بينه وبين بدر مرحلة [جغرافيا الإدريسي .

[(٤) أبو الفداء ص ٥٨ [١٣٥] وليس في أبي الفداء ذكر لشجاعة عبيدة وقطع ساقه ، ولكنه في الأنوار

الحمدية ص ٦٦ ، ٦٥ ولعله من مراجع سفاري] .

[(٥) جناب .

وبدا كأنه يرى الملائكة تطير في نجدته [بل كان يراهم] كان وجهه مشرقاً وأسرع إلى
المحاربين وأخبرهم بالمدد الإلهي وحمل إلى قلوبهم الفرح فالتهبت بالحماسة .

ولقد هيأت هذه الآيات المؤمنين لتصديق أى شىء يبدرو ... ﴿ إذ تقول للمؤمنين
ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتيقنوا
ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (١) ولقد
تخيل المسلمون [بل أيقنوا] أن جنود السماء يحاربون إلى جوارهم فاعتقدوا أنهم
لن يقهروا فقاتلوا ببسالة منقطعة النظير . ولقد لاحظ قائدهم وهو رابط الجأش وسط
الملحمة أن المشركين بدأوا يتراجعون [وهذا مالم يقله أحد إلا خيال المستشرق
الخبيث] ففكر في حيلة جديدة فأخذ حفنة من التراب وألقى بها في وجه قريش
وقال : [شاهدت الوجوه] [والنص الفرنسي] « لتغشى الظلمات الوجوه ، تشجعوا
واحملوا على الأعداء أيها الرفاق النصر لكم » [هكذا قال مالم يقله النبي] .
عندئذ بذل المسلمون جهداً آخرى وحطموا ما بقى من مقاومة وانطلق الأعداء
مولين الأدبار . وكان النصر مدوياً وحصل المنتصرون على غنائم عظيمة (٢) .

[حصاد المعركة]

ولقد تركت قريش في ساحة القتال سبعين قتيلاً وأسر منهم عدد مائل ، وكان
بين القتلى أربعة وعشرون من أشرفهم من بينهم أبو جهل (٣) وقد ألقى بهم
محمد في حفرة ، أما محمد فلم يفقد سوى أربعة عشر جندياً منحوا لقب

(١) القرآن سورة آل عمران [١٢٤-١٢٥] .

(٢) ينسب كثير من المؤرخين العرب هذا النصر إلى الإعجاز . إذ حارب في صف المسلمين ملائكة
يلبسون جلابيب طويلة وعمامات صفراء ويركبون أفراساً بها نقاط بيضاء وسوداء (حلال الدين)
ولقد لاحظ مشركان كانوا يرقبان المعركة من فوق تل ، سحابة فيها سرية من الملائكة ، وسمعاً
صهيل خيولهم وصوت جبريل يقول اقتراب يا حيزون (وهو اسم فرسه) وقتل أحد هذين
المشركين بسهم اخترقه ، وكاد الآخر أن يموت من الرعب (ابن اسحق) . هكذا كان تأثير
محمد على عقول العرب الذين نسبوا إلى الإعجاز انتصارات ترجع إلى التعصب [١٩] الذى عرف كيف
يلهمهم به .

(٣) أبو الفداء ص ٥٩ [١٣٥/١] .

الشهداء . ولقد نسب الفضل فى نصر ذلك اليوم إلى الله القوى القدير. ﴿ ولقد نصركم الله بيدرس وأتم أذلة ﴾ (١) ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٢) ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ (٣) .

لقد تمكن محمد بيث فكرة أن هناك إله يحمى جيشه أن يجعل المسلمين لا يغلبون وقدم على - تلميذه وهو فى سن الثانية والعشرين - أدلة فى هذه المعركة على بطولته مما جعل محمداً ينظر إليه على أنه اله الحرب فى الشرق . [معاذ الله أن يكون محمد رسول التوحيد كذلك] . ولقد قتل على « سبعة من المشركين بيده . ومكث محمد ثلاثة أيام فى ساحة القتال ودفع به الخلاف على تقسيم الغنائم إلى سن هذا القانون ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسها وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... ﴾ (٤) .

[هكذا قال المستشرق بناء على اعتقاده الفاسد أن القرآن كتاب نسج النبى آياته وأحكامه بنفسه وسبق الرد عليه] .

وكان من بين الأسرى النضر وعقبة عدوا اللدودان فأمر بقتلهما . وعاد إلى المدينة حيث استقبل استقبال الفاتحين . وانتشر نبأ انتصاره فى كل الجزيرة وعبر البحار . ولما علم به ملك الحبشة (٥) دعا جعفر وإخوانه وحمل اليهم خبر هزيمة قريش (٦) .

(١) القرآن سورة آل عمران

(٢) القرآن سورة الأنفال .

(٣) القرآن سورة الأنفال .

(٤) القرآن سورة الأنفال .

(٥) لما علم ملك الحبشة بهزيمة قريش بيدرس ، نزل عن عرشه وارتدى ثوبين وجلس على الأرض واحضر جعفر وإخوانه وسألهم : من منكم يعرف بدرساً قالوا : إننا نعرف هذا الوادى معرفة تامة قال وأنا أيضاً أعرفه . فعندما كنت راعياً فى الماضى كنت أرى الغنم على ساحل البحر الأحمر (لما طرد النجاشى من مملكته لجأ إلى الجزيرة العربية وتنكر فى زى راع وأضاف أن الله أيد رسوله بيدرس ونصره على أعدائه ، فاشكروا الله على نعمته (أبو سعيد فى كتاب الأنوار) .

(٦) يحدد أبو الفدا - [١٣٦٦] ويوسف النبهانى فى الأنوار المحمدية ٦٩ [وقت هذه الحادثة بأنه فى العام الثانى للهجرة ، بينما جتأب و El coda و Elmacin يقررون أنها كانت فى السنة الثالثة .

[إجلاء بنى قينقاع السبت ١٥ شوال سنة ٢ هـ .]

وكان اليهود المقيمون حول المدينة أقوياء ، وكان محمد قد عقد معهم حلفاً . غير أن إحدى قبائلهم وتدعى بنى قينقاع نقضت العهد (١) . ولم يكن النبي يتمنى شيئاً مثل إخضاعها بمهاجمتها على انفراد . فأنتهز الفرصة وقام بفرض الحصار حول قلعتها . فاعتصموا بها ودافعوا بشجاعة مدة خمسة عشر يوماً . وشن المسلمون هجمات جديدة . فلم يجد اليهود بداً من الخضوع للقوة واستسلموا حسب طلب النبي . ولكي يلتقى العرب فى قلوب قبائل اليهود الأخرى ، قيد أيديهم خلف ظهورهم وقرر قطع رؤوسهم جميعاً .

ولما كانوا فى الماضى حلفاء الخزرج فقد سعى عبد الله بن أبى بن سلول المنافق (٢) وأحد أشراف الخزرج للتوسط لهم ولم يئأس من العمل على التخفيف من قسوة القرار وقال : « يارسول الله أعف عنهم قال له : اتركنى قال : لن أتركك قبل أن تحسن إلى موالى . ثم وضع يده على قلب محمد وقال « إرحمهم » فلم يستطع محمد أن يقاوم وقال له : « أنهم لك » . لجا اليهود من الموت ولكن أموالهم وزعت على الجنود المنتصرين .

[غزوة السويق فى ٥-١٢-٢ هـ]

بعد هزيمة بدر ، أقسم أبو سفيان ألا يتطيب ولا يقرب نساءه إلا بعد أن يقاتل محمداً فى معركة ثانية (٣) . فخرج من مكة على رأس مائتى فارس حتى عسكر على بعد ثلاثة أميال من

(١) وقام صائغ من قبيلة بنى قينقاع بعمل أساء به إلى عرض امرأة عربية كانت تبيع اللبن فى السوق . فغسل مسلم العار بدم اليهودى السافل . فقتله اليهود . فشب الخلاف بين الطرفين وذهب محمد الى حبيهم وطلب منهم الدخول فى الإسلام [١٩] حتى يظفروا بالعفو عن جريمتهم فرفضوا بعناد فحمل السلاح ضدهم . هذا هو سبب الحرب كما أورده جناب .

(٢) عبد الله بن أبى بن سلول أمير من قبيلة الخزرج كان أحياناً صديقاً لمحمد وأحياناً أخرى عدواً له . فقد كان يعارض مشروعاته أو يخدمها حسب الظروف . وكان السبب فى تسميته بالمنافق هو رفضه الاسلام فى صلابته [بل كان يخفى الكفر ويظهر الاسلام] ولقد اقترح كثير من ضباط محمد الاطاحة برأس هذا الكافر ولكنه كان دائماً يرفض أجابتهم لطلبهم .

(٣) أبو الفداء [١٣٦] حياة محمد ص ٦١ [والأنوار المحمدية ص ٦٩] .

المدينة . ولما علم النبي بالخبر امتطى جواده وانطلق فى طلب العدو غير أن أبا سفيان لم يوف بوعده . ورعب لما رأى المنتصرين فى بدر يقتربون منه ، وأسرع إلى الهرب . ولكى يخفف فرسانه من حملهم ، ألقوا بأكياس مملوءة بالدقيق كانت معهم . ولما لم يتمكن المسلمون من اللحاق بهم عادوا إلى المدينة . وسميت هذه الغزوة بغزوة الدقيق (السويق).

[غزوة سليم بالكدر]

[فى أواخر رمضان سنة ٢ هـ وقيل فى منتصف المحرم سنة ٣ هـ]

وما كاد المسلمون يضعون السلاح حتى حملوه من جديد . فقد احتشدت قبيلتا بنى سليم وغطفان من قردة الكدر (وهو اسم يجر على الطريق الذى يمر به سكان الأقاليم المجاورة للأراك وهم فى طريقهم إلى مكة) (١) كان يهيم محمداً ألا يترك للأعداء الوقت لكى يتحصنوا . فسلم زمام حكم المدينة لابن أم مكتوم وذهب يهاجمهم . أما بنو سليم فلم ينتظروه وأتما تفرقوا وتركوا لأعدائهم رعاتهم وقطعانهم التى أخذت إلى المدينة .

[زواج على بفاطمة]

وأراد محمد أن يكافئ علياً الشجاع على ارتباطه الوثيق بشخصه فزوجه بفاطمة ابنته الغالية (٢) وكان عمرها خمسة عشر عاماً (٣) وإذا صدق الكتاب الشرقيون فإنها كانت تتوفر فيها كل صفات الكمال وأنها جديرة بأن تكون إحدى النساء الصالحات الأربعة المتصفات

(١) أبو الفداء : ص ٦١ - [ط ص : ١٣٧] وجناب [ويقال له أيضاً : قرارة الكدر وهو ناحية معدن بن سليم بن منصور وهو معدن ذهب قريب من الارحضية وراء سد معونة وبين المعدن والمدينة ثمانية برد - ٩٦ ميلاً . وهم غير بنى سليم عمرو بن حلوان من قضاعة ملوك الشام وغير سليم بن فهم الدوسى . وقال أبو الفداء قرقرة الكدر ماء مما يلى جادة العراق الى مكة (أبو الفداء ج ١ ص ١٣٧) والأراك : جبل لهذيل كما فى القاموس المحيط وذورارك واد باليمامة وأرك أيضاً طريق فى فقاخضن . وحضن جبل بنجد .]

(٢) فى ليلة الزواج صحب محمد ابنته إلى الشاب علي بن أبى طالب وكان يسيرا أمامهما جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ومن خلفه ستون ألفاً من الملائكة يكرنون موكب العروس وكانوا يتشدون التراتيل والتسابيح لله تعالى حتى مطلع الفجر (أحمد بن يوسف : التاريخ العام : الجزء الخامس والتسعون) [لم يصح ما ذكره الكاتب ولم يروه أبو الفداء ولا صاحب الانوار المحمدية عند ذكره قصة زواج على بفاطمة ص ٧٠] .

(٣) أحمد بن يوسف : نفس المرجع .

بالكمال (١) واللاتى زينت الأرض بوجودهن .

[رثاء أمية ابن أبى الصلت]

كان موت أمية المفجع - الامير المشترك - قد جعل نهاية هذا العام مشهوراً . إذ كان قد تعلم الكتب السماوية وأنكر علانية رسالة محمد . ولكنه فكر بعد ذلك فى نجاح هذا المبتدع وامتلات نفسه بالغرور لمقدار ما حصل عليه من المعرفة وقرر أن يدعى النبوة .

وكان رأسه مفعماً بأفكار العظمة التى تهتف به وهو عائد من سوريا فى طريقه الى مكة لتنفيذ خطته . ولما مر بالقرب من بدر دله الناس على البعر التى دفن فيها أشراف قريش ومن بينهم عتبة وشيبة [أبناء ربيعة وهما] إبن أخيه (٢) . فلما رآها نزل من فوق دابته وقطع أذنيها وأنشد قصيدة رثاء احتفظ لنا منها أبو الفداء بالأبيات التالية :

[ألا بكيت على الكرا م بنى الكرام أولى المصادح]

[كبكا الحمام على فرو ع الأيك فى الغصن الحوانح]

[يبيكين حزنى مستكينا ت يرحن مع الروايح]

[أمثالهن الباكيا ت المعولات من النوايح]

[ماذا ببدر والعتن فل من مرازية ججاج (٣)]

[شمت وشبان بها ليل . مغاوير وحاح (٤)]

[ان قد تغير بطن م كة فهى موحشة الأباطح]

وبعد أن نطق أمية بهذه الكلمات ، استسلم الى الحزن واليأس وسقط ميتاً فوق الأجداث

(١) فى رأى العرب أن هؤلاء النسوة الأربعة هن امرأة فرعون ومريم وخديجة وفاطمة

(٢) أبو الفداء حياة محمد ص ٦٣ [١٣٧/١٦] وفيها انهما ابنا خال أمية المذكور وليس ابني أخيه [

(٣) [الحجاج : جمع : حجج : السيد الكريم السمح ولا يقال ذلك للمرأة .]

(٤) [الرواح : جمع وحوح : وهو الرجل الشديد القوة الشيط فى عمله ، والخفيف البدن ولسان

العرب] [

التي رآها (١) .

[مقتل كعب بن الأشرف] : [١٤ ربيع الأول سنة ٣ هـ]

عام ٦٢١٨ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفداء - عام ٦٣٣ من ميلاد المسيح عام ٣ من الهجرة - عام ٥٥ من ميلاد محمد .

وفي العام الثالث الهجري أنجبت فاطمة ابناً لعلی سمى الحسن . وفي نفس العام أهدر محمد دم كعب بن الأشرف أحد رؤوس اليهود في المدينة وكان قد أعلن عداءه لمحمد وقرض الشعر الذي ينفس به عن حقه (٢) . وما أن علم بهزيمة قريش حتى ذهب إلى مكة يحرضها . وأصبحت قصائده في هجاء المسلمين وفي رثاء قتلى بدر على كل لسان فأشعلت في القلوب الرغبة في الانتقام .

وبعد أن نفث في مكة نار الخلاف عاد إلى المدينة واجتهد في إثارة الشعب . فأمر محمد بقتله فقتل (٣) .

[غزوة أحد] : [السبت ٧ شوال سنة ٣]

[وقال ابن هشام السبت ١٥ شوال سنة ٣]

[خروج جيش الكفار]

كان شعر كعب قد أثار قريشاً وأصبح الناس يطالبون بحمل السلاح فأعنتهم أبو سفيان الفرصة لكي ينتقم لشرف وطنه ، وجهز ثلاثة آلاف من المقاتلين منهم

(١) ان العرب متطوفون في كل شيء نظراً لحياتهم تحت شمس محرقة . إنهم يحبون أو يكرهون بالندفاع ففي عام ١٧٧٨ عندما كنت بمصر علمت امرأة بمرض ابنها الذي كان في مدينة دمياط فقطعت ثلاثين فرسخاً لكي تراه . ولما نزلت من المركب سألت عن أخبار ابنها ، قيل لها أنه مات فألقت المسكينة بنفسها في النيل [لم يذكر أبو الفدا خبر وفاة أمية وإنما ذكر موت أبي لهب عندما سمع بالهزيمة الكراء ١/١٣٥] .

(٢) [أبو الفدا ص ١٣٧ والأنوار المحمدية ص ٧١] جناب .

(٣) يؤكد الدكتور بريدو (ص ٨٦) أن كعباً لم يقتل وأنه أفلت من جميع الكمائن التي نصبها له محمد ، غير أن هذا الرأي يعارض مع حقائق التاريخ : ويخلط الدكتور بريدو بين كعب هذا الذي يتحدث عنه وشاعر آخر يحمل نفس الاسم وأهدر دمه أيضاً لأنه كتب هجاء ضد محمد . وفي العام التاسع الهجري حضر وارتقى تحت أقدام محمد وقدم إليه قصيدة امتدحه فيها فأعجب بها الرسول وعفى عنه وأكرمه . ولو أن الدكتور بريدو قد رجع إلى اسم أبيهما لما وقع في هذا الخطأ فالأول هو كعب بن الأشرف والثاني هو كعب بن زهير .

سبعمائة دارع ومائتا فارس وانطلق على رأسهم . واصطحب معه زوجته هند وخمس عشرة امرأة أخرى يحملن الدفوف كن ينشدن شعر كعب ويكيبن. عار « بدر » ويحمسن المقاتلين على القتال ببسالة . سار جيش قريش بقيادة أبي سفيان في اتجاه المدينة من غير أن يقابل أية مقاومة وعسكر بالقرب من ذى الحليفة على بعد ستة أميال من المدينة .

[النبى يشاور أصحابه]

وكان محمد يريد أن يقى داخل أسوار المدينة لأنه لم يكن يستطيع أن يجهز قوة بهذا العدد. وكان عبد الله المنافق والرئيس المخنك يؤيد هذا الرأى ، بينما كان للقواد الآخرين رأى مخالف . فالكل كانوا يطالبون بالقتال . فأدى إلحاحهم الى أن اتخذ محمد موقفاً محفوفاً بالأخطار(١).

[موقف المنافقين]

وخرج محمد على رأس ألف مقاتل وعسكر على مسافة قريبة من الأعداء ، وتركه عبد الله وثلاثمائة(٢) من أصحابه وهو يقول « هل تجب علينا الطاعة والسيف على رقابنا والموت محقق ؟ » غير أن هذا الانشقاق لم يخف محمداً بل أخذ ينظم جيشه الصغير على جبل أحد (٣) بأحسن طريقة ممكنة (٤) ووضع فى قلب الجيش مائة دارع ، ونظراً لأنه لم يكن معه فرسان فقد كان يخشى أن يحيط به جيش الأعداء الذى يفوقه بثلاثة أضعاف . أقام خلف الجيش خمسين من رماة السهام وأصدر اليهم هذا الأمر الصريح :

[إن رأيتُمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتُمونا قد هزمنا القوم وظهرنا عليهم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم (٥)] .

(١) أبو الفدا ص ٦٤ - [ص ١٣٧ والأنوار الحمديّة والأغاني جـ ١٥ ص ١٤٠ - ١٤١] .

(٢) [فى الأصل الفرنسى ثلاثة وهذا خطأ]

(٣) أحد معناه : « واحد » ولقد سمي هذا الجبل بهذا الاسم لأنه قائم وحده فى الروادى .

(٤) جنّاب [وأبو الفداء ١٣٨/١ والأنوار الحمديّة ص ٧٣]

(٥) [الطبقات الكبرى ٣٣/٢ والأنوار الحمديّة ص ٧٣] .

وسرى أهمية هذا الأمر . وبعد أن اتخذ القائد الماهر كل ترتيباته انتظر المشركين بقدوم ثابتة فتقدموا إليه بنظام وكان أبو سفيان على قلب الجيش ، وخالد بن الوليد على اليمينه وعكرمة بن أبي جهل على اليسرة ، وتحت إمرة كل منهم مائة فارس . وكانت هند وصاحباتها فى مؤخرة الصفوف يثرن حماسة المقاتلين ويقلن :

[« وبها بنى عبد الدار : ويا حماة الأديار (١) : ضريباً بكل بئار ، »]

[الاشتباك]

واشتبك الجمعان وكان حمزة عم الرسول يقاتل فى مقدمة المؤمنين ويلهب حماسهم ويضرب لهم المثل بإقدامه . وكان قد طرح أرطاة حامل لواء المشركين تحت أقدامه .

[وجاء فى الطبقات أن الذى قتل أرطاة بن شرحبيل هو على ابن أبى طالب . وأن حمزة ضرب بسيفه كاهل عثمان بن أبى طلحة - أول حامل للواء المشركين . فقطع حمزة بضرباته يد عثمان وكتفه حتى انتهى إلى مؤنزره وبدأ سحره . ثم رجع وهو يقول أنا ابن ساقى الحجيج]

وأطاح [حمزة] برأس سباع [بن عبد العزى الغيشانى من خزاعة ويكنى أبا انهار وهو ابن أم أنمار ختانة مكة] وكان الرعب يتقدم خطواته وكان كل شىء يتراجع أمامه . وبينما هو يندفع بشجاعة إذ بوحشى عبد جبير [ابن مطعم] يطعنه من الخلف فيقتله بضربة رمح (٢) . وفى نفس اللحظة سقط مصعب بن عمير حامل لواء الإسلام ، فحمل محمد اللواء من غير أن يضطرب ، وعهد به إلى على الباسل . واستمر القتال بعنف وبدأ النصر يظهر فى جانب المسلمين وأخذت قريش تتراجع (٣) . عندئذ لم يستطع رماة السهام أن يقاوموا إغراء الغنائم فتركوا مراكزهم . لقد كان خطباً لا يفتقر شكى منه محمد [١٩] فى القرآن بمرارة ﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ

(١) [الذين يحمون أعقابهم] .

(٢) أبو الفداء حياة محمد ص ٦٥ - [١٣٨ / ١]

(٣) أبو الفداء ص ٦٦ - [١٣٨ / ١] .

تحتونهم بأذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكهم ما تحبون ﴿ الغنيمة ﴾ لاحظ خالد الحركة وأغتنم الفرصة وانطلق على رأس الفرسان وهاجم أعداءه من الخلف وفي لحظة طوق المسلمين . ولكي يلقي الرعب في قلوب المؤمنين صاح بأعلى صوته أن محمداً قتل . فخارت شجاعة المسلمين وهرب كثير منهم . ونفذ المشركون إلى قلب جيش المسلمين حيث كان النبي لا يزال ينازعهم النصر ومن حوله أشجع المقاتلين . وأصيب النبي بعدد من السهام والرماح وشج وجهه وكسرت أسنانه (١) وغطته الدماء وأحاطت به صورة الموت من كل مكان . غير أنه احتفظ برباطة جأشه وبشجاعته (٢) . وكان يصبح في أصحابه البواسل قائلاً [(كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعو إلى ريبهم ؟)] .

ولقد عرض طلحة نفسه للخطر فداء لحياة الرسول عندما خلع درعه وألبسه محمداً في قلب المعركة فكسر ذراعه .

[بل جعل طلحة بن عبد الله نفسه درعاً للرسول ﷺ ولم يكن معه درع . وقد اتقى ضربة من ابن قمينة كانت مصوبة إلى النبي فشلت أصبح طلحة] (٣)

وأخيراً لم تتمكن جهود قريش من أن تحول بين المسلمين وبين أن ينسحبوا انسحاباً متصراً . ودون أن ينقذوا حياة محمد . وكان لا يزال سهمان ناشبين بشفتي الرسول ، ولما خلعا عنه سقطت سنتان . وكان [مالك بن سنان أبو] أبي سعيد [الخدري] يمسح الدم الذي كان يتساقط بغزارة من جراحه فقال له الرسول : [من مس دمي دمه لم تصبه النار] ، وكان قد مص الدم عن وجهه ﷺ ثم أزدرده .

(١) [الذي كسره هو الرابعة اليمنى السفلى أى السن المجاورة للأنف .] وإنما سقطت ثنايا أبي عبيدة بن الجراح حين نزع حلقى الغفر من وجهه عليه السلام (سيرة بن هشام ٢٣٧/١ الأنوار المحمدية ص ٧٥ وأبو الفداء : ١٣٩/١) .

(٢) أبو الفداء ص ٦٧ [١٣٨-١٣٩]

(٣) [الطبقات الكبرى ٢: ٣٢٠]

وأصبح المشركون يسيطرون على ساحة القتال فمثلوا بالقتلى . وأسرف نساؤهم إسرافاً منقطع النظير ، فقطعن أنوف وآذان قتلى المسلمين وصنعن منها عقوداً وأسواراً ، وجاوزت هند هذه الحدود في فظاعة الانتقام ، إذ شقت صدر حمزة ولاكت جزءاً من قلبه بأسنانها (١) .

[المراجع العربية تقرر أن الذى لاكته هو الكبد لا القلب] .

ولقد علق أبو سفيان فك هذا المقاتل الباسل فى رمحه وصعد إلى التل وصاح قائلاً :

(الحرب سجال ، لقد انتصرت يا هبل (٢) . هذه هى معركة احد بعد يوم بدر ثم أذاع هذا التحدى (أيها المسلمون إلى اللقاء بيدى فى العام القادم) فأرسل محمد من يرد عليه بقوله [هو بيننا وبينكم موعد] .

[إنسحاب المشركين]

لم يجرؤ المشركون على مهاجمة أعدائهم فى القرية التى انسحبوا إليها ، فاتخذوا سبيلهم إلى مكة (٣) وبعد رحيلهم ، عنى محمد بدفن الموتى وأمر بإحضار جثة حمزة (٤) فوجدها مشوهة . وبكى الجنود قائداً من أعظم القواد . ولكى يواسيهم الرسول قال لهم : [جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع . حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، (٥)] ثم غطى جسده ببردة سوداء وصلى عليه بسبع [تكبيرات] كما صلى على كل من سقط فى المعركة ودفنهم فى الأماكن التى سقطوا فيها . وبعد القيام بهذه الواجبات الجنائزية عاد إلى المدينة حيث أخبر أن الأعداء يقتربون (٦) .

(١) إذا كان هناك شيء يمكن أن يخفف من وحشية هذه الجريمة ، فهو أنها كانت قد فقدت ابنها البكر لحظة يوم بدر . وأن نساء العرب لا يفقرن ابداً قتل أولادهن .

(٢) هبل هو الوثن الرئيسى عند قريش .

[وابن هشام يروى أن أبا سفيان فقطض بمرمحه شدة حمزة وعيب عليه هذا فاعتذر التهذيب ٢٤٤/١] .

(٣) جناب [أبو الفداء ١٣٥/١]

(٤) أبو الفداء ص ٦٨ .

(٥) أبو الفداء ص ١٣٩ .

(٦) جناب ص ١١ و [أبو الفداء ص ١٣٩] .

[غزوة حمراء الأسد : ١٦ شوال سنة ٣ هـ]

والواقع أن أبا سفيان غمره الحزن بأنه لم يحقق أكبر فائدة من الانتصار، فاقنع المتصبرين بالعودة ثانياً واستتصال المسلمين الذين أضعفتهم الهزيمة . فوفر عليهم محمد جزءاً من الطريق وظهر لهم في وقت لم يكونوا يتوقعونه فيه . فأدهشتهم هذه الجرأة وبدلاً من أن يجددوا القتال أسرعوا بالانسحاب [الأغاني] .

[يوم الرجيع : (١) صفر سنة ٤ هـ .]

عام ٦٢١٩ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفدا - عام ٦٣٤ من ميلاد المسيح - عام ٤ من الهجرة - عام ٥٦ من ميلاد محمد .

لم تضعف الهزيمة من مركز محمد . فقد أرجع المسلمون سببها إلى عصيانهم لأمره . وظلوا يكونون له نفس الوقار ، وظلوا يعتبرون رغباته قوانين تنفذ . فقد كان ملكاً وزعيماً دينياً في المدينة ينظم شعور الحكومة وأمور الدين معاً . وجاءه مندوبون من عضل والقارة [وهما قبيلتان من الهون بن خزيمه بن مدركة] يطلبون عدداً من المتفقيين المسلمين ليعلموهم الإسلام ، فأرسل معهم ستة (٢) . غير أن الكفار الخبيثاء قتلوا منهم أربعة (٣) ، وباعوا اثنين منهم إلى قریش فقتلتهم . وكان أحدهما هو خبيب قد قتل الحارث يوم بدر (٤) فاشتره أبناء الحارث ، وفرحوا بأنهم ظفروا بضحية يقدمونها قرباناً لروح أبيهم ، ودعوا كل العائلة لكي يشهدوا قتله . وكان خبيب مكبلاً بالسلاسل في أحد أركان الدار ينتظر ساعته الأخيرة . وكان قد حصل على موس من إحدى بنات الحارث لكي يحلق رأسه ، وفي نفس اللحظة أفلت طفل صغير من بين ذراعي أمه الغافلة [وفي ابن هشام أن (ماوية) هي التي أرسلت الغلام بالموس لسذاجتها] واقترب من الأسير فأمسك به بين رجليه وفي يده السلاح الحاد

(١) [الرجيع] ماء لهذيل يصدر الهدة بين مكة وعسفان . والهدة على بعد سبعة أميال من عسفان . وقال أبو

الفدا : علي أربعة عشر ميلاً من عسفان (أبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩)

(٢) أبو الفدا [١٣٩] الفصل الثالث والثلاثون ص ٦٩ .

(٣) [هم مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق . والآخران هما خبيب وزيد

بن الدثنة (أبو الفدا . ص ١٣٩)]

(٤) البخاري في رواية لأبي هريرة . [ج ٥ ص ١٣٢ - ١٣٣ دار الشعب .]

وعندئذ تجمدت الأم من الرعب ولم تنطق بكلمة . فقال لها « الأسير الا تخافى أن أذبح ابنك ؟ اطمئنى فإنى لا أقبل أن أنتقم من طفل يرىء » ثم ترك الطفل .

غير أن هذه السماحة لم تنقذ حياته (١) . وكان جميع الأقارب قد تجمعوا فاقْتيد خارج أرض الحرم لقتله . ولما وصل إلى مكان الإعدام طلب أن يمهله لحظة لكي يصلى . فأجيب لطلبه . فصلى ركعتين خفيفتين وقال (لولا أننى أخشى أن تقولوا إنما أخاف الموت لأكثر من الصلاة أضرَبوا..) وهكذا كانت نهاية مبعوثى الإسلام الذين أرسلوا تحت إلحاح أهل «القارة» .

[بئر معونة (٢) : فى صفر سنة ٤ : هـ]

ولقد جعلت هذه الخيانة محمدا أكثر حذراً (٣) . فعندما عرض عليه عامر بن مالك [ابن جعفر ملاعب الأسنة] أن يرسل عدداً من أتباعه إلى أهل نجد رفض . ولولا توسط أبى بكر لما رجع عن عزمه . فقد خدع عامر أبى بكر وجعله يتقدم ويضمن إخلاص عامر . فلم يستطع محمد أن يرفض رجاء أبى بكر وأرسل معه المنذر بن عمر الأنصارى ومعه سبعون من المسلمين (٤) . ولما وصلوا إلى بئر معونة [ابنى سليم] أرسل المنذر [بن عمرو الساعدى] رسائل النبى إلى عامر [بن الطفيل] أمير الإقليم . ولكن عدو الإسلام قتل الرسول [حرام بن ملحان] وجمع فرقة من الأجناد وفاجأ المؤمنين وأبادهم ، ولم ينج منهم سوى كعب بن زيد الذى تركوه بين الموتى [مُثَخَّنًا بجراحه] فحمل إلى المدينة نبأ هذه الخيانة . فحزن محمد

(١) العرب لا يغفرون قتل ذوى قرباهم : والأمهات يرضعن مع اللبن الحقد لأولادهن . وما أن يشتد عودهم حتى يلهمهم الرغبة فى الثأر . وبالقرب من الجزيرة على بعد فرسخ من القاهرة، احتفظت امرأة برأس زوجها القتيل، وظلت كل يوم تبللها بدموع أحزانها وتعرضها على ابنتها الوحيدة وتقول « يا بىتى ألا تنظرى الى هذه الرأس إنها رأس أبىك المقتول بيد رجل مجرم . ولو كان لى ولد لأخذ بشأرى ولها بذلك حزنا وعارنا فأدى تكرار هذه الشكوى علي مسمع الفتاة الى حفر أثر عميق فى قلبها فكانت تبكى مع أمها وترتعد عند ذكر اسم القاتل ، وطفئت عندها الرغبة فى الانتقام علي ضعفها وحيائها، فتكرت فى زى رجل خادم ودخلت بيت قاتل أبيها فخنقته وهونائم بين أهله .

(٢) [هو ماء من مياه بنى سليم يقع بين أرض بنى عامر وحره بنى سليم كلا البلدين يعد منه . وهو بناحية المعدن وهو أقرب إلى حره بنى سليم .]

(٣) أبو الفدا : الفصل الخامس والثلاثون ص ٧٠ [ص ١٤٠ - والطبرى ٥/٢ ص ٥٤٥] .

(٤) [البخارى ٥/١٣٤ وقال أبو الفداء : أربعون (أبو الفدا ص ١٤٠) .]

حزنا شديداً وأجل الإنتقام إلى وقت آخر .

[تعقيب]

[وقال أبو الفداء : إنما حمل الخبر إلى النبي عمرو بن أمية الضمري وقد أعتقه
عامر بن الطفيل لكونه من مصر (أبو الفداء ص ٤٠ والطبقات ٣٧/٢) .]

[اجلاء بنى النضير^(١) : ربيع أول سنة ٤/هـ .]

وفى شهر ربيع الأول طلبت قبيلة بنى النضير - وهى من أقوى قبائل اليهود - إلى محمد أن
يدفع إليهم فدية رجلين قتلها عمرو (ابن أمية الضمري) وهو يمر بأراضيها .

[وهو منصرف من الوجه الذى كان رسول الله ﷺ وجهه اليه مع أصحاب بدر
معوثة . وقد كان القتيلان من بنى عامر بن الطفيل حلفاء بنى النضير وقال الطبرى
كان لهما جوار وعهد فطلب عامر بن الطفيل ديتهما : ج ٥٥١/٢ .]

فسمع محمد الشكرى واستجاب للقانون . ولتقوية الصلح دعت القبيلة محمداً إلى وليمة
فى إحدى دور الريف . وذهب الى هناك وفى صحبته أبو بكر وعمر وعلى وبعض قواده (٢) .
ولقد كانت مكيدة بقصد القضاء على حياته . إذ كان اليهود قد جمعوا أحجارا كثيرة
على سقف الدار لكى يلقوها عليه أثناء المأدبة (٣) فقضى عليه هو وأصحابه فشم محمد
رائحة الحيانة وخرج من الدار بحجة قضاء بعض حاجاته .

[والكاتب ينكر ما قاله كتاب السيرة من أن النبي عرف من السماء خيانتهم (٤) ثم
قال :] وعاد مسرعاً إلى المدينة ثم حضر ومعه قوة لمهاجمة الخونة . وبعد أن طاش سهم
اليهود، أسرعوا يجتمعون فى أحد الحصون . فحاصروهم محمد وأحدث تلفاً حول الحصن. ولما

(١) أبو الفداء ص ٧١ - (ص ١٤٠ والأنوار المحمدية ص ٧٩)

(٢) أبو سعيد فى كتاب الأنوار [وقد أورد القصة يوسف البهاني فى كتاب الأنوار المحمدية ص ٧٩ . وفى
الكتاب أن النبى خرج يستعينهم فى دية الرجلين فقالوا انعينك على ما أحببت ، وهكذا قال الطبرى
٥٥١/٢ .]

(٣) [لم يكن هناك مأدبة ولكنه ﷺ كان جالساً بجوار جدار لهم (الطبرى ٥٥١/٢)]

(٤) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٦٧ والأنوار المحمدية ليوستف البهاني ص ٨٠ .]

رأى اليهود نخيلهم يقطع خارت شجاعته . وخوفاً من أن لا يستطيعوا الصمود لإحدى هجمات المسلمين ، سلموا أنفسهم طواعية بعد حصار دام ستة أيام (١) . ولكي يعفو عنهم الرسول سمح لكل منهم أن يحمل من ثروته ومتاعه حمولة بعير .

[الفرق بين الغنيمة والفيء]

وخالف النبي قانون الغنيمة الذي كان ينص على أن يأخذ منها الخمس ، فاحتجز الغنائم كلها لنفسه [٢] ونصت سورة الحشر على هذا المبدأ . ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذی القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

[تعقيب]

[هكذا صور الكاتب عمل النبي في الفيء وتجاهل الفرق ، فالنبي يأخذ الخمس من الغنيمة التي تغنم من الكفار في معركة وقع فيها قتال فعلي ، وفي هذا نزلت الآية ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ﴾ الأنفال . وأما هنا حيث لم يقع قتال فعلي ، وإنما استسلم الكفار للإنذار بمجرد الحصار فالأمر له حكم آخر : هو الذي نزل في سورة الحشر . وهو دخول الفيء الذي يحصل عليه من الكفار بيت المال لينفق منه على كافة مصالح الدولة والأفراد بما فيهم الجنود - وهذا هو الذي قرر الكاتب فيما يلي]

وبعد أن أحمد الوحي الإلهي طموح جيشه اتجه إلى إنجاز أعمال إنسانية . فمنذ أربع سنوات ظل إخلاص المكين وتفانيهم بلا جزاء - وهم الذين تركوا أموالهم وأهليهم ليتبعوه - فوزع على هؤلاء الأتباع الأوفياء وعلى رجلين فقيرين من الأنصار [وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة] كل الغنيمة التي استولى عليها من بنى النضير (٢) . وصدق باقي الجيش لهذا العمل الذي يتسم

(١) أبو الفدا : ص ٧١ [ج ١٤٠] والآنوار المحمدية ص ٨٠ وفي الطبراني حاصرهم ١٥ يوماً ج ٢ ص ٥٥٣ .

(٢) أبو الفدا ص ٧٢ [ص ١٤٠] .

بالعدل .

[التصفيق تعبير كثنائي عن الإعجاب . فهو صورة للإعجاب في الغرب وفي الذين يأخذون بأسلوبه . بينما الواقع أن الصحابة لم يقع منهم تصفيق . ولكن وقع الإعجاب النفسى والسعادة القلبية والرضا العام بأمر الله وحكمته] .

[تحريم الخمر]

وفى نفس العام حُرِّم تعاطى الخمر . إذ كانت صعوبة الحصول عليها فى الجزيرة العربية ، وآثار هذا المسكر على طبيعة العرب الثائرة ، والمشاهد المؤلمة التى وقعت تحت نظره نتيجة حالات السكر ، قد دفعته [١٩] إلى إصدار هذا القانون ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون ﴾ (١) ٩

[وهكذا يجرى الكاتب على طبيعته فى تقديره أن القرآن قرارات الرسول أملتها الظروف وحدها وليس وحياً من الله منزلاً . وقد سبق الرد على ذلك فى آخر الفصل الأول من الباب الأول] .

[غزوة ذات الرقاع (٢) : جمادى الأولى سنة ٤ هـ]

كان محمد (٣) قائداً للجيش ومشروعاً بالتناوب . وكان يعقب إجراءات الحكومة السلمية بصلصلة السلاح ، وكانت خيانة أهل نجد لازالت تحز فى نفسه ، وحن وقت الانتقام (٤) فخرج من المدينة فجأة وهاجم فريقاً من غطفان على غرة . فولى

(١) القرآن .

(٢) [وقعت بأرض غطفان فى نجد بموضع يسمى نخلا ، وكان بها شجرة يتبرك بها ، وتعلق الرقاع عليها وتسمى ذات الرقاع ، وقيل سميت المعركة كذلك لأن المسلمين رقعوا فيها راياتهم وقيل : لأنهم لفوا أرجلهم بالخرق حين أدامها حصى الأودية] .

(٣) أبو الفدا ص ٧٢ - [١٤٠ - والطبرى ٥٥٥/٢] .

(٤) [لم يأت ذكر الانتقام فى المراجع . ولكن فى الأنوار المحمدية كان النبى يريد بنى محارب وبنى ثعلبة لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع لغزوه فخرج فى أربع مائة وقيل سبع مائة واستعمل على المدينة عثمان ==

العدو دبره واحتمى بالجبال . وسمى الوادى الذى تقابل فيه الفريقان « بذات الرقاع » (مكان الإعجاب بالنفس) الذى نقل إلى الأجيال التالية ذكرى هذا الذعر العنيف . وأثناء هذه الغزوة تقدم رجل شجاع من غطفان إلى قومه ، وعرض عليهم أن يأتيتهم برأس عدوهم المشترك ، فصفق الناس وأيدوا هذا العزم وشجعوه . فانطلق الرجل وأخذ يتربص بمحمد حتى سنحت لحظة أخذ فيها التعب من محمد حظاً فجلس على مقربة من جيشه . فأقترب الرجل منه وهو أعزل وكان سيف محمد إلى جواره^(١) . وكانت قبضة السيف مصنوعة من الفضة المنحوتة^(٢) فاستأذن الغطفاني محمداً في أن يريه السيف .

وما أن أمسكه بيديه حتى أخرجه من غمده وأسرع ليضرب به محمداً . فنظر إليه محمد بثبات دون أن يضطرب . فدهش القاتل من هذا الهدوء ، وأوقف ضربه . ثم تظاهر بأنه لم يكن يقصد إلا المزاح وسأله قائلاً « ألم تخف » فأجابه محمد « وما عسى أن أخاف منه ؟ » فخلد العدو وأعاد إليه سيفه وعاد أدراجه من غير أن ينفذ شيئاً^(٣) بما نوى .

[غزوة بدر الآخرة : فى شعبان سنة ٤ هـ]

وبعد أن فرغ من هذه الغزوة ، فكر محمد في أن يفى بالوعد الذى أعلنه ببدر ، فذهب

== بن عفان (ص ٨٠) ولكن الكاتب يريد أن يصور النبى في صورة مغايرة للمثل القرآنية التى فى ثنايا الكتاب المرحم كقوله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

(١) أبو الفدا ص ٧٣ [١٤٠ والطبرى ٥٥٧/٢ و ٥٥٨ وابن هشام ١٨٣/٢] .

(٢) جناب ص ١١٩ .

(٣) ينسب الكتاب العرب ذلك إلى الإعجاز ويقولون : ان الله قلب عدو رسولهم أرضاً . هل كان هناك ما يدعو الى تدخل السماء ؟ ان ثبات محمد والموت المعلق فوق رأس القاتل إذا أخطأ ضربه وآلاف من الاعتبارات الأخرى ، ألم يكن فى ذلك كله ما يمنع القاتل ؟ ولكن المتحمسين لا يسمعون للعقل فكل شيء عندهم من الأعاجيب . [وأعجب مما قاله سفاري أنه يتجاهل عظمة الثبات الرائع من محمد فى الوقت الذى يتخلع فيه قلب كل شجاع . ان هذا الثبات فى ذاته آية من آيات الكمال للشخص المثالى ليس لها نظير . بل إنه عمل خارق للعادة أثى ثماره بأكثر مما يتوقعه أو يتصوره إنسان . وتلك نعمة من نعم الله ومكرمة ساقها الله لنبيه] .

وعسكر هناك في شهر شعبان (١). وكان عدد جيشه ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان على يحمل لواء الدين ، وانتظر محمد أباً سفيان ثمانية أيام . وكان قائد قریش قد خرج من مكة إلا أنه كان يخشى المغامرة في معركة ثانية فلم يجرؤ على التقدم نحو بدر . ومل محمد الانتظار فعاد بجنوده إلى المدينة . واحتفل على بميلاد ابن ثمان سمي « الحسين » .

[غزوة الخندق : في شوال وذى القعدة سنة ٥ هـ]

[تحريض اليهود للمشركين]

وكان بنو النضير الذين طردوا من قلعته قد لجأوا إلى خيبر إحدى معاقل اليهود، وأنذروا حلفاءهم بالخطر ، فقد كانوا رمزاً للدمار الذي سيلحق بالأمة إذا لم تتحد ضد عدوها المشترك . وكان كثير من اللاجئين قد حملوا إلى مكة الآثار المخزنة لقوتهم الغابرة . ويدافع من ذكريات نكبتهم الأخيرة أخذوا يصورون محمداً بأنه طاغية يستخدم ستار الدين الوقور ليحقق أطماعه. وكانوا يصورون قبائل العرب حول مكة وقد خضعوا وذلوا ، و« بنى النضير » وقد طردوا من أراضيهم ، والمتنصر الذي لا ينال منه التعب وهو على استعداد لأن يكبل العرب جميعاً بالحديد ، هذا الشعب الكريم والوحيد من بين أمم الأرض الذي لم يعرف بعد معنى السخرة ، وذكروا لقریش الإسلام المنتصر وأوثانهم المغلوبة وسلطانهم المدفون تحت هياكلها إذا لم يبادروا بضم أسلحتهم إلى أسلحة حلفائهم للقضاء على عدو الوطن والحرية والدين ، إن صدق [١٤] هذه المشاهد قد أخذ بالألباب . فوعد القرشيون بضم فرقهم إلى قوات اليهود وتجمعت شعوب أقاليم نجد وتهامة وقد حركهم الدافع المشترك بالإضافة إلى رغبتهم في الانتقام لاهانتهم الأخيرة . تجمعت كل هذه الأجناد واتحدت واستعدت للسير في اتجاه المدينة.

عام ٦٢٢٠ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفدا - عام ٦٣٥ من ميلاد عيسى - العام الخامس من الهجرة - عام ٥٧ من ميلاد محمد .

(١) أبو الفدا ص ٧٣ ، [١٤١/١] ..

[حفر الخندق]

لم يكن محمد ليخلد إلى النوم وقد علم عن طريق عيونه بالتجهيزات الهائلة التي كانت تنظم ضده ، وكانت استحالة مقاتلة كل هذه القوى البالغة التفوق من حيث العدد قد جعلته يميل إلى فكرة الاحتماء داخل أسوار المدينة . ولكن سلمان (١) الفارسي الذي كان محل ثقة كبيرة - نصحه بأن يحفر خندقاً حول التحصينات ليصد هجمة الاعداء الاولى . فأقر النصيحة . وفي لحظة كانت كل المدينة تبأثر عملها . فكان لا يسمع في أرجاء المدينة الا ضجيج المطارق وأصوات العاملين (٢) . كانت التربة مليئة بالأحجار ومستعصية على الحفر وكانت هناك صخرة بالغة الصلابة تقاوم ضربات العاملين المجدين وتخدم ماثرتهم . ولما لاحظ محمد يأس العمال أخذ قدراً من الماء في فمه ورشه عليها فلانت وخضعت لضربات المطارق المتكررة . ونسب المسلمون ذلك إلى الإعجاز وإلى مفعول تلك القطرات المباركة ، ويتمرجع نجاحهم إلى مجهوداتهم المتجددة . ولقد كان هذا موقف « هانبال » عندما كان يشق لنفسه طريقاً عبر جبال الألب ولقد جدّد نشاط جنوده وشجاعتهم بأن سكب خلا على الصخرة التي كان يريد شقها ، فالرجل العظيم هو هو في كل مكان يستطيع دائماً أن يذل العقبات التي تعترضه وأن يخضع الطبيعة إلى جهوده . والإغراء الذي لا يقاوم والذي يعول عليه في صنع

(١) سلمان هذا هو ابن حاكم لمدينة فارسية . وبعد أن سافر إلى بلاد كثيرة ذهب إلى الجزيرة العربية واعتنق الإسلام بعد أن افتتن ببلاغة محمد [؟] وساعد محمداً بتبائحه وخدمه من أجل مجده العسكري (ابن اسحق) ولقد التبس هذا الاسم على الدكتور بریدو Prideaux مع اسم عبد الله بن سلام أحد زعماء اليهود فقال : إنه يرجع إلى عبد الله بن سلام بعض الفضل في نجاح محمد . إن الحدس والتخمين الذي يعتمد عليه هذا العالم في كتابته يوقعه كثيراً في مثل هذا الخطأ .

[وهذا مظهر للحقد الذي يعمي المستشرقين عن الحقيقة . فإذا كان سلمان فارسياً وابن أحد حكامها وطوف في بلاد كثيرة قبل أن يصل إلى الجزيرة فأني له إجادة العربية إجادة تمكنه من الإلمام ببلاغتها على النحو الذي يأمر الأديب ؟ وكيف خنك في السياسة جواب للآفاق اعتداد أن يز ن الفكرة بالمنطق الدقيق أن يدع منطق السياسة والتجربة إلى سحر البلاغة ومجرد جمال الأسلوب والخيال ؟ أليس الأولى بالصدق هو ما أجمع عليه المؤرخون من أن سلمان كان عظيماً يبحث عن الدين الحق فوجده عند محمد بعد طويل تطوافه فأمن به إيمان الخبير الباحث المنقب]

(٢) أبو الفدا ص ٧٤ [١٤١] .

المعجزات هو تأكيد النصر الذى يسكر به قلوب الناس.

[الأمل العريض]

وبينما سكان المدينة يعملون تحت شمس حارقة مقتدين برئيسهم (١) لإقامة سد منيع أمام أعدائهم ، استلقت انتباههم معجزة أخرى . فقد كان سلمان يجتهد فى تكسير صخرة ضخمة ، فإذا بمحمد يأخذ المطرقة منه بيده ويضرب الصخرة ثلاث ضربات فخرجت منها ومضات فسأله سلمان « ما تعنى هذه الومضات ؟ » قال النبى : الومضة الأولى تعرفنى أن الله سيخضع لسلاحه اليمن السعيد ، والثانية تنبئ بسقوط الشام والمغرب ، والثالثة بسقوط المشرق (٢) .

إن هذا التفسير لا يقل طرافة عن تفسير هذا المقاتل الذى سقط على الأرض وهو ينزل من السفينة إلى شاطئ الأعداء وهو يقول : « أيها الرفاق إن هذا البلد لنا لقد امتلكته توأ » .

[تعقيب]

[ونسى سفارى الفرق بين الأمرين وهوان محمد ﷺ تحققت نبوءته فى أقل من نصف قرن] .

[حقاً : ذكر البخارى قصة الصخرة وقال « فأخذ النبى ﷺ - المعول فضرب الكدية فعادت كثيباً أهيلاً ، ولم يذكر التنبأت بالفتوح . ولكن وقوع هذه الفتوح يدل على أحد أمرين : إما ان أحداث هذه الفتوح جاء مصداقاً لقول النبى ﷺ وإما أن الحديث المروى عن الرسول مجرد تصوير صادق لواقع الفتوح . والنتيجة واحدة . وهى أن أمل المسلمين الصادقين فى أشد الضيق تحقق فى أعرض صورة بعد قليل . فغاية الحديث - صحت الرواية أم لا - هى بعث الأمل فى نفوس المجاهدين فى أظلم الأوقات وأقسى ما يجدون من صور الحياة . فهو أسلوب للتربية يمكن أن يذكر لمن يغلبون جانب

(١) اذا صدقنا الكتاب المسلمين فان نبيهم أطعم جميع العاملين بالحندي بسلة من البلح الذى تكاثر عدده بين يديه . وفى مرة أخرى أطعمهم بحمل مشوى ورغيف من الشعير فشبع منه ثلاثة آلاف رجل .

(٢) أبو الفداء ص ٧٥ [١٤٢] .

المادة ، ولمن يغلبون منطق الايمان بالغيب فى صورتين من التعبير] .

[وحدات جيش العدو]

وما أن انتهى حفر الخندق حتى ظهرت الأحزاب . قريش - وقد انضمت اليها كنانة - فتكون منهم جيش يتألف من عشرة آلاف مقاتل . وسار بالقرب منهم غطفان وأهل نجد . وتكونت المؤخرة من قريظة بقيادة كعب بن أسد [القرظى] وغطت الخيام والاعلام ضواحي المدينة (١) . وعكست الخوذات والدروع أشعة الشمس من بعيد وكان هناك غابة من الرماح قد خرجت فجأة من الأرض . فألقى هذا الجهاز الحربى الرعب بين المسلمين (٢) . فالتزم بعضهم الصمت والبعض الآخر أخذ يهيمهم . وشرع المشركون الذين كانوا لايزالون فى المدينة ينطقون بعبارات التبكيت وصاح [معقب بن قشير - أحد بنى عمرو بن عوف] - وهو من أشد الحرضين - قائلاً فى وجه ذوى النفوس المريضة [كان محمد يعدنا منذ لحظة بكنوز كسرى وهرقل وقبصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط] .

[توزيع القوة الاسلامية]

كان قائد المؤمنين راسخا وسط صخب شعب مذعور يضرب لهم المثل الأعلى فى الصبر والجلد . وكانت السكينة تضىء جبينه وهو يصدر أوامره فى هدوء مدهش . وبعد أن أسلم زمام حكم المدينة الى ابن أم مكتوم خرج من المدينة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل وزعيم بين التاريس والخندق . وقرر الانقضاض على الأعداء لحظة محاولتهم عبور الخندق . واتخذ موقفاً حصيناً للدفاع . وبذلت الأحزاب عدة محاولات لاقتحام الخندق ولكنهم ردوا خاسرين (٣) فحاولوا السيطرة على المدينة من الجانب الذى توقعوا أن تكون الحراسة فيه ضعيفة ، فقضى على محاولتهم بأرسال نجدة فى الوقت المناسب ، أخذ الحصار يبدو طويلاً ومملأً واقتصرت الحرب على التراشق بالنبال والسهام .

(١) أبو الفداء : ص ٧٦ - [ص ١٤٢] .

(٢) توضح سورة الأحزاب الآية ١٠ مشهداً رائعاً لهذا الذعر ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .

(٣) أبو الفداء [١٤٢] [والأنوار الحمدية ٨٤] .

[بين على وعمرو بن عبدود]

ولقد دفع الملل ببعض فرسان قريش إلى تجربة قوة خيولهم فانطلقوا بها بكل سرعة وعبروا الخندق . فسار علىّ للقائهم ، ولما تعرف عليه عمرو قال له : يا ابن العم كم يكون سرورى عندما أطرحك أرضاً ، فرد عليه على قائلاً كلا والله سيكون فرحى أكبر عندما ألقى بك تحت أقدامى^(١) ثار عمرو [بن عبدود] ونزل عن فرسه وقطع عراقيب أرجل حصانه واتجه إلى علىّ . وأخذ المتقاتلان يحدقان ببعضهما فى محاولة لمفاجأة أحدهما الآخر ، ثم ازداد قريهما وتبادلا الضربات بشدة ، وثارت سحابة من الغبار اخفتها عن أنظار الجيشين ولم يعد يسمع سوى صليل سيفيهما وضجيج الدروع . وتحقق النصر لعلى ولما اختفى الغبار ظهر المنتصر وقدمه على عدوه وهو يغرس السيف فى عنقه. أما الفرسان الباقون فقد لاذوا بالفرار وسقط أحدهم فى أعماق الخندق وقتله على .

[إنسحاب الأحزاب]

وبعد حصار دام عشرين يومارأت الأحزاب أن جهودهم قد باءت بالفشل ، ودب اليأس فى نفوسهم من النيل من المسلمين وهم وراء تحصيناتهم . وانتشر النزاع فى معسكرهم فغذاه محمد عن طريق جواسيسه . وفكرت الأحزاب فى الإنسحاب . وهبت رياح من الجنوب الشرقى اقتلعت نيامهم وقدمت لهم المبرر للإنسحاب . وتفرق اليهود أولاً . واحتلت بهم قريش وغطفان . وبعد أن تأكد محمد من انسحاب الأحزاب عاد مع جموعه إلى المدينة .

[غزوتى قريظة : فى ذى القعدة سنة ٥ هـ]

وتوقع المسلمون أن يصيبوا شيعاً من الراحة بعد نصبهم فوضعوا عدة الحرب وفكروا فى الاستمناح بين أهلهم بعدوبة السلام [بل لم يفكر فى هذا إلا سفارى] . ولكن ذلك لم يكن فى نية نبيهم . فقد كان يريد أن يحقق انتصارا عاجلاً لكى ينسيهم ما تكبدوه من باهظ الأعمال وما تحملوه من الآلام . وكان بنو قريظة قد ألبوا عليه جزءا من سكان الجزيرة فكان ينبغى توقيع العقوبة الرادعة على مثل هذا التصرف الخطير . وكما جرت عادته جعل السماء تتكلم [هكذا عادة الكذاب سفارى] وكان قد وضع سلاحه عند شروق الشمس ، وفى

(١) أبو الفدا ص ١٤٢ وجناب .

الظهير أمره جبريل بأن يحملها من جديد ، وأمر نذير الحرب بأن ينادى بهذه الكلمات « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا بنى قريظة (١) » وبعد نشر الأمر وأعلانه أخذ يخطط للحملة مع علي . وانطلق على الفور يتبعه من كان مستعداً من المسلمين (٢) ، وضرب عسكره فى بئر « أنا » (أى إناء الماء الصافى) وهى عيون كانت تمكّلها اليهود ، وأخذ جنوده يتوافدون تباعاً إلى هناك وقبل غروب الشمس كان الجيش كله قد لحق بالقائد .

[ومن الصحابة من وصلوا بعد العشاء الآخرة بسبب انشغالهم ببعض أعمال حربية هامة - كما قال ابن هشام (٣)] .

وبدأ السير فى اليوم التالى وذهب يضرب الحصار حول قلعة بنى قريظة . فدافعوا ببسالة وشنوا عدة معارك تحت أسوارهم ولكن علياً - المدفع - ومن خلفه فرقة من خيرة المسلمين كان يردهم بقوة . فألقت هذه البطولات الرعب فى قلوب اليهود ، ولم يجرؤوا على أن يخرجوا بعد ذلك من حصنهم . ومالبت الخوف من أن يروا أنفسهم مغلوبين ، أن أطار مابقى من شجاعتهم فى الدفاع عن أنفسهم - ولقد أوضح لهم كعب بن أسد - حليفهم - مغبة أمرهم واقترح عليهم أن يعترفوا بمحمد كئيب ، بشرت به الكتب السابقة وأن يسلموه فلعنتهم على أن يستبقى حياتهم . فاتبع اليهود هذه النصيحة الفاسدة [٤] وبعد حصار دام خمساً وعشرين يوماً سلموا أنفسهم طواعية (٤) فاختر محمد - الذى كان يريد ابادتهم - سعد بن معاذ - أمير الأوس حكماً فى مصيرهم . وقبلوا العرض بسرور آملين فى معاملة أفضل من جانب أحد الحلفاء . ولكن المساكين كانوا يجهلون أن سعداً - وقد جرح جرحاً خطيراً فى حصار المدينة - كان يكره اليهود مدبرى هذه الحرب وكان يتمنى دمارهم التام (٥) .

وذهب البعض لاحتضار سعد فحمل بصعوبة إلى مكان الاجتماع . فقال له بنو قريظة « يا سعد يا أباعمر وكن رحيماً وكريماً مع حلفائك » كانت العيون كلها متجهة إلى سعد وساد

(١) جناب ص ١٣٠ [وكذا روى ابن هشام تهذيب السير ٣٠١/٢ ، وروى ابن عبد البر فى الدرر/ ١٨٨]

« لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » [

(٢) أبو الفدا ص ٧٧ [ج- ١٤٢] . (٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٠٢ .

(٤) أبو الفدا ص ٧٨ - [ج ١٤٣] . (٥) أبو الفدا [ج- ١٤٣/١] والانوار الحمديّة ٨٦-٨٧ .

الصمت انتظاراً لسماع القرار الذى سيصدره . عندئذ تصنع [!!؟] أمير الأوس الجد ، وكان لا يزال يتألم من جرحه وقال « يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسىب الذرية والنساء » فصاح محمد قائلاً [لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (والرقيع هي السماء)] ووضع القرار موضع التنفيذ فى الحال (١) فقتل الرجال وعددهم سبعمائة أما النساء والذرية وكل أموال بنى قريظة فقد صارت غنيمة للمتصرين .

[زواج ريحانة]

وكانت ريحانة أجمل نساء اليهود [هي بنت عمرو بن خفاقة] - من نصيب محمد . وكان الحزن لما أصاب قومها قد ملأ قلبها فكانت تحقد على المدبر . ولكن هذا الحقد لم يصمد طويلاً أمام فكرة أن تصبح زوجة للنبي (٢) فقد أكل الزهو عقلها وأفسد الطموح قلبها فأسلمت لكى تتزوجه .

[تعقيب]

[هكذا يفسرذو النيات الخبيثة تصرفات غيرهم طبقاً لما فى نفوسهم هم . فليس هناك دليل يثبت أن ريحانة قد أسلمت غير مخلصه وباقتناع بعد مخالطتها للنبي وبعد التعرف على الإسلام من قرب . فقد كان النبي ذا زوجات غيرها ، وما كان له فيها حاجة ، ولا لديها من أسباب الطمع فى الزواج بها أية شية . إن المستشرقين يصرون فى فكرهم من نافذة الكفر بإنسانية الانسان ، والايما بحيوانية الجسد . ولذلك فإن رد التصرفات إلى المثل العليا والتسامى بالنفس والروح موضع ريبة وشك عندهم] .

[زواج زينب بنت جحش : سنة ٦٢٦ م]

كان محمد كلما رجع من إحدى الغزوات ، يخطط لغزوة أخرى . فقد كان دائم الاهتمام بتثييت دينه وبسط سلطانه . ولما كانت مشاغل الحكم تحتجزه فى المدينة ، فإنه كان يرسل فرقاً من قواته لتلقى الذعر بين أعدائه وتعود محملة بالغنائم . أما الوقت الذى كان يتبقى له بعد

(١) أورد القرآن ذكر هذه الغزوة فى سورة الأحزاب الآية ٢٦ ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ .
(٢) وجناب [وأبو الفدا ص ١٤٣] .

هذه المشاغل الدائمة ، فقد كان ينفقه فى زيارة رفاقه فى السلاح [٩] وأصدقائه . وذات يوم ذهب الى بيت زيد - ابنه بالتبنى - فى وقت كان زيد غائباً ورأى زوجته زينب (١) والى كانت أجمل نساء قريش وكانت تضم إلى الجمال نعمة الحكمة والذكاء . كل هذه المقاتن كانت منذ وقت طويل قد تركت أثراً عميقاً فى قلب محمد [١٠] ، ولكن فى تلك اللحظة بدت له زينب رائحة الجمال ، وهى ترتدى ملابس خفيفة تكاد لا تخفى بياض جسمها وشكله - بحيث خانه سره وصاح قائلاً « سبحان مقلب القلوب » . وانسحب بعد أن نطق بهذه الكلمات ، ولكن زينب لم تنس تعجب محمد ونقلت عبارته إلى زوجها . ولما كان زيد رجل سياسة فقد طلقها ، وبعد انقضاء العدة انتقلت الى فراش محمد ، لقد أثار هذا الزواج كثيراً من الهمس فقال المسلمون [بل المشركون] إن محمداً تزوج امرأة ابنه . وعلى الرغم من الوليمة الفاخرة التى دعى اليها كبار المواطنين فى المدينة وقدمت فيها اندر المأكولات وأذكى العطور، فإن هذه الشائعات لم تتوقف . مما اضطر محمداً الى الالتجاء الى السماء وأنزل [١١] سورة الأحزاب حيث نقرأ الآية التالية ﴿ واذا تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

[التعقيب]

[لم يكن سفارى فى هذا الاتهام للنبى بدعاً من المستشرقين والمبشرين . ومن أشهرهم الراهب فيدرو ريو الذى سمى زيدا (سيدروس) وردد ما قاله سفارى وما قاله ر.ف بودلى ، فى كتابه عن الرسول (حياة محمد) ص ٢٤٠] .

[وقد رد العقاد على اتهامات المستشرقين بأن زينب ما كان جمالها خفياً على محمد ﷺ قبل أن يزوجها مولاه زيدا لأنها ابنة عمته يراها من طفولتها وتراه ، فدعوى أنها فاجأته برائع جمالها أسطورة مخرفين . . وقالت أنى « بيزانت » : [إن الرجل الذى تزوج وهو فى عنفوان الشبيبة (٢٤ سنة) بأمرأة تكبره فى السن إلى مدى بعيد

(١) جناب [والطبرى ٥٦٢/٢ - ٥٦٣] .

وببقى وفيّاً لها ستاً وعشرين سنة لا ينقلب شهوانياً بعد الخمسين . (١) .]

[ثم إن زواج النبی بزینب مثل عال للشهامة . وضرورة تشريعية ، فالعرب يحرمون زواج الرجل بزوجة من تبناه يوماً من الأيام ، فكان لابد للنبي أن يكون القدوة لهم في كسر ذلك القانون العرفي السائد .]

[كما أن تبرم زينب بالحياة مع زوجها ، وخجل زيد من أن يطلق امرأة لها صلة القربى الشديدة بحبيبه ، وضع النبي في موقف حرج لا خلاص منه إلا بأن يأذن لزيد في طلاقها ، ولا يجبر خاطرهما بعد أن أصبحت مطلقة إلا زوج كفاء ، والكفاء للمرأة يكثر وهي بكر ، ويندر وهي مطلقة فلم يكن لأب صدع كرامتها وسيلة إلا زواج النبي بها ، لأنه هو الذي كان قد أمرها بالزواج من قبل زيد . فنزلت على إرادته دون إرادتها . تلك هي ملابسات القصة تنضح بالشرف والأريحية ، لا بالغم والنزعات الشهوانية] .

[وقد كان الرسول شاباً قوى البدن جميل الصورة ، وقد ولد ونشأ في بيئة إباحية في النساء ، فكان المثل الأعلى في العفة وتجنب كل الملاذ والشهوات إلى حد أنه هجر مجالسها التي تشتمل على اللهو والخلاعة حتى أصبح قديساً يدعى الصادق الأمين . فهل يصدق العقل أنه حينما انقضى شبابه ودخل في سن الشيخوخة تنقلب طبيعته ليصبح شهوانياً كلفاً بالنساء وبخاصة بعد أن ينصبه الله لإرشاد الناس ويسن لهم قواعد العفة والبعد عن الشهوات الضارة ؟ وكيف يفسر لبثه مع خديجة وحدها في سن الشباب والمال حتى تصرم عنه الشاب والمال إذا قلنا : إنه بعد ذلك أصبح أسير الجنس ؟ ولماذا يعزف عن الزواج بها وهي بكر فيزوجها باختياره أحد جنوده ثم يشتهيها ثانياً ؟ كل هذه أمور تجعل إتهام المستشرقين ساقطاً شر سقطة] .

[ثم قال سفاري]

قضى هذا القانون على كل الشائعات ، ورأى زيد - المجامل - أن اسمه قد كتب في القرآن . وهو الوحيد من بين صحابة محمد الذي نال هذا الشرف .

(١) [مجلة الأزهر ص ٧ ص ٦٧٦] .

[سرية (١) محمد بن مسلمة إلى القرطاء ١٠ المحرم سنة ٦ هـ]

[القرطاء : بطن من بنى بكر من كلاب كانوا ينزلون التكرات بناحية ضربة وبين ضربة والمدينة سبع ليالٍ] .

عام ٦٢٢١ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفدا - عام ٦٣٦ من ميلاد المسيح عام ٦ من الهجرة - عام ٥٨ من حياة محمد .

في بداية هذا العام ، أرسل محمد فرقة من الفرسان على رأسها محمد بن مسلمة [فى الأصل الفرنسى بن سلامه] للقاء بنى بكر الذين تجمعوا فى « ضربه » إحدى الضواحي الواقعة على طريق مكة إلى بصرى . كان هذا القائد ينام بالنهار ويسير ليلاً . وفاجأ العدو وهو منتشر فى الحقول (٢) . فقتل فريقاً منه ، وولى الباقون الأدبار .

[أهمل الكاتب ما ذكره كتاب السيرة من أن النبى ﷺ « لم يعرض للظعن » (٣) أى النساء) لأن ذلك يعطى ومضة رائعة من الفروسية الإسلامية . [ثم قال سفارى] .

وأسر « محمد بن مسلمة » رئيسهم تمامة [تمامة بن أثال من بنى حذيفة (٤)] وعاد إلى المدينة يسوق خمسين بعيراً [فى الطبقات مائة وخمسين بعيراً] . (٥) وثلاثة آلاف من الغنم وزعت على المقاتلين . وقدم إلى محمد امير بنى بكر فعامله محمد معاملة كريمة . وتأثر تمامة بهذا الاستقبال واعتنق الاسلام فنال حريته . ولما عاد إلى بلاده أصبح من ألد أعداء أهل مكة . وأخذ يهاجم ويسلب وينهب قوافلهم فى كل أراضيه . واستولى على العديد من حمولات القمح فشارفت قريش الموت جوعاً وأجبرها القحط إلى الإلتجاء إلى محمد ترجوه أن يوقف هجمات تمامة . فكتب إليه

[(١) الطبقات : ٥٦/٢ والأنوار الحمديّة ص ٨٧ . (وهى غير سريته إلى بنى ثعلبة كما فى الأنوار الحمديّة ص ٨٩) .]

(٢) جناب ص ١٣٩ جولة ضد بنى بكر

[(٣) ، (٤) ، (٥) الطبقات الكبرى ٥٦/٢]

محمد يقول له « حافظ على قومي واترك حملاتهم تمر » فأطاع تماما الأمر . وجدير بهذا الموقف الكريم من جانب محمد نحو أعدائه أن يحتل مكانه اللائق في التاريخ .

[غزوة بنى لحيان : (١)]

[جمادى الأولى سنة ٦ هـ وفي الطبقات والدرر غرة ربيع الأول سنة ٦ هـ .]

وبعد القضاء على قرىظة (٢) بستة شهور - وكان محمد قد قصد إتاحة الفرصة لقواته كي تستريح (٣) خرج من المدينة في شهر جمادى [الأولي] لتوقيع العقوبة على بنى لحيان لقتلهم بعض أصحابه [شهداء الرجيع] ورغبة منه في مفاجأتهم، سلك الطريق إلى سوريا ثم قفل راجعاً بسرعة وظهر فجأة في قلب بلادهم . ولكن هذا الدهاء ذهب سدى . فمع أول خبر لتحركه انسحب الأعداء واعتصموا بالجبال وأصبح من المستحيل مهاجمتهم .

[غزوة ذى قرد (٤)]

[ذو قرد : (بفتح القاف والراء ، وقيل بضمهما) ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان وقيل على مسافة يوم منها ، وفي الطبقات : هى ناحية خيبر مما يلي المستناخ] .

ولما لم يكن أمام محمد ما يفعله ضدهم ، ذهب إلى غطفان يعاقبهم لأنهم استولوا على جزء من إبله وعاد إلى المدينة محملاً بالأسلاب [وأغفل سفارى ذكر قتل الغطفانيين بقيادة عيينة بن حصن الفزارى راعى إبله وأسر زوجته] .

(١) [يسكون وادى غران بين أمج وعسفان]

(٢) أبو الفداء [ص ١٤٣ والأتوار الحمدية : ص ٨٨ والطبري : ٥٩٥/٢] .

(٣) جناب ص ١٤٠ [وأبو الفداء ص ١٤٣ والأتوار الحمدية ص ٨٨] .

(٤) أبو الفداء ص ١٤٠ [لم يتناول أبو الفداء الموضوع ص ١٤٣] ولا ذكر الطبرى الغزوة بهذا الأسلوب والطبري ٢٧/٥٩٦، ٦٠٤]

[غزوة بنى المصطلق فى شعبان سنة ٦ هـ]

[وقال ابن سعد فى ٢ شعبان سنة ٥ هـ وبعدها الخندق : وهم بطن من خزاعة]

نما إلى علم محمد عن طريق عيونه ، أن قبيلة بنى المصطلق القوية تجمع له مقاتليها فهاجمها دون أن يترك لها الوقت لتتقوى . واشتبك معها بالقرب من بئر يطلق عليها (المريسيج) (١) وتقدم رئيس القبيلة وهو الحارث [ابن ضرار ، وفى أبى الفداء ابن أبى ضرار] لكى يتعرف عليه فأصابه سهم أرداه قتيلاً . ولكن موته لم يفت فى عضد بنى المصطلق . وانتظروا لقاء المسلمين فى ثبات ، وقاتلوهم ببسالة مدة ساعة من الزمان . فسخط محمد من طول هذه المقاومة ، فأمر جنوده بأن يلقوا بأنفسهم على الأعداء والسيوف فى أيديهم . فلم يطق الأعداء هذه الصدمة الرهيبة وانطلقوا هارين ، وظل بعضهم فى ساحة القتال بينما أسر البعض الآخر . فوقع فى أيدي المنتصرين (٢) ألف بعير وخمسة آلاف من الغنم .

[زواج جويرية] (٣)

وكانت جويرية بنت الحارث قد وقعت فى سهم ثابت فكاتبته على أن تفتدى نفسها . فدفع محمد الفدية وتزوج هذه الأسيرة الشابة ، ولم يرد المسلمون أن يمر هذا اليوم العظيم مصحوباً بدموع المهزومين فقالوا : إن رسول الله قد عقد حلفاً مع بنى المصطلق بزواجه من أميرهم . فلنجبرهم على أن يباركوا هذا الزواج . وعندئذ وبدافع من أنفسهم .. أطلقوا سراح مائة رب أسرة .

[والصواب أن المائة هم مائة أهل بيت من بنى المصطلق كما قال ابن هشام ، وهم

(١) تقع هذه البئر فى أراضى قريظة على بعد خمسة أميال من البحر ، و ٢٤ ميلاً من عسفان .

(٢) جناب .

(٣) الحسن [والطبرى ٢ / ٦١٠] فقد قالت جويرية تستعطف النبى ﷺ أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقع فى السهم لثابت فكاتبته على نفسى . فجيئت أستعين بك على كتابى ، فرق لها النبى وقال لها (فهل لك فى خير من ذلك ، أتحبى كتابتك وأتزوجك) فشكرت إليه موافقته وأسلمت فتزوجها [.

يمثلون جميع السبى . وقد أسلموا جميعاً لما عرفوا من كرم أخلاق النبى وأصحابه ، وهذه هى حكمة زواج النبى بجويرية . ولغرض خبيث فى نفس الكاتب أهمل هذا الموضوع[١] .

[تحمل الدولة للدية]

وكان أحد جنود محمد قد قتل زميلاً له خطأ وهو فى حمأة الوغى . فعلم بالخبر مقيس [بن صبابة الليثي أخو القتييل] - وكان لا يزال مشركاً . فقصد المدينة (٢) وتصنع كفره بالوثنية واعتناق الإسلام ثم طالب بدية أخيه طبقاً لهذا القانون : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية (مائة بعير) مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن . فتحرير رقبة مؤمنة ... وكان الله عليماً حكيماً » .

وكان الجندى الذى قتل أخوا مقيس فقيراً . فقضى محمد عنه الدية ، واحترم القانون وبعد أن تسلم المشرك الماكر قيمة الدية ، مكث فى المدينة حتى اللحظة التى استطاع أن يياغت فيها قاتل أخيه فقتله ، ثم فر إلى مكة حيث ارتد عن الاسلام .

[مزاحمة]

[جهجاه بن مسعود الغفارى وسنان بن وير الجهنى - حليف الخزرج]

وأثناء هذه الغزوة نشب خلاف بين المسلمين ينما كانوا يتدافعون حول الماء ليشرّبوا ، (٣) وأوشك المهاجرون والأنصار أن يتشابهوا وكان عبد الله - كبير المنافقين - يضرم نار هذا النزاع . وبلغت به الوقاحة أن نطق بألفاظ سب فيها النبى وهدد بطرده من المدينة . وأبلغ النبى بالخبر فأشار عليه عمر بأن يضرب عنق هذا الأمير المفسد . فرد عليه محمد بقوله : « وما يظن الناس بى لوأنى قتلت أصحابى فى

(١) [الطبرى ٢ / ٦١٠] .

(٢) أبو الفدا ص ٨١ : [١٤٤] .

(٣) أبو الفدا ص ٨١ : [أوص ١٤٤] جناب [والدرص ٢٠١ والطبرى ٢ / ٦٠٥]

السلاح ، [١٢] .

[هكذا دائما يضيف إلى أقوال النبي عند ذكر كلمة أصحابي هذه الكلمة (في السلاح) ليربط الحرب والقتال بالرسالة والرسول بينما لم ترد أبداً على لسان الرسول] .

[أصدق الوفاء للعقيدة]

وقال ابنه عبد الله - وهو مسلم مخلص في اسلامه [يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت ولا بد فاعلاً ، فمرني به أنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده ، مني وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ . (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا) (١) .] .

أدى هذا التسامح الذي أملتة الحيلة إلى تهدئة النفوس . واعترف عبد الله باندفاعه وتنصل من عمله .

[حديث الإفك]

ولما رجع الجيش الى المدينة ، أتهمت عائشة - زوجة محمد المقربة إلى قلبه - بالزنا مع صفوان . وهو ضابط شاب كان يتولى قيادة المؤخرة . وهي تروى قصتها في هذا الكلمات « كان النبي كلما أراد أن يخرج في غزوة اقترح بين نسائه فأيهن خرج سهمها كانت تصحبه في سفره . ولهذا كلما أخبرنا بحرب جديدة كانت قلوبنا ترتعد خوفاً وأملاً . وكان سهمي قد خرج هذه المرة . فغطاني رسول الله بوشاح وخرجت معه . وكان الهودج المحمول على ظهر الجمل يقوم مقام السيارة ، وبعد انتهاء الغزوة أعطيت إشارة الرحيل وبدأ الجيش يتحرك . ولكنني اضطررت للخروج لبعض حاجاتي وانتظرت مرور القوات لكي أعود وأركب الهودج

(١) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٢٣ وأبو الفدا ص ١٤٥] .

فلاحظت أنى فقدت عقدى فعدت أدراجى . وبينما كنت أبحث عن العقد بقلق شديد مر بعض الجنود بالقرب من الهودج وحملوه على البعير ولم يندهشوا من خفة وزنه وعللوا لهذا بأمرين :

أ - حرص النساء ألا يأكلن كثيراً من الأطعمة فى مثل هذه الرحلات .

ب - سنى الصغيرة (فلم تكن عائشة قد بلغت الخامسة عشرة) .

لم يشكوا إذن فى غيايى فارتحلوا . كان بحثى موفقاً إذ عثرت على عقدى فرجعت مسرورة إلى حيث كنت قد تكرت مركبتى . فلم أجد أثراً لأحد . فأخذت أنادى فلم أجد مجيباً . فملأت الدنيا صراخاً فلم يسمعنى أحد . فكنت آمل أن يعودوا لى فخاب أملى . وتعبت من الصراخ ومن الانتظار ، وجلست فغشيتى النعاس . وكان صفوان - الذى يقاسمنى همومى - قد بقى فى مؤخرة الجيش . ومر فى الصباح المبكر بالمكان الذى كنت أرقد فيه فأبصرنى وأنا بدون حجاب ، فعرفنى ، واستيقظت على صوته وهوىقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » (١).

[تعقيب]

[ونص حديث عائشة « انطلق الناس فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى . فوالله إننى لمضطجعة إذ مرى صفوان بن المعطل السلمى - وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبيت مع الناس . فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على - وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب . فلما رآنى قال (إنا لله وإنا إليه راجعون) والفرق بين النصين واضح يكشف لنا عن خبث كتابة الخصوم] ثم قال سفارى على لسان عائشة: [

وإنى أقسم بالله أنه لم ينطق بغير هذه الكلمات . وتغطيت بحجابى . وقرب إلى البعير وساعدنى على الركوب وقاده من الخطام حتى لحقنا بالجيش . »

(١) البخارى أى الجامع الصحيح [إرشاد السارى بشرح صحيح البخارى للقسطالانى فى ٤/ ١٩٠ ط سادسة بالمطبعة الكبرى الاميرية سنة ١٣٠٤ هـ والطبرى ٢/ ٦١٠-٦١٩ .]

كانت عائشة تدافع عن نفسها أمام زوجها وأمام أبيها أبى بكر وأُمها أم رومان . وكانت شابة وجميلة وبلغت فرجحت حجتها . وسُرَّ محمد بأن وجدها بريئة . فقد كان يحبها . ورغبة منه فى ألا يترك أى شك فى سلوكها أو أية شبهة على سمعتها ، أنزل [٩] سورة النور التى تعلن براءتها فى وضوح [بل أنزلها الله] وفيها : ﴿ لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك مبين .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.. ﴾ (١) .

[مصير مشيعى الأفك]

وبما أن الوحى الإلهى قد أكد نقاء شرف عائشة ، عوقب أصحاب الافك بثمانين جلدة لكل منهم .

[هذا افتراء على رسول الله ﷺ والتاريخ : بل قولت الإساءة بالإحسان . وحين أراد أبو بكر أن يقطع إحسانه عن قريبه مسطح أحد الذين روجوا الفتنة . نزلت الآية الكريمة ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصْفَحُوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (النور: ٢٢) فعفا عنه ، وواصل بره . وقد ذكر أبو الفدا أن النبى جلد القائلين (٨٠) جلدة لكل واحد ما عدا عبد الله بن أبى (ص ١٤٥) وهو خطأ وعلى كل حال فإنه لم يذكر غير ذلك]

وكان محمد قد استشار علياً فى هذا الموضوع الدقيق . فأشار عليه بأن يسأل خادمتها . ولم تنس عائشة لعل هذه المشورة . وفيما بعد كان لدسائسها دور كبير فى إبعاده عن الخلافة .

[تعقيب]

[وبلغت مجالس الدخان المسموم يفكر المستشرقون ، ويفسرون خروج عائشة الطاهرة، المؤمنة أم المؤمنين (على وطلحة ومعاوية جميعاً) بغير مقتضى الأمومة . لقد قالت لها إحدى زوجات النبى ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ فقالت عائشة : حقا ولكن

(١) القرآن سورة النور ١٢ - ١٥ .

«وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما» وأرجو أن يصلح الله بهى . فلما جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، وكانت الأحداث أكبر منها ، عرف لها أصحاب النبى ذلك ، فردت إلى بيتها مكرمة من الجميع .

[ولكن سود السفهاء ثم السذج من المؤرخين ، الصحف بمثل ما قاله سفارى وأمثاله . وفى كتاب العواصم من الوقاصم ، لمحيى الدين بن عمر بن المالكي فى هذا الموضوع ما يشفى صدور المؤمنين وطلاب الحقيقة والإنصاف] .

[صلح الحديبية ^(١) : فى ذى القعدة سنة ٦ هـ]

[رؤيا النبى]

كانت الحروب الدائمة قد حجزت المسلمين بعيداً عن الكعبة ^(٢) . فكانوا يتوقون لزيارة الأماكن المقدسة ، وكان الهدوء مستتباً حول المدينة . فرأى محمد وجوب إشباع هذا الروع . إلا أن هذه الخطوة البارة كانت تتطلب تفويضاً من السماء ، فأعلن عن هذا الوحي [٢] «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» ^(٣) . وملاً هذا الوعد القلوب بالفرح واعتقد الجميع أنهم يطهرون الى نصر جديد ، وبعد أن أُذُن فى الناس بالحج ، سار محمد قاصداً مكة ومعه ألف وأربعمائة رجل ^(٤) [يزور الكاتب على التاريخ فالمؤرخون يذكرون أنه لم يكن مع النبى إلا الحاجاج - دون الجيش] اختارهم من بين المهاجرين والأنصار . وخلف الجيش سبعون بعيراً مزينة بالزهور وأوراق الشجر ، كانت تمثل الهدى ولكن هذا المظهر الدينى لم ينطل على المشركين فقد كانوا يخافون من زعيم طموح يتخفى تحت رداء الدين المتواضع . وقرروا أن يصدوه وأصحابه ويقفوا لهم بالمرصاد . ولما علم

(١) الحديبية مدينة يقع جزء من أراضيها فى الأرض الحرام وجزء فى الأرض غير المحرمة وتبعد عن مكة بمسيرة يوم (أبو الفدا - وصف الجزيرة العربية ص ١٢) ويقول بعض المؤلفين : إنها استمدت اسمها من شجرة تنمو فى ضواحيها يطلق عليها حُذْبَةٌ . ومعنى هذه الكلمة أحذب ومنحنى ، وهذا يرجع إلى التواء جزع الشجرة وامتداد فروعها أفقياً .

(٢) أبو الفدا ص ٨٤ - [١٤٥/١] والانوار المحمدية ٩٢ : ٩٣

(٣) سورة الفتح ٢٤ .

(٤) جناب [أبو الفدا ص ١٤٥]

النبي أنهم ينتظرونه في أرض مكشوفة ترك الوادى ولجأ إلى المرتفعات وعسكر بالحديبية وكان الموقف يتطلب إما التوقف عن السير [للمفاوضات] وإما الاشتباك بالسلاح . وكانت قريش قد جمعت قواتها مع قوات حلفائها واستعدت لنتائجه الطريق بقوة السلاح (١) وأوفدوا إليه عروة [بن مسعود] أمير ثقيف - الذى قال له : إن قريشاً قد لبست جلود النمرور وعاهدت الله الا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وكان الأمير المشرك وهو يتحدث وديا يتناول لحية محمد (٢) إظهاراً لصداقته . ولكن المغيرة الذى كان واقفاً إلى جواره عنقه قائلاً [أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك] فرد عليه عروة بهدوء يقول : أنى لا أسمى إليك .

وبعد أن مكث عروة بعض الوقت فى خيمة القائد لاحظ بدهشة مدى الوقار العميق الذى كان يديه المسلمون لشخص نبيهم . فاذا توضعوا جمعوا بعناية الماء الذى استخدمه ، وإذا بصق أسرعوا يتمسحون بريقه (٣) وإذا سقطت شعرة من رأسه ضموها باحترام [ثم افترى الكاتب على التاريخ هذه العبارة المسمومة] « لقد كان كإله فى وسط الارباب » [تبادر الشعور لم يكن فى هذا المقام ، ولكنها إضافة كاتب غافل غير محقق كباقي المؤرخين الذين يدعى أنهم اهل للتحقيق فالحلق لم يقع إلا بعد الصلح (انظر أبا الفدا والجاحظ والأنوار المحمدية ٩٦) ثم قال سقارى :]

وبعد أن نقل السفير إلى قريش ماشاهده ، اختتم تقريره بقوله : لقد جئت الأباطرة فى حاشيتها ، وجئت كسرى فى أوج مجده ، ورأيت هرقل فى أبهة القياصرة . فوالله مارأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه (٤) . وبعد رحيل عروة أراد محمد أن

(١) أبو الفدا : ص ٨٥ [١٤٥/١] [وانظر البخارى ١٥٣/٦ - ١٥٨ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وهو خال من الغرض الخبيث الذى يرمى إليه الكاتب] .

(٢) إذا عقد اثنان من الأتراك اتفاقاً فإنهما يتبادلان تناول لحيتهما ويقسمان بهذا الجزء النبيل من الوجه بالوفاء بالتزاماتهما . هذا القسم مقدس ومن ينقضه يكن سافلاً [ولكن هذا التفسير المغرض لجذب اللحية ان كان عند الترك قسماً فهو عند العرب وغيرهم ليس كذلك ، إلا أن تصحب بالقسم « وحق هذا » أو « وأفدى هذا » .]

(٣) أبو الفدا ص ٨٥ - [١٤٥] والأنوار المحمدية ص ٩٥ .

(٤) بينما كان الجيش معسكراً بالحديبية ، جفف القحط كل الموارد ، وذهب الجنود إلى النبي يعربون عن شكرهم . فأمرهم بأن يغزوا سهماً فى قاع البئر . فانطلق السهم وانغرز فى الطين . وفى الحال جاش الماء بغزارة وأشبع كل الحاجات (جناب ص ١٥٤) [وأبو الفدا ١٤٩/١ والأنوار المحمدية ٩٤] .

يرسل عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه قريشا عبارات السلام .

[سفير النبى إلى قريش]

فاعتذر عمر بأن الأعداء يذكرون له إساءاته إليهم وغلظته عليهم وأنه يخشى على نفسه منهم . فأوفد إليهم عثمان بن عفان ليؤكد لهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء ليزور البيت العتيق . وقد أدى عثمان مهمته على أكمل وجه . ولكن مقترحاته رفضت ، وقيل له « أما أنت إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فرد عليهم بقوله « ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله » ثارت حفيظتهم على عثمان لهذا الرد فكبّلوه بالحديد . وكان هذا العدوان من جانب قريش على حقوق الناس يخدم أغراض محمد . فقد كان حريصاً على أن يكون الحق فى صفه، وأن يظهر بمظهر طالب العدل حتى وهو يقضى على أعدائه ، وغمره الفرح عندما قدم إليه المبرر الذى يساعده على الانتقام انتقاماً مشروعاً . وكان هذا الباعث هو الذى جعله يختار عمر بادئ الأمر . لم يستطع أن يتمالك نفسه من السرور فصاح يقول « لا نبرح حتى نناجز القوم » (١).

[بيعة الرضوان]

جمع النبى جنوده وكشف لهم عن ظلم المشركين الذين صدوهم عن مقام إبراهيم وعن سوء معاملتهم لشخص رسوله ، وضعف الثقة فى عهد قوم يعتدون على أقدس الحقوق . بهذا الخطاب اشتعلت حماسة المسلمين وصاحوا لحمل السلاح ورغبة فى ابداء اخلاصهم وتفانيهم فى خدمة نبيهم بايعوه طواعية على السمع والطاعة ، وأقسموا أن لا يفروا حتى الموت . فوعدهم بأن يظل وفيّاً من جانبه ما لبثوا متحدين . وباركت السماء هذا العمل المجيد ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ (الاستيلاء على خيبر) ومغانم كثيرة يأخذونها (٢) ، لقد أدى تطرف قريش إلى تماسك قوى محمد . فعمل على الاستفادة من حدث غير موات فى ظاهره . وأخذ يعد عدته كى ينتقم لإساءتها معاملة سفيره . ولكن قريشاً ترجعت عن اندفاعها

(١) أبو الفدا : ص ٨٦ = [١٤٦/١] .

(٢) القرآن سورة الفتح آية ١٨ .

الأول ، وفكرت فى سوء تصرفها وفى آثاره السيئة ... فأطلقوا صراح عثمان وأرسلوا سهيلاً [بن عمرو] يطلب الصلح . لم يجد النبیّ بدا من قبول هذا الصلح حتى لا يخل بمبادئه وحتى لا يظهر أمام العرب فى صورة الطاغية . فقال له عمر : [يا رسول الله أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى : قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فرد عليه « محمد ، بقوله : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . » (١).

[شروط المعاهدة]

ولما تم الاتفاق على بنود الصلح نادى محمد عليا وقال له (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل : أمسك لا أعرف هذا الأسلوب بل أكتب باسمك اللهم « ثم قال محمد اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : اسمح لى أن أنازعك هذا اللقب . لو شهدت أنك رسول الله لما قاتلتك . ولكن أكتب اسمك واسم أبيك . فاستجاب له محمد وبعد هذه المعارضة قال لعلی: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو (٢):

١ - تعقد هدنة لمدة عشر سنوات تراعى بدقة بين المسلمين وقريش .

٢ - للقبائل العربية الحرة فى الانضمام إلى صف محمد أو صف قريش (٣) .

(١) أبو الفداء ٧٨ .

(٢) لما قال محمد لعلی امح كلمة « رسول الله » اقسم ألا يأتى مثل هذا الكفر (أبو الفداء ٨٧) [١٤٦] وجناب . فتناول محمد القلم وشطب هذه الكلمات وكتب مكانها « محمد بن عبد الله » ولقد نسى فى هذه اللحظة أنه لا يقرأ ولا يكتب . وكان هذا النسيان معجزة وكان الجهل الذي يتصنعه [١٤] ستاراً ييخى من ورائه إضفاء الطابع الإلهى علي كتابه . ومن المحتمل أنه خلال السنوات الخمس عشرة التي قضها فى العزلة قد اكتسب المعارف التي تلازمه لتحقيق أغراضه .

[ليس فى السيرة المعتمدة أن محمدا كتب شيئا . وإنما هو افتراء المبشرين والمستشرقين (تهذيب ٣٤٧ والدرر ص ٣٠٦) بل كل الذي فيها أنه سأل عن الكلمة المطلوب محررها فأشار اليها على فمحاها النبي ثم كتب علي « من محمد بن عبد الله » ولفظ البخاري : « فأخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب » . ١٨٠/٥ البخارى] .

(٣) أبو الفسراج - تاريخ الأمم ص ١٢ ، [أبو الفراج ابن العبرى تاريخ مختصر الدول نشره ترجمة ومتأ المستشرق الإنجليزى القسيس ادوارد بوكوك سنة ١٦٧٢] .

- ٣ - يغادر محمد وأتباعه الأرض الحرام هذا العام .
- ٤ - يزور المسلمون الأرض الحرام فى العام القادم فى شهر ذى القعدة .
- ٥ - يدخل المسلمون مكة وليس معهم أى سلاح سوى السيوف فى غمدها .
- ٦ - ولا يقيموا فيها سوى ثلاثة أيام ولا يجبروا أى مواطن على الخروج منها .

[وقع المعاهدة فى نفوس المسلمين]

ولقد صدق المسلمون والمشركون على هذه المعاهدة بعد أن أعلنها المفوضون على الملأ^(١) وكان جنود محمد يعتقدون - بناء على الوحي المنزل - أنهم سيرون الى نصر أكيد . ولكن خبر هذا الصلح قد أدخل الحزن على قلوبهم . وظهر استيائهم فى سلوكهم العام . وأصبحوا لا يطيعون أوامر قائدهم . فقد أمرهم بنحر الهدى استعداداً للرحيل فلم ينحروا وظلوا صامتين جامدين . وكرر الأمر ثلاثاً فظلوا بلا حراك . عندئذ ومن غير أن ينطق بكلمة ، اخترق الجيش وذهب الى أقصى المعسكر وتناول السكين المقدس [٤] وذبح يديه الجمال التى ساقها للهدى وحلق رأسه وأتم مناسك الحج التى فرضها- الدين [على من فى مثل موقفه من المحصورين] بذبح الهدى وتغلب تأثير القدوة على العناد . وما أن رأوا رسولهم يفعل ذلك حتى بادروا باتباعه ، وفاضت الأرض بدماء الذبائح ، وحلق الجنود رؤوسهم ، وتطهروا فى تراحم رائع ، وحلت الحماسة الجارفة محل الحزن . ولكي يزيل محمد ما بقى من آثاره لفت الأنظار أنه قد أسىء تفسير الآية القرآنية إذ أنها تنتهى بهذه الكلمات ﴿ فعلم ما لم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ وقال : « ان هذا النصر يجب أن يسبق دخولكم مكة . تشجعوا اذن أيها الرفاق ، وسيروا حيث تناديكم السماء . » وأذن بالرحيل فى الحال . وعاد محمد بقواته إلى المدينة . وما أن دخل المدينة حتى أخذ يعد العدة لغزو اليهود . وكان قد أباد قبيلتين من قبائلهم وغزا أراضيهم . ولم تكن هذه الانتصارات كافية لتحقيق أمنه وطموحه . فقد كان امتلاكهم لعدة حصون يثير القلق فى نفسه من ناحيتهم . إذ كانوا دائماً متأهبين

(١) أبو الفدا ص ٥٨٧ [١ / ١٤٦ والانوار ص : ٩٥] .

للشورة ، وعلى استعداد لتقديم كل عون إلى المشركين . وكانوا بمثابة حائل بينه وبين أغراضه [١٩] . ولقد دفعته استحالة إدخالهم في الإسلام أو جعلهم حلفاء أوفياء ، إلى أن يوطد العزم على استعبادهم [٢٠] .

[تعقيب]

[وهكذا تناسى الكاتب عفو النبي عن بنى قينقاع وسماحه لهم بالخروج من المدينة وهم المعتدون ، وتناسى كذلك الخيانة العظمى التي قام بها بنو النضير، وأن النبي سمح لهم أن يختاروا حكما فيهم ، وأن النبي قد نزل على حكم الحكم الذي اختاروه وفيه استبقاء الذرية والنساء .]

[غزوة خيبر]

عام ٦٢٢٢ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفدا [ص ١٤٧] - ٦٣٧ من ميلاد المسيح عيسى [المحرم] عام ٧ من الهجرة [كما في الدرر ، في رمضان كما في الطبقات] عام ٥٩ من ميلاد محمد .

[فتح حصنى ناعم والصعب]

في شهر محرم غادر محمد المدينة سرأ ومعه ألف وأربعمائة من المشاة ومائتان من الفرسان . وهاجم بغتة حصن « ناعم » واستولى عليه عنوة . ثم ذهب وضرب الحصار حول حصن «الصعب» . وكان اليهود متأهبين للقاءه بعد أن أحدثوا تلفا حول مدينتهم . وقطعوا نخيلهم (١) وقاوموا مقاومة مستميتة . ولما نال الشعب من المسلمين واشتدت بهم الحاجة إلى المؤونة أحاطوا بخيمة قائدهم وأعربو له عن شكواهم (٢) . فأخذ يدعو ورفع يديه إلى السماء وهو يقول « يارب إنك مطلع على ما وصل إليه حالهم . فقد وهنت قوتهم واشتد عوزهم . فافتح لهم أبواب هذا الحصن العظيم المليء بالمؤن والخيرات . فأثمر الدعاء ثمرته (٣) وأيقظ شجاعة الجنود وانطلقوا وهاجموا الحصن فسقط في أيديهم . ووجدوا فيه أكواما من

(١) أبو الفدا ص ٨٨ [رجعنا إلى أبي الفدا ج ١ ص ١٤٧ في النسخة السابق ذكرها وليس فيها قطع النخيل

وكذا البخاري .]

(٢) جابر ، شاهد عيان .

(٣) ابن اسحق .

الشعير ومن البلح ، وكثيراً من الزيت والعسل ، وأكداسا من السلاح ، وقطعانا من البقر ومن الغنم ومن الحمير . وحملوا إلى محمد قطعة كبيرة من جلد الإبل مليئة بالأحزمة والأساور وأربطة السيقات والأقراط والحلقان الذهبية فضلا عن كمية كبيرة من الأحجار الكريمة ، ووزعت هذه الغنائم كلها على المقاتلين .

[فتح حصن القموصى]

وقبل أن تخدم حماستهم قادمهم محمد إلى حصن « القموصى » الذى كان قلعة خير (١) وكان قيامه على صخرة زاداها بالتحصينات « كنانة [بن الربيع بن أبى الحقيق] مما جعله بعيد المنال . ولقد اتخذ هذا الأمير - الذى كان أغنى زعيم لأقوى طائفة من اليهود - لقب ملك اليهود . وكان قد تحصن به مع كتوزه ، فكان ينبغى ضرب الحصار حوله حسب الأصول العسكرية . فحارب المسلمون المنجنيق وآلات الحرب الأخرى وأخذوا يحطمون الأسوار على الرغم من جهود المحاصرين ، وكان المسلمون يجاهدون جهاداً عظيماً اقتداء برئيسهم الذى كان يعرض نفسه لأخطار بالغة ، وهاجموا الحصن بعنف شديد ، ووقعت مواقع كثيرة ولكن المسلمين برغم بطولتهم لم يتمكنوا من تحقيق النصر خلال الانقضاضات الأخيرة . فلما رأى محمد أن كل جهود المسلمين قد ذهبت سدى نادى بالانسحاب . وظل يومين داخل خيمته يتدبر الوسائل التى تحقق السيطرة على القلعة (٢) . وفيما هو يعد خطته أخذ أبو بكر لواء الاسلام ومن خلفه نخبة من المحاربين ، وانطلق وثبت اللواء فى أحد الثغور وقاتل ببسالة ولكن عناد اليهود أجبرهم على الارتداد . فظن عمر انه سيكون أكثر منه توفيقاً فتناول اللواء ونادى أصحابه الشجعان وقادهم ضد العدو ، وبالرغم مما أمطرهم به العدو من السهام فقد صعدوا فوق أنقاض الأسوار وحققوا بطولات عظيمة ، ولكنهم اضطروا بعد قتال شديد - إلى أن يولوا الأدبار وأبلغ الضابطان قائدهم بما عجزوا عن تحقيقه من نصر

(١) وتعنى خيبر الحصن بالعربية . وتقع على بعد مسيرة ستة أيام شمال شرق المدينة وضواحيها خصيبة تزخر بالنخيل والزرع (أبو الفدا [ص ١٤٧] وصف الجزيرة العربية ص ٤٣) [والطبرى ١٠/٣] وهذه المدينة مغلقة فى القدم إذ طبقا لما يقرره هذا المؤلف فإن موسى بعد أن عبر البحر الأحمر ، أرسل جيشاً ضد سكان يثرب وختيبر .

(٢) أبو الفدا ص ٨٩ [١٤٧/١]

فقال لهم : [فوالله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، ليس بفرار .]

[تعيين على قائداً]

وفى اليوم التالى أحاط المهاجرون و الأنصار بخيمة القائد منذ الصباح الباكر . واشترأت أعناقهم وامتدت أبصارهم وتزاحمت صفوفهم لكي يعرفوا من هذا الذى سيقع عليه هذا الاختيار المجيد . وكان كل شجاع يحرص على أن يكون هو هذا البطل . وكان علىّ - الذى لا يقهر - متحسراً أن يرى شجاعته بلا فائدة إذ أجبره رمد أصاب عينيه على أن يظل عاطلاً . فظهر و هو يربط جبهته بعصابة . (١) فقربه إليه محمد ومسح عينيه بلعابه فبرىء من المرض . وبعد هذا الشفاء العجيب (٢) عهد إليه براءة الدين وبعثه يقاتل المحاصرين . وتناولها على بسرور بالغ ، وانطلق بكل ثقة وصعد إلى روضة (٣) وغرز فيها الراية فخرج إليه اليهود فى أعداد كبيرة وأخذوا يقاومونه ، وثبت على كالطود راسخا فى مكانه ، يقضى على كل من يجرؤ على أن يناهضه . وكان قد قتل الحارث وألقى به تحت قدميه . فنزل مرحب - نائب قائد الحصن - لكي يثار لموت أخيه . وكان هذا الضابط مشهوراً بشجاعته وجرأته (٤) ، وكان مسلحاً بدرعين وسيفين ولبس فوق خوذته عمامتين ، وقد تألقت فى خوذته جوهرة فى حجم البيضة . وكان يمسك فى يده رمحاً ثلاثى الأسنان . فلم يجرؤ المسلمون على مباراته ، واتجه مرحب صوب على الذى كان ينتظره بقدم راسخة وأنشد :

[قد علمت خيبر أنى مرحب : شاكى السلاح بطل مجرب] : [إذا الحروب أقبلت

تلهب .]

فرد عليه على : [أنا الذى سمتنى أمى حيدر : كليث غابات كرية المنطرة]

[أوفيههم بالصاع كيل السندرة]

(١) أبو الفدا ص ٧٩ [١٤٧/١] والأنوار المتعمدية ص ٩٧ والطبري ١٣/٣ والبخاري ١٧١/٥ .

(٢) من المحتمل أن يكون هذا الشفاء المدهش - المشهور عند المؤلفين المسلمين - مذبراً بين الحمى والصهر [؟] .

(٣) كومه مجتمعة من الحجارة تحت الحصن وفي الأصل المترجم : صعد إلى فجوة والصواب ما ذكرناه .

(٤) معالم التنزيل .

[وفي روايه أبى الفدا : أكيككم بالسيف كيل السندرة)]

[بهذه الروح الحاقدة تكون تفسيرات المستشرقين الدالة على غباء . لقد كان من مع رسول الله مؤمنين به وحريصين عليه أكثر من حرصهم على أنفسهم لما عرفوا من صدقه ، ولما سمعوا من كتاب يعرفون إعجازه وهم أهل الفصاحة فما كان أغناه ﷺ عن الخداع والتضليل . والخداع ينكشف حتماً . ولكن مضت القرون ولم يزد تاريخ النبوه إلا تأكيداً وبرهنة على صدقها . وحسبنا في الرد على الكاتب قول ليونارد وهو مستشرق من بنى جلده ، إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله . وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له وفنى في خدمته بقصد شريف ودافع عظيم ، فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبي العرب (١) ،]

ثم اشتبك المتبارزان وتبادلا ضربات قوية . وكان على أبرع منه فأخذ يداور عدوه العنيد وانتهر لحظة أخطأ فيها مرحب ضربته ، فضربه بسيفه ضربة فلق بها رأسه ولم تغن عنه خوذته ولا عماماته شيئاً فأخذ يتدحرج في التراب . ولم يتوقف على عند هذه المغامرة . وإنما اقتفا أثر اليهود وهم في ذهول من مقتل رئيسهم ، واقتحم عليهم الحصن حتى انتصر عليهم (٢) ووقع الحصن في يد محمد وأمسى سكانه كلهم عبيداً (٣) . وكان من بين الأسرى صفية الجميلة

(١) [بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ج١ ص ١٠٩]

(٢) ويروى أبو رافع رواية لا يقرأها أبو الفدا ذاته يقول « كنا نسير بقيادة علي ضد أهل خيبر إذ خرج فريق من جند الحراسة لصعدنا . وبينما كان قائدنا يقاتل ببسالة خارقة ضربه يهودى ضربة شديدة فطرح ترسه من يده : فهاج على وانتزع أحد أبواب الحصن واستخدمه كدراع حتى استولى علي الحصن ، ويضيف الراوى أنه شاهد الباب ذاته وأن ثمانية رجال قد وجدوا مشقة في تحريكه من مكانه [بل الصواب أن سفارى يكذب علي أبى الفداء ، فقد ذكر القصة ولم يستكرها - (١ ص ١٤٧) وأبو رافع هو مولى رسول الله وقد رواه ابن اسحق قال حدثني بريدة بن سفيان بن فروة عن أبيه سفيان عن سلمة بن الأكوع عن أبي رافع . الدرر ص ٢١١ وابن هشام ٢٤٩/٣ وأبو الفدا ص ١٤٧]

(٣) أبو الفدا [ص ١٤٧-١٤٨ والطبرى ٢٣/٣] [عبارة الكاتب (أمسى سكانه جميعاً عبيداً) التي ينسبها لأبى الفدا فيها كذب والنص بلفظه « فأول ما فتح حصن ناعم ثم افتتح حصن القموص وأصاب رسول الله ﷺ منهما سبايا منهن صفية » ثم قال أبو الفدا : « كان فتح خيبر في صفر سنة ٧ هـ وسأل أهل خيبر رسول الله ﷺ الصلح علي أن يساق بهم (يزرعوا له أرضهم ونخيلهم) علي النصف من ثمارهم ويخرجهم متى شاء ففعل ذلك ، ولكن سفارى يقلب الحقائق تحريضا لليهود علي المسلمين] .

وهي ابنة احد اشراف اليهود ، فقرر محمد أن تصبح له زوجة ومنحها حريتها مهرأ
لزوجها منها .

[دس السم للنبي]

وفيما هو يتنسم بعض الراحة بعد كل هذه الأعمال ويحتفل مع قواد جيشه بهذا
النصر العظيم ، كانت زينب - أخت مرحب الذي قتله على - تدبر له الموت ، إذ دست
له السم في [ذراع] حمل مشوى وقدمته إليه . وما أن وضع قطعة منه في فمه
حتى لفظها وهو يقول [أن هذا العظم يخبرني أنه مسموم] وكان بشر [بن البراء
بن معرور] صاحب محمد قد بلع قطعة من الشاة فمات من فوره . وعلى الرغم
من السرعة التي ألقى بها محمد القطعة المسمومة من فمه ورغم الإسعافات التي
أجريت له على أكتافه (١) فإن السم الخبيث كان قد دخل في دمه وقرب من
أجله وجعله يعاني آلاما مبرحة حتى مماته (٢) . وكان من طبيعة هذا الحادث ألا
يخفف من كراهيته لليهود . ولهذا فقد استمر في تجريدهم من أموالهم وفي
استعبادهم .

[هذا التعليل منطوق اللثام . أما النبي كريم الطبع فسيذكر الكاتب نفسه من فعله مع
اليهود ما ينقض هذا التعليل] .

[مصير أهل خيبر]

ولما رأى سكان خيبر أن قلعته قد سقطت . فتحوا للمتصرين أبواب مدينتهم وتضرعوا
إلى محمد أن يترك لهم زراعة نخيلهم وأراضيهم على أن يعطوه نصف المحصول . فأجابهم
إلى طلبهم، ومكثوا بخيبر حتى خلافة عمر الذي طرد جميع اليهود من الجزيرة العربية ونفاهم
إلى الشام حيث منحهم بعض الأراضي (٣) .

(١) [على أكتاف: زيادة ذكرها سفاري ولم يروها ابن هشام ولا ابن عبد البر ولا ابن سعد]

(٢) [جناب] وأبو الفدا ص ١٤٣ وتاريخ الطبري ص ١٥

(٣) [أبو الفدا ص ١٤٧ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ١٥ ، ٢١ ط ٣ دار المعارف سنة ١٩٦٢] .

[استسلام فذك : فى شعبان سنة ٧ هـ]

ووقع فى نفوس أهل فذك الرعب بعد الذى علموا من أمر جيرانهم . فاستسلموا وحصلوا من محمد على نفس الشروط التى حصل عليها يهود خيبر . ولما كان هذا النصر راجعاً إلى المفاوضات وليس إلى القتال ، فقد احتفظ محمد بملكية فذك خالصة له طبقاً للقانون القرآنى التالى ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ (١) ونظراً لتصميمه على ألا يترك بيد اليهود حصناً واحداً فإنه قاد الجيوش الظافرة الى وادى القرى (٢) الذى رفض سكانه الاستسلام ، فحوصروا وسقط الحصن عنوة وأخذ السكان سبايا .

[غزو حصنى الوطيح والسلام]

وبعد أن استولى على وادى القرى ذهب يهاجم حصنى الوطيح والسلام (٣) واستولى عليهما بقوة السلاح . وخلال هذه الحملة العسكرية استولى على جميع حصون اليهود وسلب أموالهم وساق الأمة اليهودية إلى الرق والاستعباد .

[تعقيب]

[هذا أسلوب يستثار به اليهود ، والحقيقة هى التى قالها ابن هشام أن رسول الله حاصر أهل الوطيح والسلام حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم أى يأذن لهم بمغادرة البلاد ، وأن يحقن لهم دماءهم ، فقبل رسول الله رجاءهم (تهذيب السيرة ص ٣٥٧) ثم إن غزو وادى القرى ليس كما قال الكاتب قبل الانتهاء من خيبر وإنما كان بعد الانتهاء منها . (الدرر ص ٣٢٠) وتهذيب ابن هشام ص ٣٥٩]

(١) سورة الحشر آية ٦ .

(٢) معناه « وادى المدن » استمد هذا المكان اسمه من كثرة الضواحي والقرى المحيطة به ويقع على مسيرة يومين

من خيبر من ناحية سوريا (جناب) . [وأبو الفدا ص ١٤٨] .

(٣) أبو الفدا و جناب [الذى فى أبى الفدا : ص ١٤٧ أنه هاجم الوطيح والسلام بعد حصن القموصى ولما انتهى من حصون خيبر ذهب إلى فذك ثم وادى القرى . ولا يقول محارب بغير هذا إنما هى غفلة المستشرقين ، أو إرادتهم إعطاء صورة تدل على غفلة حربية للقيادات الاسلامية (انظر الطبرى ١٦/٣ والبخارى ١٧٦/٥)]

والطبقات ٢/٨٦].

[قدوم اللاجئين إلى الحبشة]

عاد محمد بقواته المنتصرة الى المدينة متوجاً بالأمجاد ، ومحملاً بالغنائم (١) . وما أن وصل إليها حتى عاد من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومن معه من اللاجئين فقبله محمد بحنان وقال وهو فى تدفق المشاعر [ما أرى بأيهما أسر ، بفتح خبير أم بقدوم جعفر] . (٢) .

وكان قد كتب من قبل إلى ملك الحبشة يطلب إليه رد اللاجئين وأن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان . لقد كانت خطة سياسية كان يأمل من ورائها أن يخفف كراهية ألد أعدائه وأشدهم بأساً . وقام الملك بمراسم الزواج بنفسه (٣) وقرب من عرشه أم حبيبة وغالب بن الليث ابن عم محمد (٤) . وألقى هذا الخطاب « الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . لقد كتب إلى رسول الله يطلب منى أن أزوجه أم حبيبة . وإنى ألبى رغبته بسرور عظيم ، وإنى أقدم صداق العروس أربعمائة دينار من الذهب » .

[حذف الكاتب من خطبة النجاشي بعد قوله (عبده ورسوله) عبارة هامة هي وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ﷺ] .

ثم سكب النجاشي النقود أمام الحاضرين ، وأضاف إليها هدايا تليق بالفخامة الملكية لترسل إلى محمد . وتسلمها محمد من يد جعفر ودخل بيئت أبي سفيان .

(١) أهر الفدا ص ٩١ - [ص ١٤٨] .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٢ . والدرر ص ٢١٨ وأخرجه الحاكم ٢/١١٤ والطبراني فى الكبير عن الشعبى باسناد مرسل صحيح . وقد وصله الحاكم من طرق أخرى عن الشعبى عن جابر] .

(٣) عبد الباقي - تاريخ الحبشة الجزء الثانى الفصل الثالث .

(٤) [وقال ابن هشام وابن سعد والبيهاقى : زوجه إياها خالد بن سعيد ابن العاصى وأصدقها النجاشي ٤٠٠ دينار (ص ٥٢٢) التهذيب - والطبقات ٨/٦٨ - ٦٩] وذكر ابن عبد البر المهاجرين إلى الحبشة ولم يأت فيهم اسم غالب بن الليث كما لم يذكره ابن هشام (الدرر ص ٥٠ - ٥٤) ولم يذكره ابن سعد كذلك فى قائمته (الطبقات ١/١٣٦ وتهذيب ابن هشام ٣٦١/٣٦٣ وص ٩٢ والأنوار المحمدية ص ١٥٣) .

[إشراك اللاجئين فى غنائم خيبر]

واقترح محمد على جنوده أن يشركوا اللاجئين فى الغنائم التى استولوا عليها من اليهود فوافق الجميع عن طيب خاطر . ووجد هؤلاء البؤساء فى كرم المؤمنين عوضاً عن الأموال التى كانوا قد تركوها [حين هاجروا] حفاظاً على دينهم .

[عام رسل النبى وكتبه : سنة ٧ هـ .]

كان محمد قد أخضع لسلطانه جزءاً من الشعب العربى ، وقضى على أمة اليهود [١٩] (١). فبدأ يظهر تطلعاته وطموحه - كان موقراً كنىي ، ومطاعاً كقائد ، ففكر فى تجربة قوته [١٩] وفى إرسال سفراء له إلى الملوك . وأعد لهذا الغرض خاتماً يحمل هذه الأسطورة [١٩] « محمد رسول الله » . [كبرت كلمة خرجت من فم سفارى . « أسطورة هذا الدين الخالد الذى تتطلع الدنيا الآن الى تعاليمه متحسرة أملة فى الانتقاذ بحبله المتين [٩] .

ولما كانت هذه الخطوة ذات أهمية قصوى ، فقد صعد المنبر الذى تعود أن يعظ منه الشعب ، وأعلن عن عزمه أمام الناس ، فبعد أن أثنى على الله وشهد شهادة الإيمان ، نطق بهذه الكلمات [أيها الناس : إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم] فصاح المهاجرون : « يا رسول الله ، انا نشهد السماء على أننا نستطيعك حتى الموت مرنا ونحن متأهبون للرحيل » .

[كتاب لكسرى وعامله باليمن]

وكان أول الملوك الذين أرسل إليهم محمد سفراء ، هو كسرى ملك الفرس . اذ قدم إليه عبد الله ابن حذافة [السهمى] خطاب اعتماده [١٩] (٢) فأحضر كسرى ترجمانا يقرأه له وكان

(١) أبو الفدا ص ٩٢ [ص ١٤٨] والعبارة مفتراه على أبى الفدا انظر ص ١٤٨ من أبى الفدا والفصل السادس من الأنوار الحمديّة ص ١٦٥ ثم متى كان لليهود أمة ؟ انهم كانوا نفايات مطاردة من الدولة الرومانية تنقصها مقومات الأمة . ولكن للكاتب غرض خبيث فى تقرير كيان إسرائيلى بالمدينة يثير به دموع اليهود ويوجه به أنظارهم إلى مثرى رسول الإسلام حتى يكونوا عوناً للاستعمار فى حربه للإسلام وشعبه .

(٢) أبو الفدا ص ٩٣ [وفى نسختنا ص ١٤٨ وفى صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٨٠ للقلقشندي المتوفى سنة ٣٣١ هـ ذكر جميع هذه الكتب ج ٦ ص ٢٧٦ : ٢٨٠ ط ١٩١٣ - وكذا فى زاد المعاد لابن القيم وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٩ ط القاهرة ١٣٣٧ هـ والطبرى ج ٣ ص ٨٤ وما بعدها ط ١٣٢٦ هـ .]

يبدأ بهذه العبارات « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس » فاستشاط غضباً من هذه المقدمة - وكان لا يزال يتمسك بزهو حكام الأمة - ورأى في كتابة اسم محمد قبل اسمه إهانة له ، وأخذ الكتاب ومزقه وهو يقول : (أهكذا يتجرأ عبد ويكتب إلى سيده ؟) ولما نقلت هذه الكلمات إلى محمد قال : « سوف يمزق الله ملكه » ورأى كسرى أن جرأة من اسماء عبدا لم تجد العقاب المناسب . فكتب إلى « باذان » عامله باليمن - ليرسل إليه على الفور هذا المجنون الذى جعل من نفسه نبياً فى إقليم الحجاز (١) فأسرع « باذان » فى إرسال رسولين إلى محمد ليبلغاه أوامر سيده . وقدم الرسولان الى محمد فوفقا يرتجفان رعباً ، وأرادا ابلاغه موضوع الرسالة فأجل مقابتهما إلى اليوم التالى من غير أن ينصت لهما . وأثناء الليل - إذا صدق الكتاب المسلمون - جاءه الوحي فأخبره المبعوث السماوى بموت كسرى (٢) الذى قتله ابنه « شيرويه » (٣) . وفى الصباح المبكر أحضر الرسولين وأخبرهما بالنبأ . وقال لهما : « اعلمنا أن دينى وصولجاني سيتمادن الى حيث يمتد ملك كسرى . اذهبا وقولا لباذان أنى أدعوه الى اعتناق الإسلام » ولما وصلا إلى باذان أبلغاه بالرسالة (٤) وبعد بضعة أيام تلقى باذان من شيرويه كتابا يخبره بموت أبيه وبتوليهِ العرش من بعده ، وينهاه عن إزعاج النبي . تأثر باذان من تلاقى الأحداث وظن أن فى ذلك إعجازاً . وأسلم مع كل الفرس الذين كانوا فى حاشيته .

[كتاب النبي الى هرقل]

وكان هرقل ثانى الملوك الذين أرسل اليهم محمد سفراء (٥) ، فقدم إليه « دحية » خطاب إعماده [١٩] . لم يكن خطاب اعتماد كما قال سفارى الذى يصفى على النبي وأعماله صفة الملوك وطابع سياسة العصر الحديث لينقل ذهن القارىء بعيداً عن تصور مقام النبوة المهيب الى صورة الملك بأطماعه وزينته [. فتسلم القيصر الكتاب

(١) الحجاز هو جزء من الجزيرة العربية الصحيرية وتقع المدينة فى هذا الاقليم .

(٢) كسرى هو الملك الثالث والعشرون على الفرس من أسرة الساسانيين . وكانت هجرة محمد فى العام الثانى والثلاثين من حكمه . وفى العام الثانى من قيام أمبراطورية هرقل (أبوالفدا) [ص ٦٩] .

(٣) قبل أن يموت هذا الملك الذى ملأ الشرق في سنوات ملكه الأولى بضجيج انتصاراته، قال له شيرويه لا تندش من أنى ألتطخ يدي بدمك. فقد قدمت إلى المثل فى قتل الأب وتذكر أنك بعد أن أحرقت عيني أبيك هرمز بالحديد المحمى قتلته. فلو أنك كنت قد أحترمت حياة أبيك لاحترم ابنك حياتك « عندئذ أعطى إشارة إلى أجناده قتلوه (أبوالفدا حياة كسرى) [ص ١٤٨] . (٤) (٥) أبو الفدا ص ٩٤ [١٤٨ و ١٤٩] .

فى احترام وفتحه وكان نصه الآتى (١) :-

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] من محمد بن عبد الله - رسول الله - إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين [وفى رواية الأريسيين] . (الفلاحين الوثنيين) «وأيأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون» . [وبعد أن قرأ هرقل الرسالة (٢) وضعها باحترام على وسادة وتحدث ودياً مع دحية ولما أشيع السفير فضوله من الحديث رده هرقل مع هدايا عظيمة .

[كتاب النبى الى المقوقس وجريج بن متى]

وذهب حاطب سفيراً الى المقوقس (٣) عامل هرقل على مصر . وكان هذا الحاكم قد اتخذ لقب أمير القبط (٤) وكان يعتبر السند السرى لليعقوبيين ، وكان يكره الروم الذين كانوا يمنعونهم من أن يمارس شعائر عقيدته علانية . ولقد استفاد من الاضطرابات التى نتجت عن الحروب التى شنها أمباطوره ضد الفرس ، واحتجز القبائل التى كان مكلفاً بأن يوصلها إلى القسطنطينية . كان يخشى على حياته من ذلك ، فلم يرد أن يثير على نفسه عدواً جديداً . فاستقبل سفير محمد بتكريم وحفاوة وقرأ خطابه ورد عليه بالآتى : إلى محمد بن عبد الله من

(١) أحمد بن يوسف [والطبرى ج ٢ ص ٨٧ ط ١٣٦٢] .

(٢) أبو الفدا ص ٩٤ [وأخرجه البخارى ومسلم عن ابن عباس والأنوار المحمدية ص ١٦٦ والطبرى ٨٧/٣ ط القاهرة سنة ١٣٦٢] .

(٣) فى العام التاسع عشر من الهجرة وفى خلافة عمر أخضع العرب مصر . وتكرر المقوقس للروم وانحاز فى جانب عمرو بن العاص قائد المسلمين ومعه جميع الأقباط ، وحصل على حرية ممارسة الديانة المسيحية هو وأتباعه بشرط أن يدفعوا الجزية الى الخلفاء (يوتخيوس) ولقد حافظ العثمانيون على نفس الامتيازات بنفس الشروط . وبملك الأقباط كنائس يمارسون فيها شعائرهم . ولقد حضرت قداساً فى كنيسة جميله بالقاهرة وهم يتبعون الطقوس القديمة . وهم يتناولون القربان من كلا النوعين . وعند الخروج من المائدة الربانية يجلسون على المنضدة فى الكنيسة .

(٤) ابن البطريق - يوتخيوس المجلد الثانى ص ٣٠٢ .

المقوقس أمير القبط :

« قرأت كتابك الذى تدعونى فيه إلى الإسلام (١) . ولكن هذه الخطوة تحتاج إلى تفكير وتدبر . وكنت أعلم أنه سيظهر نبى ولكنى كنت أعتقد أنه سيظهر فى الشام . ومهما يكن من أمر فقد استقبلت سفيرك بحفاوة . وسوف يقدم لك هدية منى فتاتين قبطيتين من سلالة نبيلة . وضممت إلى هذه الهدية بغلة بيضاء وحماراً (٢) ذا لون رمادى فضى ، وملابس من الكتان المصرى وعسلا فاخراً وزبدة . »

[كتاب الرسول إلى النجاشى]

وقبل ذلك بوقت قصير ، كان محمد قد كلف عمرو بن أمية سفيره لدى ملك الحبشة بأن يسلمه الخطاب التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . الحمد لله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى بن مريم هو روح الله وكلمته (٣) ألقاها إلى مريم العذراء الطيبة الحصينة البتول فحملت بعيسى فخلقته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فأنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك إلى الله تعالى ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفر ومعه نفر من المسلمين . فخذهم تحت رعايتك ووفر لهم حاجاتهم . وانزع عنك زهو الملك . فإنى أدعوك أنت وبنى أمتك أن تؤمنوا بالإله الأعظم . ألا هل بلغت اللهم فاشهد! اللهم إجعل نصيحتى نافعة! . والسلام على من اتبع الهدى(٤) . »

(١) أحمد بن يوسف - التاريخ العام - القسم ٤ هـ الفصل الثانى .

(٢) الحمير المصرية معروفة بقوتها وسرعته . ويتم تدريبها فى وقت مبكر على السباق وتجرى كالحصان انها الركوبة العادية للشعب . ومنها ما يباع بستمائة جنيه .

(٣) عبد الباقى الجزء الثانى من كتاب امتيازات الحبشة [والانوار المحمدية ص ١٦٧]

(٤) عبد الباقى . تاريخ الحبشة [منها زيادة فخذهم تحت رعايتك ووفر لهم حاجاتهم وانزع عنك زهو الملك ، (أنظر الأنوار المحمدية ص ١٦٧)] .

ولما تسلم ملك الحبشة هذا الخطاب وضعه فوق عينيه ونزل من عرشه وجلس علي الأرض ونطق بشهادة المؤمنين ورد عليه بالآتي :-

بسم الله الرحمن الرحيم

« إلى رسول الله من النجاشي [أصححه] السلام عليكم يا رسول الله ورحمة الله وبركاته أشهد أن لا إله إلا الله الذي هداني الي الإسلام . يا رسول الله لقد قرأت الرسالة التي بعثت بها إليّ .. وإن ما تقوله عن عيسى هو الإيمان الحق . هو ذاته لم يزد على ذلك شيئا . وأشهد علي ذلك رب السماوات والأرض ولقد عنيت كل العناية بوصيتك . ولقد أستقبلت ابن عمك وأصحابه في بلادى بكل حفاوة وهم يتمتعون فيها بحقوق الضيافة . إني أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا واني يارسل الله قد أرسلت اليك بابني أريحا . وإن شئت أتيتك بنفسى (أقدم الولاء لقدسياه رسالتك (١)) واني أشهد أن ما تقوله لحق [والسلام عليك ورحمة الله] .

[كتاب النبي الي أمير الغساسنة والبلقاء]

ولم يتسلم رسالة يمثل هذه الرقة من الحارث بن أبي شمر الغساني الذي كان ملكه يمتد في صحراء الجزيرة العربية حتى تخوم الشام (٢) اذ سلم اليه شجاع (٣) خطاب اعتماده فقرأه وقال له أرجع الي سيدك وسوف أرحل إليه بعد قليل بالجواب « فقال محمد : «فليهلك ملكه » . [وتقع البلقاء شمالي مؤتة ودون دمشق] .

[كتاب النبي إلى ملك اليمامة]

أما [هوزة بن علي] ملك اليمامة فقد حضر بنفسه ليقابل النبي وأسلم ولما عاد الي بلاده أرتد فأرسل اليه محمد سليطا [هو سليط بن عمر وأحد بني عامر بن لؤي] برسالة ولما

(١) [ما بين القوسين زيادة من الكاتب علي مراجعنا العربية] .

(٢) [أبو الفدا ص ٩٦ . ١٤٩/١] .

(٣) [أبو الفداء ص ١٤٩] هو شجاع وهب الأسدي .

قرأها قال للفسير « لقد سبق لى أن أسلمت وعاونت النبى ، ولكنى سوف أذهب وأشن الحرب علي المدينة، اذا عاد يحدثنى ثانية عن دينه [عبارة المؤرخين « إن جعل الأمر لى من بعده سرت إليه ونصرته وإلا قصدت حربه ، [فرد محمد بقوله : [لا ولا كرامة . اللهم أكفنيه فمات بعد قليل] .

[كتاب النبي إلى أمير البحرين]

(١) وكان من أواخر من أرسل اليهم سفراء هو المنذر [بن ساوي] حاكم البحرين (٢) وكان يحكم البلاد التي كانت علي امتداد الخليج الفارسي . وعندما سلمه العلاء [بن الحضرمي] خطاب النبي قرأه باحترام واعتنق الإسلام (٣) واقتدت به بلاده . وبعد ذلك حقق المنذر انتصارا ساحقاً علي الفرس .

[عمرة القضاء : فى ذي الحجة سنة ٧ هـ]

استتب السلام في المدينة اذ اعتنق العرب الإسلام وأخضع اليهود فلم يعودوا يرفعون رؤوسهم . واختار محمد هذا الوقت لزيارة الأماكن المقدسة إذ أن المادة الرابعة من صلح الحديبية تمنحه ذلك الحق . فخرج من المدينة فى شهر ذى القعدة يتبعه موكب كبير فيه جنود مدججون بالحديد وفرقة من الرعاة تسوق الهدى الذى تزينه الزهور . وكان في هذا مشهد حربي وسلمى فى آن واحد (٤) . وبهذه الهيئة دخل محمد الأرض الحرام وكان عبد الله مروض الجياد يتقدمه وهو يمسك خطام بعيره فى يده . وكانت أنظار المسلمين على نبيهم ترقب أقل حركة فقد كان كل شيء مثيراً عندهم وكل شيء مهما عنده .

وقصد الكعبة وقبل الحجر الأسود فى خشوع وطاف بالبيت العتيق وزار الصفا وتل المروة

(١) أبو الفداء ص ٩٦ [١٤٩] .

(٢) جناب .

(٣) أبو الفداء ص ٩٨ [ص ١٤٩] وقد روى ذلك الواقدي في آخر كتاب الردة بسنده عن أبي حنيفة كما في نصب الراية للزيلعي ٤/ ٤١٩ - ٤٢٠ والأنوار المحمدية ص : ١٦٩ .

(٤) جناب ص ١٨٢ [وأبو الفداء ص ١٤٩ والطبرى ٣/ ٤٣ والجميع لم يذكروا مشهد الحرب ولكنها زيادة [المستشرقين] .

وأذن للصلاة في مقام إبراهيم . ومكث ثلاثة أيام يؤدي مناسك الحج التي فرضها الدين وبعد أن ذبح الهدى ذهب يعسكر علي بعد ستة أميال من مكة . وكانت مكة خالية فقد انسحب غالبية السكان الى الجبال المجاورة . وكان يستطيع الاستيلاء عليها ولكن الاخلال بميثاق تعاهد عليه علانية يؤدي الى القضاء علي قوته من أساسها . إن طموحه الذي كانت تنظمه السياسة لم يكن يعميه ولم يمسك عليه أعداؤه فرصة واحدة أخل فيها بأى إتفاق .

[زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية]

ويحرم الدين الاقتراب من النساء في فترة الحج (١) ولكن محمدا بناء علي امتياز يليق بنبي، تزوج ميمونة بينما كان لا يزال يرتدي ملابس الإحرام ولكنه لم يدخل بها الا بعد أن اتم الحج .

[هكذا افترى الكاتب ، والروايات الصحيحة تقرر أن ميمونة تزوجها النبي في مكان يسمى سرف قبل الاحرام بالعمرة . ولكنه يميل الى الروايات الضعيفة . وبنفس المكان الذى تزوجت فيه دفنت رضي الله عنها . ولابن القيم في زاد المعاد كلمة للشوكاني في نيل الأوطار تحقيق كاف للمسألة، وكذلك بسط ابن عبد البر المسألة في كتابيه ، التمهيد، والاستيعاب ص ٧٨]

وبعد أن تحقق للمسلمين مطلبهم الدينى عاد محمد بقواته إلى المدينة

[إسلام صناديد ثلاثة]

عام ٦٢٢٣ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفداء - عام ٦٣٨ من ميلاد عيسى - عام ٨ من الهجرة - عام ٦٠ من ميلاد محمد .

قصد المدينة كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة . وكان الأول أعظم قائد عسكري بين العرب ، وكان يقود كتيبة الفرسان يوم أحد ، وجعل النصر يميل الى جانب قريش . أما عمرو بن العاص فهو الذي فتح مصر فيما بعد (٢) وهو الذى أرسل من قبل

(١) جناب ص ١٨٤ [وأبو الفداء ص ١٧٢] .

(٢) هو عمرو هذا الذى أحرق مكتبة الاسكندرية بناء على أمر عمرو وهى خسارة لا تعوض في الفنون =

في سفارة الى ملك الحبشة (١) يطالبه بتسليمه اللاجئين المسلمين . ولكن الملك رفض طلب عمرو بعد أن استماله جعفر الي جانبه وأما عثمان فقد كان حارس الكعبة وكان يتمتع بنفوذ قوى بين المشركين . كان هؤلاء الأشراف الثلاثة قد نظروا الي المستقبل وتبعوا لقاها اليهود وحليف الرؤوس المتوجة ومشروع الأمة - بالظفر والنصر القريب . فأحدهم محارب طموح رأى قريشاً مكبلة بالقيود وهو يريد أن يحارب تحت قيادة نابهة لكي يظهر مواهبه علي مسرح أكبر . والثاني بعد أن أوفد مرتين يطالب برؤوس أصحاب محمد كان يخشى علي حياته . وعثمان الذي كان يتمتع بأشرف وظيفة في الجزيرة العربية كان يسعى الي تلافي قرب زوال حظوته . أسلم ثلاثتهم وأن اختلفت دوافعهم وبايعوا نبهم علي الولاء والطاعة . فأكد لهم أنه نسي الماضي وداعب اطماعهم وأجزل لهم العطاء من النعم .

[هكذا بغير دليل يرمي بالنوايا السوداء التي تملك عليه نفسه عباقرة أسهموا في تغيير مجري التاريخ وأحالوا ظلام البشرية الى نور .]

[غزوة مؤتة : في جماد الأولى سنة ٨ هـ]

(٢) كان محمد قد بعث الحارس بن عمير إلى أمير بصري يدعو إلى الإسلام . ولما وصل السفير إلى مؤتة ، نزل يستريح من عناء السفر وهو يجهل المصير الذي كان ينتظره . ففاجأه عمرو بن شرحبيل [هكذا قال سفاري ولكن في الطبقات (٩٢/٢) شرحبيل بن عمرو القسائي] عامل هرقل علي المدينة ، واغتاله . والحارث هو الوحيد الذي قتل من بين سفراء محمد - فقرر محمد أن يثأر لقتله . وجهز ثلاثة آلاف مقاتل . وأمرهم بالسير حتى مؤتة - وهي مدينة بالشام جنوباً وفي مواجهة حصن الكرك (٣) - وأن يدعوا سكانها إلى الإسلام ، فإن رفضوا فعليهم أن يمحطروهم بالحديد والنار داخل بيوتهم .

= والمعارف الإنسانية [وما قاله سفاري عن المكبة كذب علي التاريخ تصدى لدفعه غيره من المستشرقين المصنفين وقد ذكرنا ذلك] .

(١) جناب [وأبو الفداء ص ١٢١] .

(٢) أبو الفداء: ص ١٠٠ [١٥٠ / ١] والطبري ٣٦ / ٣ والأنوار المحمدية ص ١٠٣ والبخاري ١٨٣ / ١٨١ / ٥ .

(٣) أطلق الفرنسيون على هذا القصر Crac de Mont - Real وهو قريب من الأردن وقد استولوا عليه بعد =

وكانت أول مرة يحمل فيها العرب السلاح ضد الروم . ولقد نتج عن هذه الشرارة حريق هائل دام ثمانمائة عام تلتظى منه الشرق . فمنذ تلك اللحظة ظلت الحرب بين الأمتين مشتتة حتى الوقت الذي استولى فيه العثمانيون بقيادة محمد الثاني علي القسطنطينية^(١).

[تعيين القادة]

ولقد سلم محمد قيادة الجيش إلي زيد - ابنه بالتبني - وأعلن في حضور جنوده أنه إذا أصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب . فان أصيب فعبد الله بن رواحه . وسار المسلمون بقيادة زيد^(٢) تغذيههم الرغبة في الانتقام ، وعبروا ببسالة الرمال الحارقة والصحراء القاحلة حتى وصلوا مؤتة بعد جهد جهيد وعسكروا بالقرب منها . وعندما بلغ العدو خبر اقترابهم تجمع في جيش بلغ مائة ألف مقاتل متأهب للانقضاض عليهم . فعقد مجلس للتشاور وكان رأى الكثرة هو تلافى القتال وارسال كتاب الي الرسول بطلب المدد^(٣) . ولكن هذا الرأى لم يعجب ابن رواحه فقال : [يا قوم والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون - الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة . ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا فانما هي إحدى الحسينيين إما ظهور وإما شهادة^(٤)] .

[المعركة]

وتغلب هذا الشعور على الموقف . وأعدت العدة للقتال . وغدا المؤمنون يكونون بنيانا يتألف من ثلاثة آلاف رجل شديدي المراس في القتال . أمضوا سبع سنوات من

= فتح أورشلیم عام ١٠٩٨ (عام ٤٩٢ هـ) وبعد ٨٩ عام هزم صلاح الدين الفرنسيين قرب بحيرة طبرية، واستعاد القصر وحصونا أخرى كثيرة . وفي هذه المعركة وقع في الأسر « ريجي » ملك أورشلیم وأخوه « خيمر » سيد جبل الفرات - « جفروا » أمير رينو وسيد قصر الكرك .

(١) كان ذلك عام ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) .

(٢) [أبو الفدا ص ١٥٠] وجناب .

(٣) جناب ص ١٩٠ ، [والطبري ٣/ ١٣٧]

(٤) [الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٢٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٨ والطبري ص ٣٧: ٣٨]

الانتصارات قد رفعت من معنوياتهم وأصبحوا لا يقهرون . ولكثرة ما قهروا أعداءهم فلم يخفهم مائة ألف رجل . واندفعوا في المعركة التي كانت طويلة ودامية . وسقط زيد وهو يقاتل في الصفوف الأولى بعد أن ائخنته الجراح . فحمل جعفر الراية وأخذ يدافع عن مجد المسلمين فقطع جندي يده التي يحمل بها الراية فحملها بيده الأخرى . فلما قطعت حملها بعضديه حتى اللحظة التي سقط فيها فوق الراية . فحمل عبد الله الراية المملوطة بالدماء ، وأبلى بلاء حسناً في صد الأعداء عنها حتى سقط تحت ضربات العدو كما سقط القائدان السابقان . وأخذ المسلمون يولون الأدبار . فأسرع خالد وحمل لواء الإسلام ونادى من حوله المقاتلين الشجعان . واستؤنف القتال بعنف شديد . وبذل خالد جهداً أخيراً فاخترق كتائب الأعداء وشق قلب جيشهم وأجبرهم على الفرار . ولم يحل بينه وبين النصر سوى الليل . وبعد أن انتخب قائداً بالإجماع عسكر في ساحة القتال . وقبل الشروق كان جيشه يحمل السلاح ويتقدم في نظام . وعندما أصبح على مرمى بصر العدو لجأ إلى الخدعة والمناورة الحربية . فوسع صفوفه وأجرى فيها تقدماً وتأخراً . وبحيل عظيمة استطاع أن يوهم العدو المذهول أنه يقود جيشاً ذا عدد وفير .

[هزيمة الروم وعملائهم]

اندهش الروم واعتقدوا أنه قد وصلهم مدد قوى فاستولى الرعب على قلوبهم ، ولما هاجمهم خالد أبداوا مقاومة ضعيفة وتشتتوا مخلفين وراءهم أمتعتهم ليأخذها العدو . ورجع خالد بقواته الظافرة محملاً بالغنائم ومتوجاً بالمجد ، لقد أضاف إلى عمله كقائد بارع بطولة قل نظيرها . ولقد كسر أثناء القتال تسعة أسيايف في يده (١) وكان القواد الآخرون قد ابلاوا بلاء لا يقل عن بلائه جلالاً واقداماً . وقد وجدوا في جسم جعفر خمسين ضربة بسيف أو طعنة برمح وكلها من الأمام .

[البيان الحربي عن المعركة]

ولما علم محمد بانتصار جيشه في مؤتة ، جمع الشعب وقال [أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتي قتل شهيدا . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتي قتل شهيدا ، ثم

(١) جناب ص ١٩٠ [البخاري ١٨٣/٥ عن خالد بن الوليد]

صمت رسول الله ﷺ حتي تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال ﷺ ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتي قتل شهيداً . ثم قال ﷺ . ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتي فتح الله عليهم] .

(١) عندئذ فاض الشعب بالبكاء حتي استولت الشفقة علي محمد ، واستأنف حديثه قائلاً : وأخيراً جاء مقاتل (٢) هو « سيف من سيوف الله » وتناول الراية وأجبر النصر علي أن يكون في جانب المسلمين .

[الحزن على القادة]

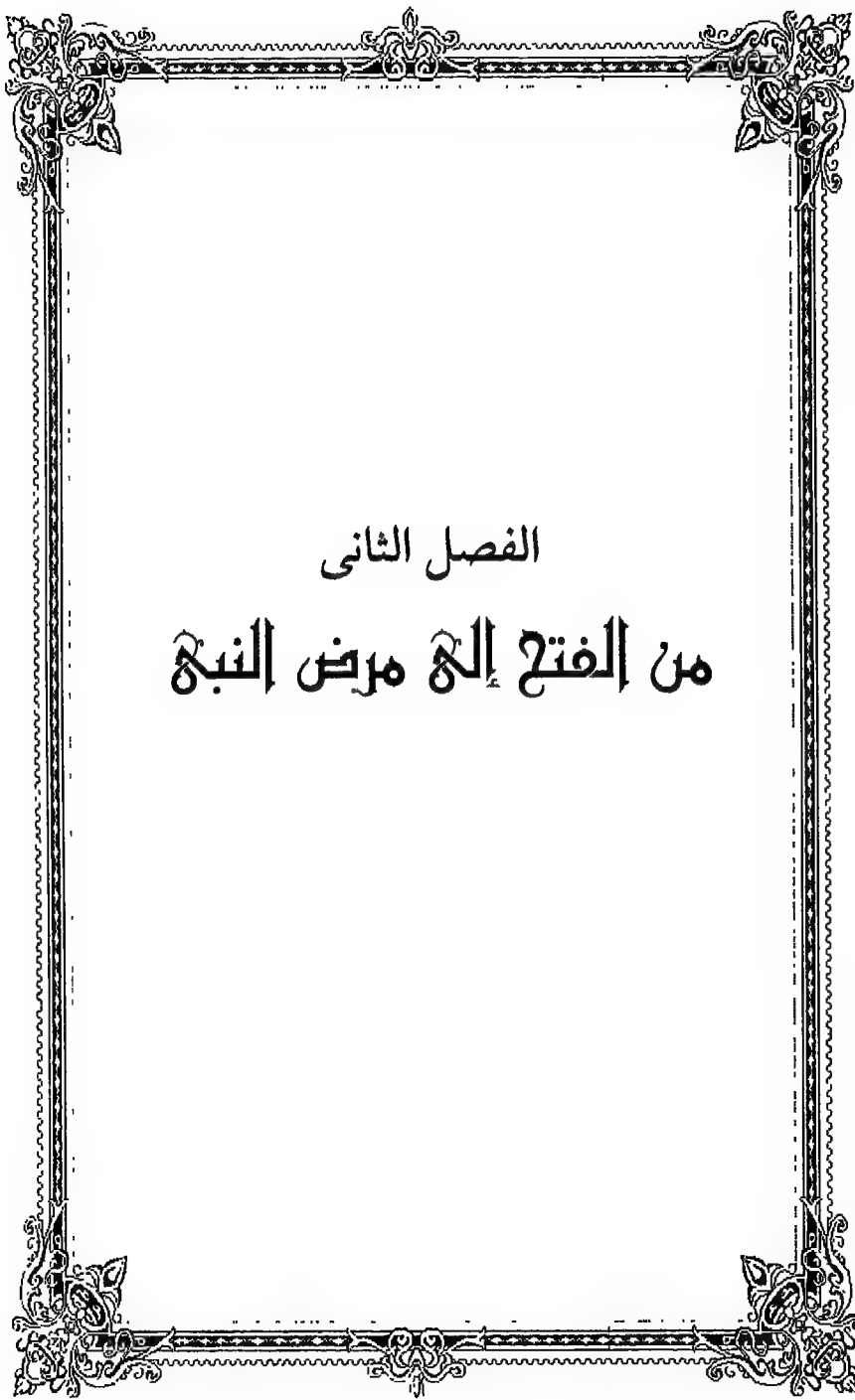
لقد عكر صفو الفرحه بالنصر فقدان القواد الثلاثة الذين حملت أجسامهم الي المدينة حيث كان الناس يرون الجروح المجيدة وقد غطتها . اثر هذا المشهد في أهالي المدينة وانهمرت دموعهم وساد الحداد [٩] الجميع حتي أن محمد ذاته لم يستطيع أن يتمالك نفسه فشارك الناس في مصابهم وحزن علي الصديقين اللذين عاشا معه منذ الصبا . ولقد أخذ ابن جعفر بين يديه وضمه الي صدره في حنان ونداه بدموعه ولما قابل ابنه زيد أخذها بين ذراعيه ولم يستطيع أن يكتم نحيبه . ولما رآه سعد في هذه الحال قال : « يا رسول الله ماذا أرى ؟ قال : انما هي عبرات الصديق بفقد صديقه » (٣) ولقد أقيمت جنازات فاخرة للقواد المقاتلين وبعد ان انتهى موكب الدفن [كما تخيل الكاتب . والامر لم يتجاوز التجمعات العادية لتقبل العزاء أو إبداء النساء مشاطراتهن نساء الميت في احزانهن . ثم رثاء الشعراء كحسان بن ثابت] .

أراد محمد أن يخفف من حزن الناس فقال « أيها المسلمون لا تبكوا جعفر بعد اليوم . ان منزله عظيمة . لقد منحه الله جناحين يطوف بهما الجنة الفسيحة حيث يجد ما تشتهي نفسه . »

(١) البخارى [١٣/٧] والطبرى ١/٣ و تهذيب ابن هشام ٣٧٠/٣٧٠

(٢) لقب خالد فيما بعد « بسيف الله » واستمر هذا القائد الشهير - هازم محمد في معركة أحد ، والروم في مؤتة - في خلافة أبى بكر وخلافة عمر في تحقيق انتصاراته العسكرية . وكان اللقب الذى منحه له محمد قد بلغ أعداءه . اذ أن « ثورفان » (ص ٣٨٧) يتحدث عن الأمير خالد بلقبه « سيف الله »

(٣) جناب [وابن هشام وابن سعد في الطبقات والبخارى ١٨١/٥ ولم يذكر قصة ابنه زيد] .



الفصل الثانى
من الفتح إلى مرض النجدة

[الفصل الثانی]

[من الفتح إلى مرض النبي]

[فتح مكة : ١٠ رمضان سنة ٨ هـ]

(١) وقع حادث كانت له آثار كبيرة في صرف الناس عن الحزن وعن الآلام . فقد دخل بنو بكر في عهد قريش طبقا لما كان يسمح به صلح الحديبية . ودخلت خزاعة في عهد محمد ، ودفعت الكراهية التي كانت تسود كلا من هاتين القبيلتين للأخرى ، إلى اتخاذ هذا الموقف المتعارض . فلما رأى بنو بكر أعداءهم ينعمون بالراحة في ظل السلام تحركت فيهم العداوة القديمة . وتغلبت سهولة الانتقام عندهم على قداسة القانون . فطلبوا من قريش أن تمدهم بقوة ، وهاجموا خزاعة . وفاجأوا إحدى قراها . ونكلوا ببعض سكانها ولاذ الباقي بالفرار (٢) فشكا الحلفاء المنكوبون إلى النبي فوعدهم بالمساعدة .

[وساطة أبي سفيان]

وكانت قريش يرسلها بقوات منها الى خزاعة قد نقضت صلح الحديبية . ومالبت قريش أن أدركت الآثار الوخيمة لسلوكها . ولكي تحول دون هذه النتائج المرتقبة ، أوفدت أبا سفيان الى المدينة وفوضته في أن يقدم كل ما يمكن لإرضاء النبي . لكن هذه الخطوة كانت بلا جدوى . فقد كان محمد سعيدا بأن وجد مثل هذه الفرصة المواتية لتحقيق أغراضه ، وأراد أن يقتنصها بحجة أن يفنى بحق حلفائه . وكان قد أقسم بينه وبين نفسه على أن يحطم كبرياء المشركين وأن ييسط سلطانه على مكة .

[تعقيب]

[ولا ندري من أطلع سفارى على يمين هوسر غيبه ﷺ في طوايا قلبه ؟! ويكذب سفارى في هذا عفوه الشامل في أوج انتصاراته وموقفه من سعد بن عبادة كما سيأتى ، وإنما أراد الكاتب إعطاء ظلال صورة شرير دموى المزاج لمن قال الله فيه « حريص عليكم » ولمن قال لعمر حين طلب منه يوم الفتح أن يؤدب كبار أعدائه : يا عمر مثلى ومثلكم كما قال يوسف لأخوته ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .]

(١) أبو الفداء ص ١٠٣ = [١٥٠/١ والانوار الحمدي ص ١٠٧ والطبرى ج ٣ ص ٤٢] .

(٢) أبو الفدا .

وصل أبو سفيان إلى المدينة، ونزل عند أم حبيبة ابنته وزوجة محمد . وطلب منها أن تشفع له . ولما أراد أن يجلس على فراشها (١) [فى النص الفرنسى « على السرير » طوته بسرعة فقال لها : « يا ابنتى ؟ أتفضلين هذا الفراش على أهلك ؟ فردت عليه أم حبيبة « إنه فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك » شعر أبو سفيان بإهانة وخرج يلعن ابنته . ودخل حجرة النبى وبعد أن امتدحه طلب منه التفاوض ولكنه لم يحصل منه على كلمة (٢). ولقد اشعره هذا الصمت بمقدار الخطر المنتظر . فرجع السفير ذليلاً إلى مكة واخبر قريشا بفشل مساعيه .

[حاطب واسرار الحرب]

وبينما كانت قريش تتشاور فيما ينبغى لإجراؤه . وكان محمد يقوم بتجهيزات كبيرة، وكان قد طلب من حلفائه الحضور إلى المدينة. وفرض على جميع المسلمين أن يحملوا السلاح. ولما كان قد قرر أن يهاجم المشركين على غرة، فقد منع إقامة أى اتصال معهم . ولكن حاطباً خالف هذا الأمر، رغبة منه فى إنقاذ أسرته فكتب هذه الكلمات. « من حاطب بن ابى بلتعة الى أهل مكة. اعلموا أن رسول الله يعد العدة لمهاجمتكم . استعدوا للدفاع » وتولت سارة خادمة بنى هاشم توصيل الخطاب فى مقابل عشرة دنانير ذهبية . واكتشف محمد الخيانة. (٣) وأرسل علياً والزبير فى أثر سارة وأدركاها على مسافة قريبة من مكة . وطلبا إليها تسليمهما الخطاب فأنكرتا . ففتشت دون جدوى . فغضب على ورفع سيفه وقال : إنه سيطيح برأسها ، فخافت سارة وفكت شعرها الطويل وسلمت إليه الخطاب مخبياً بداخله. وعرض محمد على حاطب دليل الخيانة « وسأله عن الباعث الذى دفعه الى مخالفة أمره فقال المذنب (٤) [أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله . ما غيرت ولا بدلت. ولكنى كنت أمراً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة . وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه] .

فصاح عمر « يا رسول الله ان حاطباً منافق وكافر. واثذن لى أن أضرب عنقه »، فقال النبى:

(١) لا توجد كراسى فى بيوت العرب وإنما يجلسون على أريكة . وفى المساء يفرشون مراتب تستخدم كالسرير وتطوى فى الصباح فتصبح حجرة النوم حجرة للاستقبال .

(٢) ابر الفدا ص ١٠٢، ١٠٣ [١٥٠/١ والطبرى ٦/٣] « والانوار المحمدية » ص ١٠٧

(٣) يقول بعض الكتاب المتحمسين ان جبريل نزل وأبلغه الخبر [وسفارى يكذب هذا الذى رواه ابر الفدا ١٥٠/١ والطبرى ٨/٣]، « والانوار المحمدية » ص ١٠٧.

(٤) ابر الفدا ص ١٠٣ [١٥٠/١] وتهذيب ابن هشام ٣٨١ بمعناه فى الدرر ص ٢٢٧ والطبرى ٣/١٥٧ والبخارى ١٨٤/٥.

١ وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (١) ولكن محمداً أراد أن يمنع الإقتداء بهذا المثل الذى كاد يؤدي الى نتائج خطيرة، فأنزل [١٩] من السماء هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ . يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي . تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ . وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢)﴾ .

[تحرك الجيش]

(٣) وبعد أن أتم محمد عدته تحرك من المدينة فى العاشر من رمضان .(٤) وكان المهاجرون والأنصار وبعض السرايا العربية يكونون جيشاً عظيماً (٥) . وتضخم هذا الجيش وهو فى مسيرته بانضمام قوات عديدة من القبائل الحليفة . وأصبح نفس القائد - الذى لم يكن فى وسعه أن يجمع يوم بدر سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً - يقود عشرة آلاف مقاتل تحت راية الإسلام . وسار الجيش فى سرعة وسرية حتى بلغ أبواب مكة قبل أن تعلم قريش نبأ تحركه من المدينة . وعسكر فى المساء بمر الظهران (٦) . وانتظر شروق الشمس حتى ينقض على المشركين . وأمر محمد بأن توقد عشرة آلاف نار من النيران . وعين عمر قائداً للمعسكر، وقام بالحراسة على أكمل وجه بحيث انقطع أى اتصال بالمشركين .

[بين أبى العباس وأبى سفيان]

وبدافع من الشفقة ومن الخوف على المصير الذى يتهدد وطنه ، خرج العباس أثناء الليل يتلمس أحداً يخبر قريشاً بأن الرعد يمزجر فوق رؤوسهم . وقابل أبا سفيان وحكيم [بن حزام] وبديلاً الذين خرجوا من مكة يتلقفون أخبار العدو . ولما أبصروا آلاف النيران تبدد ظلمات الليل عادوا أدراجهم مذعورين . فناداهم العباس : إلى أين تجرون ؟ قال أبو سفيان : ألسنت العباس ؟ قال : أنا هو - قال : وماذا أرى خلفك ؟ قال محمد جاء يزورك على رأس

(١) [البخارى ١٨٥/٥ وتهذيب ابن هشام ص ٣٨٩-٣٨٢- الدرر فى مختصر المغازى والسير ص ٢٢٧].

(٢) القرآن سورة الممتحنة : الآية الأولى .

(٣) أبو الفدا ص ١٠٣ [والأنوار ص ١٠٨ والطبرى ص ٥٠/٣]

(٤) جناب ص ٢٠٢ .

(٥) أبو الفدا ص ١٠٤ [١٥٩] وجناب [والأنوار المحمدية ص ١٠٨] .

(٦) وتقع على بعد أربعة أميال من مكة .

عشرة آلاف رجل . قال : وبم تنصحنى أن أفعل ؟ قال : أن تأتى على الفور تطلب الأمان . وعمل بنصيحته . ولما تعرف عمر - الذى كان يتولى قيادة حراسة المعسكر - على زعيم المشركين صاح : « الحمد لله . هذا هو أبو سفيان بين أيدينا من غير عقد ولا عهد » (١) وأسرع إلى النبي يطلب رأسه فشفع « العباس » لأسيره وأعطاه النبي كلمة الأمان وقال : اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأئتني به . فلما كان الصباح كان أبو سفيان فى خيمة النبي ، فقال له قائد المؤمنين : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال أبو سفيان : لا أشك فى ذلك أبداً . قال النبي : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : [بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه - والله - فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً] . فقال : العباس : ويحك آمن بالحقيقة وإلا فإن رأسك ... فانهار كبرياء أبى سفيان . واعتنق دين الأقوى ونطق بالشهادتين . وحذا حكيماً وبديل حذوه . وجذب محمد العباس بعيداً وقال له : خذ أبا سفيان عند مدخل الوادى حتى يرى قواتى وهى تتدفق أمامه . قال : بكل سرور ، ولكنه رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً (٢) . فوافق على نصيحته وأعلن هذا القرار « من داخل بيت أبى سفيان فهو آمن . ومن داخل المسجد فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن . ومن دخل بيت حكيماً فهو آمن » (٣) .

وصحب العباس زعيم المشركين إلى المكان المحدد . وكان مرور المسلمين أمامه يشبع فضوله دون أن يظهر عليه أثر لذلك . ولما مر حرس النبي مدججين بالحديد وبعيون فتاكة ومشية مزهوة تنشر الرعب ، سأل أبو سفيان . من هؤلاء المقاتلون ؟ فقال العباس « إنهم المهاجرون والأنصار الذين يصحبون الرسول فى كل مكان يقصده » فقال : إن ملك ابن أخيك اليوم أصبح عظيماً . فقال : إنها عظمة النبوة . عندئذ أطلق سراح أبى سفيان الذى ذهب الى المشركين ووصف لهم كل ما رأى ونشر عليهم الوجوم .

(١) أبو الفدا ص ١٠٤ و ١٠٥ = [١٥١] والطبرى ٣/٥٢/٥٣ .

(٢) أبو الفدا ص ١٠٥ = [١٥١] والطبرى ٣/١٥٤ .

(٣) [دخل بيت حكيماً زيادة ليست فى الدرر ص ٢٠٣ ولا ابن هشام (التهذيب / ٣٨٨) ولا الطبقات ٢/٦٨ والطبرى ٣/٥٤ وسيرة قبا بن هشام ٢/٦٨ وابن جرير ٣/٣٣٠-٣٣٢ مجمع للهيثمى ٦/١٦٥/١٦٧ والطبرانى وأبو داود ١/٢٤١ ومسلم ٥/١٧٢-١٧٣ من حديث أبى هريرة أنه قال (ومن ألقى السلاح فهو آمن) بدل (ومن دخل المسجد) وهى فقط فى رواية للطبرى عن عبد الوارث عبد الصمد عن أبيه عن أبان العطار عن هشام بن عروة عن عروة (٣/٥٤ : وأبان ضعيف) .

[تنظيم الهجوم]

وبعد أن أرسل محمد كلا من حكيم وبديل ، نظم جيشه بالطريقة الآتية : -
 أعطى فرقة للزبير [وهى المجنبية اليسرى] وأمره بأن يصعد المرتفعات التى تشرف على مكة وذلك عن طريق كدى . وأمر سعد [بن عبادة سيد الخزرج] أن يسيطر على التلال التى يخترقها طريق كداء . وكان على رأس الفرسان يحمل راية الإسلام ، وكان عليه أن يقف عند جبل الحجون [بأعلى مكة] إلى أن نادى سعد بهذه الكلمات التى تتضمن التهديد « اليوم يوم الملحمة : اليوم تستحل الحزمة ... » (١) .

وكان خالد قائدا على الحلفاء [وهم أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب] ويقود [المجنبية اليمنى] وكان مكلفاً بالنزول فى الوادى وبالسير نحو أسوار مكة . أما محمد فقد ظل فى المؤخرة وهو متأهب لإصدار أوامره بما يتطلبه الموقف . وكان القواد قد صدرت إليهم الأوامر بعدم القتال إلا إذا هوجموا . صدرت هذه الأوامر ثم تحركت القوات المختلفة . ولم يلق الزبير أية مضايقات فى جانب الجبال حتى وصل أبواب مكة من غير أن يستل سيفاً . أما خالد فقد وجد مقاومة فى السهل . إذ اعترضت طريقه بعض كتائب قريش وأمطروه بالسهم فهاجمهم خالد بسيفه وأجبرهم على الفرار ، وتبعهم حتى أسوار مكة . لاحظ محمد ضجيج المعركة وهو على قمة الجبل فصاح : ماذا أرى ؟ ألم أنهكم عن القتال ؟ قليل له : إن المشركين هاجموا خالدًا وهو يدافع عن قواته . فأرسل إليه أمراً بأن يحقن الدماء . (٢) .

[دخول النبى مكة]

ونزل من جبل الحجون . ودخل مكة عندما كست الشمس الأفق بضوئها . وكان على يحمل أمامه راية الإسلام ، وأبو بكر عن يمينه ، وزيد عن شماله ، وخلفه أسامة بن زيد . وانحنى بشدة شكراً لله الذى جعله سيد الأرض المقدسة وحرم إبراهيم . وقرأ بصوت عال سورة الفتح التى تبدأ بهذه الكلمات ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليفخر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً .. الخ ﴾ وبينما كان يخضع شعباً لم يعرف حتى تلك اللحظة سيداً ، كان شغله الشاغل هى الأفكار الدينية . كانت رأسه مطوقة بعمامة سوداء وجسمه مغطى ببردة إحرام وكان يلدو على هيئة مسلم ورع وليس كفاح لمكة .

(١) أبو الفدا ص ١٠٦ = [١٥١/١ والطبرى ٥٦/٣] .

(٢) جناب ص ٢٠٦ [وأبو الفدا ص ١٥٢] .

[تطهير الكعبة]

تيمم النبي الكعبة وكان أول ما عني به تحطيم ستين وثلاثمائة صنم تحيط بها من كل مكان [والواقع التاريخي أن جل الأصنام كانت في جوف الكعبة وليس كما قال سفاري] ، فكان يضربها بعصا كانت في يده وهو يردد: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ (١) . وبعد أن غطت آلهة العرب الأرض بأنقاضها ، قام وطاف بالكعبة سبع مرات ولمس بوقار الحجر الأسود (٢) وقبل أن يدخل الكعبة أمر بخلع صور النسوة (٣) وهى من بقايا ديانة الرجس . ولما رأى الصور التى تمثل إبراهيم وإسماعيل ويدهما الأزلام صاح [قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستسقم بالأزلام : ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين ﴾] حذف سفاري الآية من النص الفرنسى [وبعد أن حطم كل ما صنعت الخرافات ، دخل الكعبة هاتفاً : « الله أكبر » وصلى ركعتين . ثم اتجه إلى بئر زمزم التى كشفها الملك لهاجر ، فارتوى منها وتوضأ .

[مع الجموع المنهزمة]

أتم صلاته وجمع قريشاً وقال لهم (٤) : « لا إله إلا الله صدق وعده ونصره عبده وهزم الأحزاب وحده ، ومكننى منكم ، وجعل من بعثنى ما يخرجكم به من الكفر . فلن تسجدوا بعد ذلك لحجر لا يسمع ولا يعقل وسوف لا تلصقون الخرافات بإبراهيم وإسماعيل وهما رجال مثلنا .. » ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٥) . ويرجع الفضل فى فتح مكة إلى قوة السلاح (٦) وكان هذا النصر يبيح له أن يسترق قريشاً بأسرها . ولكنه اتجه إلى جموع الناس وسألهم . « ما تظنون أئى فاعل بكم ؟ قالوا : » خيراً أخ كريم وابن أخ كريم « قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(١) القرآن سورة الاسراء (٨١) .

(٢) أبو الفدا ص ١٠٧ [١٥٢/١] .

(٣) كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله ولهذا صوروهم على هيئة نساء وعبدوهم .

(٤) جناب .

(٥) القرآن سورة الحجرات : ١٣ [٨٩] المروى فى كتب السيرة أنه على بن أبى طالب .

(٦) أبو الفدا ص ١٠٧ [١٥٢] وقد ذكر أبو الفدا بحثاً عن فتح مكة . هل كان صلحاً ؟ كما قال الشافعى أم

يعتبر عنوة ؟ كما قال أبو حنيفة . ولم يذكر عبارة سفاري [

[الآذان فوق الكعبة]

ولقد استخدم محمد فى نفس اليوم السلطة التى كانت تخولها له رئاسته الدينية^(١) فلما حان وقت صلاة الظهر ، أمر بلالا - مؤذنه - بأن يصعد الكعبة وأن يؤذن للصلاة .

[لمن مفاتيح الكعبة ؟]

وكان العباس يسعى للحصول على مركز سدانة الكعبة. وكان عثمان الذى أسلم بالمدينة . يشغل هذا المنصب. فأجبره محمد على أن يسلمه المفاتيح . وكان ينوى تسليمها إلى عمه ولكن غضب عثمان استوقفه . لأنه كان يهيمه أن يكسب الى جانبه زعماء قريش ، ولهذا أعاد إليه المفاتيح .

[لمن السقاية ؟]

ولإرضاء العباس أعطاه الكوب الذى يشرب به الحجيج من بئر زمزم . ولا زالت عائلة العباس حتى اليوم تمتلك هذا الأثر القديم المحفوظ بقداسة دينية^(٢) [والسقاية هى توفير المياه لجميع الحجاج وليست كما تخيل سفارى] .

[بيعة قريش للنبي]

ولقد اختتم محمد هذا اليوم المجيد بعمل يؤكد صولجانه [هكذا يفترى سفارى الكذب على الرسول دون دليل] إذ جاءه كل سكان مكة يسايعون على الطاعة وتم هذا الاحتفال على جبل الصفا. فقد كان جالسا على ربوة وحوله قواده وتقدم المواطنون فعاهدهم على الوفاء ، والاخلاص وأقسموا بين يدي عمر [؟] على السمع والطاعة حتى الموت.

[بيعة النساء]

وبعد ذلك تقدم النساء وأخذ يبعتهن بنفسه . وكان من بينهن هند زوجة أبى سفيان التى كانت قد أكلت قلب حمزة يوم أحد^(٣) وكانت متكررة. وكان محمد قد أمر بقتلها فأخذ يبحث عنها ببصره حتى رآها. ولما كشف أمرها ألقى بنفسها تحت

(١) جناب ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

(٣) ابر القدا ص ١١٠ - [١٥٢/١] .

قدميه [٢] وقالت : « أنا هند ، أنس الماضى واعف عني . فعفا عنها [والخيال الكاذب المنبعث من طبيعة همها الجنس والجبروت واضح فى قوله يبحث عنها ببصره - وألقت بنفسها تحت قدميه . اذ لم يرد فى أى كتاب] .

[إعلان المبادئ الرئيسية للحكم]

وكان محمد كما رأينا قد حرم على قواده اراقة الدماء . ولكنه كان قد عين عددا من المذنبين . وأمر بأن يقتلوا أينما وجدوا . ولتهيئة الأذهان عند قريش لهذه المؤامرة خطب فيهم هذه الخطبة ^(١) [بعد الظهر] [إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام الى يوم القيامة : ولم تحل لى الا ساعة من نهار ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، ليلين شاهدكم غائبكم ، ولا يحل لنا من غنائمها شئ]

[المحكوم عليهم غيابياً]

ويختلف الكتاب فى عدد المطلوب قتلهم ^(٢) فيذكر أبو الفدا أنهم عشرة : منهم ستة رجال وأربع نساء وهم الرؤوس : عكرمة بن أبى جهل أول من كان يجب أن يراق دمه والذى هرب إلى اليمن يوم فتح مكة . وكان قد تزوج من أم حكيم منذ وقت قصير . ولما حزننت هذه المرأة الشابة على هروب زوجها ذهبت إلى النبی وألقت بنفسها تحت أقدامه وبللتها بدموعها [تصوير كاذب لجمال المرأة] وحصلت على العفو الذى كانت تطلبه ورحلت من فورها الى عكرمة وحملت إليه هذا النبأ ثم عادت به وقدمته إلى محمد الذى استقبله بكرم وعينه عاملاً على هوزان . وبعد أن أسلم عكرمة حارب من أجل دينه الجديد بنفس القوة التى حارب بها من أجل أوثانه ^(٣) ولقد قتل فى معركة اليرموك فى خلافة أبى بكر .

أما الثانى فهو هبار [بن الأسود] الذى كان رجلاً ثرياً . ولقد آذى النبى وسب بناته مع الحويرث [بن نقيذ] .

[الذى قال عنه المؤرخون أن النبى أهدر دمه هو هبار بن الأسود ولكن سفارى

(١) مؤلف كتاب «شفاء الحيران» وتهذيب ابن هشام ص ٣٩١ - ٣٩٤ والطبقات ٩٨/٢ والدرر ٢٣٢ ،

٢٣٤ الطبقات ٩٩/٢ والأنوار الحمديدية بلفظ أكثر ومثله فى البخارى ١٩٠/٥ ، ١٩٤ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٢) يذكر جناب أنهم ستة [وإلى هذا صاحب الطبقات وصاحب الأنوار الحمديدية ص ١١١] .

(٣) مؤلف كتاب شفاء الحيران و [الطبرى ص ٥٩/٣] .

يذكر مكانه هبيرة ، وهو هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، زوج أم هانئ بنت أبي طالب . وقد هرب عند الفتح إلى نجران ومعه عبد الله بن الزبير السهمي . ثم رجع ابن الزبير مسلماً وأقام هبيرة كافراً ، كما قاله الطبري وقد أخطأ سفاري في روايته (الطبري ٦٤/٣) .

وكان قد اختفى بمهارة حتى فشلت جهود الحراس في العثور عليه . وفيما بعد دفعته الرغبة في التوبة والخوف من اكتشافه إلى أن يذهب إلى المدينة وأن يسلم ، وكان يرجو نسيان ماضيه فقال له محمد « يا هبار لقد عفوت عنك . وإن الإسلام يجب ما وقع من جرائم في الجاهلية . » وأما الثالث فهو عبد الله (١) بن سعد [بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي] أحد اشراف قريش وكان في أول أمره مسلماً وكاتباً للوحي . فأخذه الغرور بعمله وأصبح مراقباً لسيده وغير الكلمات واقتضب بعض الآيات وسخر من القرآن بين أصدقائه . ولما اكتشف غشه ارتد عن الإسلام . وبعد فتح مكة صاحبه عثمان إلى النبي وطلب له العفو (٢) ولم يحصل عليه الا بعد إلحاح متكرر . وبعد أن خرج قال محمد لقواده [لقد صمت ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه ، فقال رجل من الأنصار فهلاً أومأت الى يارسول الله ؟ قال : إن النبي لا يقتل بالإشارة (٣)] ولقد عاش عبد الله حتى خلافة عثمان الذي نصبه حاكماً على مصر . وكان مروضاً ممتازاً للخيول ، وكان شغوفاً بحبها . ولقد قرأ سورة العاديات وهو يموت (٤) . وكان الرابع هو مقياس (٥) ولقد تحدثنا عن جريمته . فهو مرتد وكافر وكان يستحق الموت . ولقد حاول أن ينسى بين الكؤوس الخطر الذي كان يتهدهده . وانطلق في المرح مع المشركين . وعلم « نميلة » [بن عبد الله] (٦) بحاله فذهب إليه وضرب عنقه . والخامس هو عبد الله بن خطل (٧) . فقد أرسله محمد لجمع الزكاة من المسلمين فقتل

-
- (١) جناب .
 (٢) أبو الفدا ص ١٠٩ - [١٥٢/١ والطبري ٥٩/٣ و ٦٣] .
 (٣) جناب [ورواه ابن هشام عن ابن اسحاق بقوله (زعموا) (تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٩٢ والطبري ٥٩/٣) .
 (٤) القرآن : سورة العاديات .
 (٥) [هو مقياس بن حبابة الليثي كما في سيرة ابن هشام ويقال له مقياس بن صبابة في كتابي الطبقات والدرر] .
 (٦) [هو ابن عم مقيس كما قال ابن عبد البر وابن هشام وأبو الفدا ص ١٥٢ والطبري ٥٩/٣ وهو « نميلة » بالنون وليس « نميلة » بالتاء كما قال سفاري] .
 (٧) [هو عبد الله بن هلال بن خطل الأدرم قال ابن هشام : رجل من بني تيم بن غالب وقال ابن عبد البر رجل من بني الأدرم بن غالب .]

المسلم الذى كان يعمل خادماً له ، ولما عجز عن الظهور بعد ذلك فى المدينة ارتد واستخدم شاعرين كانا يتبعانه فى كل مكان وينشدان قصائد هجاء لمحمد (١) ثم كان يأمل أن يجد ملجأ بين الأصنام ، فاختبأ فى الكعبة ولكنه اكتشف وقتل .

وآخرهم الحويرث [بن نقيذ] وكان من قبيلة قريش مغروراً بثروته وبشرفه ، ولقد سب محمداً عدة مرات . كما ارتكب جريمة أكثر شناعة جعلته ممقوتاً (٢) وكان على وشك الهروب من مكة . وكان محمد قد كلف العباس بأن يصحب ابنتيه إلى المدينة فقابلهما الحويرث فى الطريق ، فطمهما بعنف وطرحهما على الأرض . ولم تنس هذه الإهانة فنال العقاب المناسب اذ قابله على وضرب عنقه .

[النسوة المحكوم بقتلهن]

أما النسوة الأربعة المحكوم بقتلهن فهن هند بنت أبى سفيان وسارة مولاة [بني عبد المطلب] بن هاشم وفرثى وقريية ، قنيثا عبد الله . ولقد حصلت ثلاث منهن على العفو وقتلت فرثى وحدها .

[تحطيم الأصنام فيما يجاور مكة]

تم فتح مكة (٣) يوم الجمعة الموافق ٢١ من شهر رمضان (٤) ومكث فيها محمد خمسة عشر يوماً ينظم فيها شئون الحكم والدين . وفى هذه الفترة كان قواد محمد يجوبون الأقاليم المجاورة يدعون الناس الى الاسلام ويحطمون الاصنام . (٥) .

[نشأة الوثنية فى العرب]

وكان إسماعيل [١٩] قد جاء إلى مكة بدعوة التوحيد . وأقام الكعبة تمجيداً لله الواحد . ولقد حافظت ذريته طويلاً على نقاء هذه الدعوة . ولما تزايد عددهم لم تسعهم المدينة فى مساحتها الضيقة ، فخرجت من قلب المدينة طوائف عديدة . انتشرت فى المناطق المجاورة وحملت معها أحجاراً من بناء إسماعيل . وكانت هذه الآثار تذكرهم فى

(١) مؤلف شفاء الحيران .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابو الفدا ص ١٠ [٥٢/١] .

(٤) جناب ص ٢٠٥ [وأبو الفدا : ١٥٢/١ والطبرى ٦٩/٣] .

(٥) ابن اسحاق [والانوار الحمديدية ص ١١٦ و ١٢٠ و ١٢٥] .

مبدأ الأمر بأصلهم وبدين آبائهم . و بالتدريج أصبحت الأشياء التي تمتعت بالوقار تبعد عن الأذهان البواعث التي أدت إلى وقارها . وأصبحت قطعة الحجر وثناً يعبد . واختلق لها دين وقرابين . وانتشر الفساد . وتلفقت مكة أوثنان جيرانها وأصبحت مأوى للوثنية . فحارب محمد هذه الدعوة الدنسة . وسواء أكان قد وضع كل همه في عبادة الله الأحد، أو كان قد أتجه إلى الدعوة إلى دين واحد ربما يكون وسيلة كفيلة بأن تجمع قوى العرب المشتتة و المنقسمة . فلقد حارب محمد الوثنية بهمة منقطعة النظير ، وتمكن من القضاء عليها . وإذا كان في إجماره [١٩] للناس على تغيير عقيدتهم قد جعلهم يرتكبون أخطاء جديدة [من وجهة نظر الكاتب المسيحي] فقد أقام بينهم على الأقل فكرة الكائن الأعظم بسموها وجلالها وهو الله المعاقب على الجريمة ، والمثيب على الفضيلة . ولقد قضى على نظام القرابين الإنسانية البشعة التي جعلت الأب وهو يخنق في نفسه نداء الفطرة - يريق دم أبنائه على مذابح الأصنام . و الحقيقة أن الرسل التي كان يرسلها لتحويل المشركين عن دينهم لم يكونوا رجال سلام . فقد كانوا يدعون الناس والسيوف في أيديهم ويخيرونهم بين الإسلام وبين الاستعباد [١٩] .

[هل حقاً كان أصحاب النبي دعاة حرب واستعباد ؟]

[يروج المستعمرون وأبواقهم من المبشرين والمستشرقين دعوى ان المسلمين ما ساد دينهم إلا بالسيف . كثر هذه الدعوى في صور شتى ، سفارى ، وقالها كثيرون من أمثاله المتعصبين ضد الاسلام مثل « إيرفنج ، وه آدميون ، وه هنرى جيب ، وه جوليمين ، من المبشرين . وهذه الدعوة باطله أبما بطلان . وما الاستشراق إلا الوجه الجديد للتبشير والصورة العصرية التي تسمى كذباً - علماً . وجميعهم يؤكدون ما قاله المبشرون على لسان « جوليمين ، أن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس أسلموا أو موتوا . وما قاله المونيسيبيور « كولى ، في كتابه « البحث عن الدين الجديد ، (١) « لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدم قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، هكذا يقول عن النبي القائل « ليس منا من أتهب أو سلب أو أشار بالسلب ، هكذا يقول حملة دعوة (الفجور والسلب في العالم) عن المسلمين الذين لم يعرفوا الفجور إلا بعد سيطرة النظم المنسوبة إلى

(١) [نظريات الحرب والسلام « محمد أبو زهرة ، ص ٦٩]

المسيحية في العالم سواء النظم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية فما وجه الحق ؟ إن الحق في الطرف الآخر من مقالة هؤلاء الدجالين الكذابين . إنه مع الإسلام ، الذى قال رسوله غاضباً حين بلغه أن طفلاً من أبناء الكفار قتل فى إحدى السرايا ، ما بال أقوام جاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية . ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ، فأين هذا مما فعلته الصهاينة من سحق تلاميذ مدرسة بحر البقر بالشرقية بقنابل طائراتهم . ان الحق مع الإسلام الذى يحرم رسوله العدوان على المؤسسات والازراق والمسالين الأمنين ، فقد قال لأصحابه عندما أرسلهم فى سرية مؤتة الا تغدروا ولا تغلوا (تخونوا فى المغنم) ولا تقتلوا وليداً ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً(١) . فأين هذا مما فعله الصهاينة بمصنع أبى زعبل ومدن القنال أو مما فعله الألمان النازيون بالإسكندرية أو الأمريكان بهروشيما ونجازاكي فى اليابان أبان الحرب العالمية الثانية ؟ ...]

[١ - فى قرن واحد بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كانت الفتوح الإسلامية قد بلغت مالم تبلغه فتوح الأمبراطورية الرومانية فى سبعة قرون ، وحين عادت جيوش الإسلام من فرنسا لم تعد إلا لتستقر فى أسبانيا ثمانية قرون . ولم تنحسر الفتوح عن الجانب الغربى إلا لتمتد فى الشرق حيث فتحت ،تلوخستان والهند والصين ، بل والجزر الأندونيسية ، كما أن الاسلام قد أمتدت فتوحه غرباً . فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجهاً نحو الغرب والشمال الغربى إلى النمسا وإلى غرب بحر البلطيق ، ولم يكن السيف ليسل فى كل مكان إلا نادراً .]

[ولو كان دخول هذه الأمم فى الإسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منه منذ دخلت السيوف فى أغمادها ، ومنذ غفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم فانعكست آية القوه المادية وأصبحت فى يد غيرهم . ولكن كما قال المستشرق بورت ، إنه لا تعرف حادثة واحدة أرتد فيها مسلم عن دينه ردة حقيقية بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقياً ، بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الإسلام أكثر من أن تحصى ، وهكذا الدين الحق لا يرتد عنه أحد سخطه متى خالطت بشاشته القلوب ، .]

[٢ - وقد دخل في الإسلام كثيرون دون حرب ، وإنما بالافتتاح واستجابة لدعاة الإسلام :]

[أ - ففي داغستان وأبونجستان : دعا درويش منصور كل الامراء للإسلام فأسلموا وتبعتهم الأمة .]

[ب - كما دخل الإسلام على يده كثير من الجراكسة ، فضلوا أن ينفوا عن البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسي ، وكان لمصاهرة الصابط التركي (فرج على ، للجراكسة أثره في دعم الدعوة الإسلامية بينهم ، بل وحبهم له حتى جعلوا قبره مزاراً بعد وفاته سنة ٧٨٥ م .]

[ج - وحين أصدرت روسيا سنة ١٩٠٥ م قانون التسامح الديني دخل القوقازيون في دين الله أفواجا (١)]

[د - وفي الحبشة سنة ١٨٧٨ م عقد الملك « جون » مجمعاً قرر فيه أن المسيحية على المذهب اليعقوبي هي دين الجميع ، ونال المسلمون منه اضطهاداً كبيراً . ومع هذا فقد أسلمت قبائل نصرانية بأكملها في القرن التاسع عشر ولا تزال تحمل أسماء مسيحية مثل قبائل تاكلييه أي بنات يسوع . و « هيبتيه » أي عطية يسوع ، و « تيماريم » أي عطية مريم . كما أسلمت قبيلة « منسا » في منتصف القرن التاسع عشر .]

[هـ - وفي نياسلانده (مالاي) : اعتنق عدد كبير من قبائل « الباو » دين الإسلام ونشروه في ديارهم - دون حرب - خلال هذا القرن (العشرين) حتى أن أراضيهم التي تمتد من بحيرة « بناسا » إلى الساحل الإفريقي الشرقي لا تكاد تخلو قرية فيها من مسجد وتاجر مسلم (٢) . كما أسلمت قبائل « أشبو » وبعض قبائل موزمبيق دون حرب [و - ودخل الإسلام جمهورية « ما لاجاش » ، « مدغشقر » ، وكل جزر الهند الشرقية دون رمية سهم أو ضربة سيف . وهكذا يزحف الإسلام في كل القارات بقوة الذاتية ، دون قذيفة مدفع بل ولا مجرد تنظيم للدعوة ، أو حماسة وعون للداعي .]

[٣ - بل إن أشد المحاربين للإسلام كانوا لا يلبثون أن يعتنقوه بعد اطلاعهم

(١) [انتشار الإسلام بالطريق السلمي محمد فادي عسر ص ٣٧ : ٣٨ . سلسلة دراسات اسلامية .]

(٢) [المرجع السابق ص ٧٦ : ٧٧ .]

على حقيقته ، وبعد اتاحة الفرصه للحوار بينهم وبين المسلمين ، وليس أدل على هذا من أن المغول أنفسهم انقلبوا إلى دعاة للإسلام وكونوا له أمبراطورية فى الهند وشمال آسيا . [

[وفى الحملات الصليبية روى المؤرخون أن طائفة رئيسية من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى رينو (Rainaud) حين حاصرهم أرسلان السلجوقى فى احدى القلاع تظاهروا بالقيام بهجوم على محاصريهم فى الخارج ، ثم لما خرجوا أعلنوا للأتراك أنهم جاءوا مسلمين .]

[وقد ذكر سيرت ، وه أرنولد ، أن حملة لويس السابع سنة ١١٤٨ م دخل منها فى الإسلام قرابة ثلاثة آلاف شخص نتيجة للمعاملة الطيبة التى وجدها مرضاهم وجائعهم من المسلمين ، بينما ذاقوا آلام الضياع من حلفائهم الاغريق المسيحيين الذين أخذوا من لويس خمسمائة مارك لحراستهم حتى يحجوا ، وللعناية بالمرضى ، فأكلوا الاموال ولم يفعلوا شيئاً (١) .]

[وكذلك اعتنق الإسلام بعض الشخصيات الهامة على يد صلاح الدين الأيوبي ، وخرج من النصرانية روبرت أوف سانت اليانسي ، أحد فرسان المعبد وأعتنق الإسلام وتزوج إحدى حفيدات صلاح الدين .]

[وفى سنة ١١٨٧ م انتصر المسلمون فى حطين . ووقع رجب ، ملك بيت المقدس أسيراً وفى مساء يوم المعركة ، ترك الملك ستة من فرسانه ، ففروا إلى معسكر صلاح الدين وأعلنوا الإسلام بمحض إرادتهم .]

[وفى الحرب الصليبية الثالثة ، وفى أثناء حصار عكا سنة ١١٨٩ م ، - سنة ١١٩١ م فر كثير من النصارى المحاربين إلى صفوف المسلمين فأسلموا ، وكانت صيغة القسم التى أملت على الملك لويس ليقسم به على تنفيذ المعاهدة من وضع هؤلاء الذين كانوا فى جيشه ثم أسلموا .]

[وعند فتح بيت المقدس عام ١٢٤٤ م - دخل كثير من النصارى هناك الإسلام من أثر السماحة التى عرفت عن المسلمين طوال الحروب الصليبية (٢) .]

(١) [عقريه خالد عباس العقاد ص ٧٤ ط ١٩٧٠]

(٢) [انتشار الاسلام بالطريق السلمى ص ٣٣ - ٣٦ .]

٤] - ودعوى أن انتشار الإسلام كان بالسيف ينقضها المعروف من سيرة خلفاء المسلمين وسلوكهم في معاملة البلاد المفتوحة . وعهد عمر بن الخطاب لأهل أيليا وثيقة خالدة ترد على « سفارى » وأمثاله (١) وقد ترك الفاتحون المسلمون الشعوب التي فتحوها إلى معتقداتها واكتفوا بالجزية ممن لم يسلم ، ولذا فإنه حين أخرج المسلمون بقيت الديانات التي كانت عند الفتح كما هي ، بخلاف ما نجده في الفتوح الأوروبية والأمريكية ، فإنه لا يحتل الأمريكان أو الأوروبيون بلداً إلا أخرجوا أهله من دينهم إلى المسيحية ، أو على الأقل قللوا فيه عدد معتنقى دينه القومى وجعلوه صورة جوفاء واسما لاسمى ، وما هذه إلا لأن الفاتح المسلم لم يفكر في استعمال قوته لإبادة الأديان المناهضة .]

[بل إن المدينة التي حملت لواء الإسلام لم تدخله إلا مختارة . ومثلها كثير من القبائل العربية مثل قبيلة سعد بن بكر ، إذ أرسلت ضمام بن ثعلبة إلى النبي ليناقشه ، فلما اقتنع بالإسلام آب إلى قومه يدعوهم إلى ما آمن به فأسلموا جميعاً . وهكذا كان إسلام بنى جهينة الذين كانوا يقيمون بين المدينة والبحر الأحمر . ناقش عمرو بن مرة وهو سادن صنمهم - رسول الله فافتنع بالإسلام ودعا قومه إلى ما آمن به فدخلوا في دين الله جميعاً ما عدا واحد منهم . وهكذا أسلمت « دوس » بدعوة من طفيل بن عمرو ، الذي أسلم مختاراً فتبعوه كذلك مختارين . ثم إن الرعيل الأول من أهل مكة أسلموا وليس في يد النبي أية شارة للقوة ، ثم إن أهل مكة الذين أسلموا بعد صلح الحديبية وهاجروا - وقد كانوا بين ذويهم آمنين - ما دفعهم إلى الإسلام إلا الاقتناع الحر ورجاء الدار الآخرة . ورجل كالوليد ابن المغيرة ، أسلم بعد أسره في بدر ولكنه لم يشأ أن يعلن إسلامه إلا بعد أن فك أساره وذهب إلى أهله آمناً . وبينهم أعلن إسلامه ، وهم أشد الناس حقداً على الإسلام ، وناله من أذا هم ماناله . ورجل كأنالة الحنفى أسلم بعد فكأك أساره كذلك حتى لا يقال : أنه أسلم مكرهاً . بل إن الذين أسلموا بعد فتح مكة من أهلها إنما كان إسلامهم بعد أن اطمأنوا إلى عفو النبي

(١) [تاريخ الطبري ١٥٩/٤ .]

الشامل عنهم . فلم يكن تحت رهبة السيف بأى حال . وهكذا دانت جزيرة العرب كلها تقريبا بالإسلام قبل وفاته ﷺ مختارة . فإنها لم تدن يوماً لقوة جبار أو مستعمر وما استجابتها لمحمد ﷺ إلا عن رضا بما جاء به وعن اختيار . ولقد ظل المسيحيون واليهود مخالطين للمجتمع الإسلامى منذ الفتح الإسلامية الأولى إلى عصرنا هذا ، وهم يعيشون أحرارا ، فما شكوا من معاملة المسلمين ولا رفع أحد منهم صوتاً بأن المسلمين يكرهونه على دخول الإسلام . بل إنهم كثيراً ما كانوا - مع المسلمين - حرباً على الدخيل ولو كان من بنى ملتهم . وفى عهد عمر بن الخطاب انضم نصارى تغلب وبنى نمر إلى جيوش الفتح ليقاتلوا مع المسلمين ، فارس ، . وطلبوا إلى عمر أن يدفعوا زكاة الماشية والزرع كما يفعل المسلمون على أن يعفيهم من الجزية . ويروى أن رنولد وسيرت أن عمر قبل ذلك منهم (١) . (ولكن فى دعوى قبول عمر ذلك منهم نظراً) . بل إن البلاد التى يتكاثر فيها المسلمون الآن هى التى لم تقع فيها حروب كاندونيسيا وباكستان وأفغانستان [٢] .

٥ - ولقد نفى حكماء الغرب المهتمون بدراسة الإسلام والسيرة ما قاله سفارى وأمثاله . فقد قال توماس كارليل فى كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) : « ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد - كمحمد - سيفه ليقتل به الناس ، أو يستجيبوا لدعوته . فإذا آمن به من يقدر على حرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين مصدقين . وتعرضوا للحرب من قبل أن يقدروا عليها» (١) ، وقال بودلى : « إن القرشيين هم الذين دفعوا محمداً إلى استعمال القوة بإغارتهم على ضواحي المدينة ، ولددهم فى الخصومة [٢] .

[ولقد كانت شريعة الرومان فى الحرب هى : « من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك ... وتبدأ بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع . وكانت هذه الشريعة على أشدها فى معاملتهم لجيرانهم من البلدان

(١) [عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١ ط ٢] .

الإسلامية لأنهم أفردوها بعداء فوق كل عداء . [

[وفى دراسة علمية للمستشرق الانجليزى ستيفن رانسيما قال ، نحن لا ندري كيف بث النبي الحماسة المتدفقة فى نفوس أتباعه الذين أصبحوا نماذج لتعاليمه ، وكيف صنع هذه المواهب النادرة التى تجلت فى زعماء كعمرو بن العاص وخالد وعمر بن الخطاب . إن دخول نصف العالم المتمدنين الإسلام فى نصف قرن لا يمكن أن يكون قد تم بحرب ، وما كان ليقع لو لم يكن العالم مستعدا لقبول هذا الدين ، ولو لم تكن تعاليمه تحمل فى جوهرها زادا طيبا صالحا من الحق والخير ، . [وما قاله توماس وستيفن يشهد به الواقع . فإن أهل يثرب مثلا كانت حاجتهم ماسة إلى تعاليم جديدة جادة فى إصلاح شأنهم . فكان الإسلام هو الدين الذى يعنى بحاجاتهم فاعتنقوه . وهكذا فى كل الشعوب التى دخلت تحت لواء التوحيد ممن ذكرناهم .]

[٦ - وطبيعة الإسلام تتنافى مع ما يتهمه به المستشرقون :-] .

[أ - لأنه دين يكره العدوان « ولا تعتدوا ... إن الله لا يحب المعتدين » ويدعو إلى التراحم . وفى الحديث الشريف «الراحمون يرحمهم الرحمن ، بل إن النبي يدعو إلى أن تكون الرحمة طبعاً للمسلم حتى تمتد إلى كل شىء . وفى الحديث ، فى كل ذات كبد رطبة أجر ، . ودين هذا شأنه لا يوصم بأنه يكره أحدا على اعتناقه . وإذا وقع من أحد المنتمين إليه سلوك على غير هذه القاعدة ، فهو سلوك منحرف عن الإسلام . وكما قال عباس العقاد « إن شعائر الإسلام كالجماعة والسلام وصلة الأرحام تتجه إلى تكوين وشيجة ورابطة بين الناس . [والحرب ضد الاتجاه الإسلامى إلى الترابط الإنسانى فهى إذن ضرورة المضطر فى نظر الإسلام (١)] .

(١) [حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١ وما بعدها]

ب - وإن ما عرف عن النبي من العفو والصفح والبر والتسامح ليمنع النبي من أن يكون سفاحاً^(١) . ولقد كان الرسول واسع الصدر مع المشركين والكتابين حين يجادلونه . بل لقد بلغ مجادلوه حد الحماسة فاحتمل منهم ذلك ولو كان رجل دماء أو كان دينه يقبل إرغام الناس على الدخول فيه لأسقطت رؤوسهم تحت أقدامهم . ع .

ج - والإسلام حريص منذ نشأته على الإفادة من الأسلوب الدبلوماسي بديلاً للحرب، أو عاملاً مساعداً في تنفيذ الدولة الخارجية ولم يمانع من تعايش الأديان جنباً إلى جنب ، ومكاتبات النبي ﷺ للملوك في العام السادس من الهجرة ٦٨٨ م ذات دلالة على خطة النبي في الدعوة إلى الإسلام .. وهي خطة سلام لا حرب . وقد جعل الإسلام معاهدات السلام مع العدو واجبة الوفاء وليست خدعة مؤقتة . « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً »^(٢) . « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » والانفال الآية ٥٨ ، ع .

د - والقرآن يدعو إلى حسن معاملته الكفار « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » ، الجاثية : ١٣ ، ويدعو إلى الترفق في جدل النصاري واليهود « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم . وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » ، العنكبوت : ٤٦ ، ويضمن الإسلام للكافر السلام - من أجل التعرف على طبيعة الدعوة الإسلامية ونصوصها : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ، التوبة : ٦ ، هذا بينما

(١) [راجع البطولة والأبطال للدكتور أحمد الحوفي] .

(٢) [النحل : ٩١ والنظر الآيات ٩٢ : ٩٥ ، في توكيد الوفاء] .

قانون مثل قانون روسيا كان يحرم اعتناق أى دين مخالف لدين الأمة حتى عام ١٩٠٥ ، بل إن القرآن لينص على أن سبيله فى الدعوة هو البلاغ السلمى ويجعل ذلك هو إطار الرسالة النبوية ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ، آل عمران : ٢٠ ، ويوصى بالأسير . وفى الحديث (استوصوا بالأسارى خيراً) وفى القرآن ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ﴾ . أفبعد هذا يقال إن الإسلام سبيله إلى الناس سيوف أتباعه . وهذه نصوص قانونية تلجمهم عن الحرب وتجعلها خطيئة ممنوعة إلا عندما تكون بمثابة مبضع الجراح الذكى ؟ [.

هـ - من أبرز خصائص الإسلام أن أحكامه تتفق مع الفطرة السليمة والعقل الحكيم ، ويمقتضى الاستقرار العلمى لمسائله - ولهذا لم يكن هناك مبرر لسلوك طريق أخرى فى الدعوة إلى الإسلام غير أسلوب البيان والحوار المفتوح [.

ز - والإسلام لا يقبل العقيدة المزيفة ، ولهذا فإن إرغام أحد على الإسلام لا يأتى بالنتيجة المطلوبة وهى الإيمان بالاسلام كله : قرآنًا وسنة ، ولذا كان منطقياً من القرآن نفس قوله ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ﴿ فنكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن ﴾ أى لا بالسيف ﴿ من يخاف وعيد ﴾ . وكما قال بشرى زخارى ميخائيل : الإيمان مصدره فى الإسلام الاقتناع^(١) العقلى والإطمئنان القلبى فلا يصح أن يكون عن طريق التسلط والجبر والإرهاب [.

٧ - ويرينا تاريخ الإسلام أن المسلمين كانوا - دائماً - فى موقف المعتدىء عليه إما عدواناً فعلياً أو تأمراً وإعداداً ، وفى فجر الدعوة كانت الهجرات إلى الحبشة والمدينة ، وكان الحصار للمسلمين فى شعب أبى طالب آية الصبر البالغ من

(١) [محمد رسول الله ﷺ هكذا بشرت الأنجيل ص ٢٥] .

المسلمين على عدوان المشتركين ، والحبشة لم يحاربها المسلمون لأنها سالتهم ، أما الفرس والروم فقد حرصوا القبائل الموالية لها على حرب المسلمين ، فخفوا لحربهم ، كما أعلنت قريش وحلفاؤها - صراحة - أنهم في حالة حرب مستمرة مع محمد ﷺ وأتباع دينه حتى يقضى عليهم وعلى الإسلام . لذا كان جهاد المسلمين لهم واجباً وحقاً تفرضه الطبيعة ويمليه حق الحياة ، فضلاً عن أن القوة لا تدفع بالحجة بل إن صد الباطل وردع المبطلين رحمة بالبشرية .]

[والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا : فالحرب أجدى على الدنيا من السلم]

[وقد اتفق جمهور من الفقهاء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء ، أو فتح الطريق الذى يوصده المشركون فى وجه الدعوة وحرية انطلاق الفكر الإسلامى والرسالة الإسلامية . فلا يقتل شخص لمخالفة الإسلام ولا يضيق عليه ، فقد طلب رجل من النبى أن يأذن له فى إكراه ابنه على الإسلام فأبى الرسول ﷺ ونزلت الآية : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، وسعت عجوز إلى عمر فى حاجة لها وكانت كافرة فدعاها إلى الإسلام فأبى ، ولم يكرهها الخليفة على ذلك ، بل وكان يستغفر الله ، ويقول : اللهم أرشدت ولم أكره (١) بل إن النبى ﷺ ليوصى جنوده فيقول : تألفوا الناس وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر ووير إلا أن تأتونى بهم مسلمين ، أحب لى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم ، وفى وصية أخرى له ﷺ : انطلقوا باسم الله وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة وتغلوا ، وضعوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين ، وفى وصية أخرى له ﷺ : سيروا باسم الله ، فى سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تنفروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، ويقول لخالد بن الوليد لا تقتل ذرية ولا عسيفاً ، هذه هى حروب الإسلام لا تقع إلا لضرورة . وإن وقعت ففى سياج من الرحمة وأقل الأضرار .]

[فقساً ليزدجروا ومن يك حازماً : فليقس أحياناً على من يرحم]

(١) [نظرة الحرب فى الإسلام لحمد أبو زهرة (ص ١٧ ع ٥) دراسات فى الإسلام .]

[يوم الغميصاء :]

[سرية خالد إلى بنى جذيمة من كنانة في شوال سنة ٨ هـ :]

وكان خالد أحد مبشريه المسلحين - قد خرج يدعو (١) جذيمة إلى الإسلام ، وكانوا فيما مضى قد قتلوا وسلبوا عمه عوفاً وهو عائد من اليمن محملاً بالخيرات . وظلت هذه الذكرى منقوشة في قلبه . وأصبحت الرغبة في الانتقام أقوى عنده من العاطفة الدينية . فعسكر بالقرب من آبارهم . وكان أهل جذيمة قد تجمعوا هناك يحملون السلاح . فعرض عليهم الدخول في الإسلام فلما رفضوا اشتبك معهم وهزمهم . وبقيت منهم جماعة في ساحة القتال . وأما الباقون فقد أسروا واقتيدوا إلى الرق (٢) . فربط خالد أيديهم خلف ظهورهم . وقتل عددا منهم فداء لروح عمه . وأمر أصحابه بقتل الباقين . فعارضه سالم [هو مولي أبي حذيفة] الذي كان يقود فرقة من الجيش - ولم يتفد هذا الأمر الوحشي . فترتب على إصراره إنقاذ حياة الأسرى . ولقد لام محمد قائده على هذا التصرف لوماً شديداً ، ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث علياً من فوره ومعه مال كثير ليدفع الدية عن دماء أهل جذيمة . وبعد أن أتم المبعوث ما يقتضيه القانون ، سأل أقارب الذين قتلوا دون وجه حق ، عما إذا كانوا راضين فقالوا : إنهم راضون ، فوزع عليهم ما بقى معه من مال . واثنى الرسول على كرم على ابن أبي طالب .

[تفنيذ تهمة خالد]

[روى ابن سعد في الطبقات ٢ / ١٠٦ و ١٠٧ هذا الخبر . دون أن يذكر ثأراً قديماً لخالد عند بنى جذيمة . وذكر أنهم خرجوا للقائه في سلاحهم . وإنما فعلوا هذا حين رأوا خالداً ومعه بنى سليم الذين لهم ثأر عندهم ، فلما أقبل عليهم خالد سألهم . أمسلمون أنتم ؟ فقليل أن بعضهم أجابه بنعم . وبعضهم قال صبأنا . أي تركنا عبادة الأصنام . ثم سألهم فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فحفظنا أن تكونوا هم . فناداهم : دعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا . فصاح بهم رجل

(١) كانوا بأسفل مكة على ليلة . ناحية يلملم والغميصاء : ماء لبني جذيمة قرب مكة .]

(٢) أبو الفدا ص ١١١ [١ / ١٥٣ والأثورار المحمدية ١١٦ والطبرى ٣ / ٢٦٥ د ٢٦٩ هـ]

منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة . إنه خالد وما بعد السلاح إلا الامسار ثم ضرب الاعناق ، فما زالوا به حتى اقتنعوه بترك السلاح . وأمر خالد بأسرهم وقتلهم . فاستجاب له بنو سليم ، وأنكر عليه « عبد الله بن عمر ، و « سالم ، مولى أبى حذيفة .[

[فاتهم خالد بأنه فعل ما فعل كى ينتقم لثأر جاهلى لا دليل عليه ، بدليل ما رواه صاحب الطبقات فى نفس الوقت عن أبى حديد أحد الجنود ، أنهم لحقوا رجلاً ثلاثة مع كل واحد جمع من النسوة يقاتل عنهن حتى يصعدن الجبل وصعدن . فقال خالد لا تتبعوهم . تنفيذاً لعموم الحديث الشريف (لا تتبعوا فاراً) . فهل يتصور ممن هذا عمله وخلقه ، ممن هدم العزى قبل ذلك بأيام . أن يهدم معبوداً ليقم فى نفسه معبود المزاج الدموى ؟ إلا أنه سيف من سيوف الله ، يريد الكفار أن يجعلوا فيه ثلثة « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون « ومن هنا كان نسج هذه القصة المهلهلة ونسج أمثالها كقصة قتله مالك بن نويرة فى حروب الردة ، تلك التى عرضها العقاد وفندها فى «عبقريّة خالد» قائلاً : إنه يغفر لخالد ما له فى ميزان العظمة والعبقرية والحسنات ما يجعل كفته راجحة فى الدوام ، (١) وذكر العقاد خبر خالد مع جذيمة فقال : « ندرت حرب لا تحصى عليها قلّة ، ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة ، فجنح بها شعوره إلى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة إليهم من حيث لا يقصد الثرة ولا يعتمد الانتقام .. ! ، فكل هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخل وسوء نية . وهو الرجل الذى حارب اصدقائه وأقرب الناس إليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حريمهم لو تعدد اجتتابها ، أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النية فى إطاعة النبى ﷺ . وإن يكن خطأ خالد فى تقديره الموقف فإن الصواب أن تتاح له ولأمثاله الفرصة لتصحيح موقفه . ولهذا اختاره النبى ﷺ فى ركب أرسله . إلى بنى المصطلق . وهم من بنى جذيمة . ليستخبر له الحقيقة فى بلاغ الوليد بن عتبة للنبى ﷺ عن

(١) [عبقريّة خالد ص ١٣٨ ط ٧ .]

ردتهم . فانطلق إليهم ويث بينهم عيونه ليلاً فعرف إسلامهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره (١) . ولو أن أحقاده على جذيمة هي التي حركته أولاً لما عصمته من خطأ ولو من نوع آخر من بنى المصطلق وهم من بنى جذيمة أيضاً .]

[ولو أن النبي ﷺ وذكاؤه وقرية من خالد ومن الحادث معروف ، أحس بأن فعل خالد تشويه الخيانة لما ولّاه بعد أيام قيادة الفرسان وعلى الطليعة يوم هوازن . ولما عول عليه بعد الهزيمة في عملياته المضادة التي كسبت النصر للمسلمين .]

[وإنما استند خالد في أمره بقتالهم إلى أمور :

[أولاً : سأل عبد الله بن حذافة عما يفعله فقال له : « إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لا تمتنعهم عن الإسلام ، الطبرى ٣ / ٦٨)]

[ثانياً : كانت كل المنطقة سواء في البادية أو في مكة مشتعلة بأوار الحرب والريبة، وتتحفر للوقية بالمسلمين بعد تسليم مكة . فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة بأسلحتها لمباغثة النبي ﷺ ، ولهذا ارتاب خالد في بنى جذيمة لحملهم السلاح .]

[ثالثاً : كانت جذيمة مشهورة بالشراسة والغدر ، ولهم مع القبائل تاريخ ماثور .]

[رابعاً : لقد ترددوا في إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم .]

[خامساً : عندما نشب القتال همز خالد فتى فقال (لا إله) فلما تركه قال (إلا اللات) .]

[سادساً : كان في طبع خالد أن يأخذ بالشدة من لم يستعلن بإسلامه ويقف موقفاً إيجابياً مع المسلمين في حماية الإسلام أيام الفتن . لهذا كان ما كان من خالد .]

(١) [عقريه خالد ص ٨٨ : ٨٩] .

[يوم هوزان : (يوم حنين)^(١)] ١٠ شوال سنة ٨ هـ

وأقبل المشركون أفواجا إلى مكة يقدمون ولاء الطاعة للمتتصر . أما هوزان بقيادة [مالك بن عوف النصرى - وكان فى الثلاثين من عمره] وكذلك ثقيف، فقد قاوموا هذا الطوفان (٢) . ودعت هاتان القبيلتان الثائرتان حلفاءهما إلى حمل السلاح دفاعاً عن حريتهم وعن آلهتهم . واستجاب بنو سعد وجشم . وكان دريد - زعيم جشم - شيخاً يربو عمره على المائة . ولكنه كان يحمل فى هيكله العظمى المتهاالك حيوية الروح وشجاعة المقاتل الشاب . ورغم أنه كان كفيفاً فإنه حمل على محفة وتقدم صفوف جنوده يضئ شجاعتهم بتجربته وحنكته . وقال فى أمسية المعركة « اللهم اجعلنى آت مهمتى ثم يستريح بدننى فى ظل أحد القبور » .

وعلم محمد عن طريق عيونه عدد أعدائه ومرضهم . فخرج من مكة فى السادس من شهر شوال . وضم إلى العشرة الآلاف رجل - الذين زحف بهم من المدينة - ألفين من مكة . وكان هذا الجيش أكبر الجيوش التى قادها محمد عددا . حتى إن أحد الزعماء قال : « لن تغلب اليوم من قلة » . ولكن هذه الكلمات لم ترق لمحمد لأنها توحى إلى جنوده بالغرور ، وقد تجعلهم يهملون أسباب النصر . وهو يشكو [١٩] من ذلك فى القرآن بهذه الكلمات « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » [سورة التوبة] . وذهب قائد المؤمنين وعسكر بحنين . وهو واد يقع على بعد ثلاثة فراسخ من مكة . وتقدم فى الشعب حتى يفاجئ عدوه فى مطلع النهار حيث يعسكر فى أوطاس (٣) . فأدار عدوه خديعته ضده (٤) . إذ استفاد مالك [بن عوف النصرى] من ظلمات الليل وحاصر الوادى الذى عسكر فيه المسلمون وبوأ قوة من جيشة المدخل . وأمرهم أن يشبثوا فى مراكزهم . ووزع باقى قواته على التلال

(١) [حنين : واد متسع كثير الحدود والشعاب يقع الى جانب ذى الحجار] .

(٢) أبو الفدا ص ١١٢ [٣٥٣ والانوار ص ١١٦ ، والطبرى ٧٠/٣] .

(٣) أوطاس : اسم وادى يقع بين حنين والطائف .

(٤) أبو الفدا ص ١١٤ [١٥٣ - ١٥٤] وليس فى أبى الفدا وصف لتوزيع قوى هوزان ولكن ذكر الطبرى بعد فى ج ٣ ص ٧٤ .

وفى ثغرات الصخور . وعند شروق الشمس نشر المسلمون راياتهم وتحركوا . فاعطى مالك الإشارة فأمطروا المسلمين بوابل من السهام والنبال . فاضطرب المسلمون من هذا الهجوم المفاجئ . ولما وجدوا أنهم محاطون من كل مكان . خارت شجاعتهم وولوا الأدبار باندفاع جارف بحيث لم يبق منهم اثنان معا . وتعرض محمد لكبر خطر واجهه فى حياته . ورأى أنه على وشك أن يفقد فى لحظة ثمرة عشرين عاماً من الكفاح ، وثمانى سنوات من الانتصارات . وأحاط به الأعداء . وكاد أن يكون وحده بين كتائبهم . ولكنه احتفظ بباته ورباطة جأشه . وانحاز بسرعة نحو يمين الجيش ، وقف فى مركز ممتاز . واجتمع حوله عدد صغير من الأنصار والمهاجرين . وصمم أبو بكر وعمر والعباس وعلى - الذى لا يقهر - على اقتدائه بدمائهم دفاعاً عنه . وفى وسط الفوضى العامة كان ينادى « أنا محمد أنا النبی - أيها الرفاق [١] إلى أين تفرون ؟ عودوا إلى ألويتكم » سمع الأعداء صوته وأخذوا يوجهون ضرباتهم فى اتجاهه . وشنوا هجوماً شديداً على الفرقة الصغيرة التى كانت تقوم بأعمال بطولية . وسقط أيمن (١) وعبد الله بن الزبير وعقيل أخو على . وكان محمد قد يأس من الصمود طويلاً أمام هجمات جيش منتصر ، فأراد أن يندفع بين الأعداء ويموت ميتة الأبطال . ولما رأى العباس ذلك منه ألقى بنفسه على خطام دابته ، وأوقفها . فقال له محمد : [ناد : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب شجرة العسرة ! يا أصحاب سورة البقرة !] (٢) عندئذ صاح العباس بصوته القوى : « أيها المسلمون عودوا إلى نبيكم ! عودوا إلى ألويتكم » وردد الوادى هذا النداء حتى سمعه الفرار فتوقفوا . وخبت صدمة الرعب الأولى . وخجلوا من جبنهم . وعادوا أفواجاً يتسابقون للدفاع عن نبيهم . وأستنف القتال وحمى الوطيس . وحرصت هوازن على أن تحافظ على تفوقها . وأراد المسلمون أن يمحوا عارهم . وأخذ محمد يشجع جنوده . ولما غف صدام الجيشين ، قال : « الآن حمى الوطيس » . ثم لاحظ أن النصر يميل إلى جانبه فاستخدم نفس الحيلة التى استخدمها يوم بدر لكى يتحقق لصالحه . فأخذ حفنة من التراب وألقى بها فى وجوه المشركين وقال : « شامت الوجوه ! تشجعوا أيها الأصحاب ! النصر لنا ! »

(١) هو ابن عبيد بن زيد الخزرجى وهو ابن أم أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه .

(٢) [الطبقات ٢/ ١٠٩ والطبرى ٣/ ٧٥ والأنوار المحمدية ص ١١٧ .]

[تفنيد اتهام النبي ﷺ بالخداخ لأصحابه]

[ولا أدري هل الكاتب غبى غافل عن عادات الشعوب التي يكتب عنها أو يتغابي !!؟ إننا نحن العرب في عاداتنا عندما نريد تحصين عزيز علينا من عيون الحاسدين نقبض حفنة من تراب أو ملح أو سكر فنقذف به ونقول في مصر (ملح في عين العدو) عندما نذف عروساً إلى عروسه نفعل هذا لنثير موجة الفرح والرجاء والتسامي بالنفس مهما كان اعتقادنا في الحسد . فالأمر عادة شعبية وتعبير بالحركة عن الارتباط العاطفي بين من يفعله والمفعول من أجله . ولهذا إحياء نفسي لا ينكره إلا جهول .
وفي نفس اللحظة دفع المسلمون أعدائهم بقوة شديدة حتى أجبروهم على الفرار (١).

[غزوة أوطاس]

[عز على بعض الأعداء أن يفرّوا منهزمين] فثبتت ثقيف تحت راياتها وفضلوا الموت على أن يتركوها . وانسحب مالك قائد هوازن مع فلول جيشه إلى حصن الطائف . وتوقف دريد قائد جيشهم في قلب وادي أوطاس . فانطلق أبو عامر (٢) في إثر الفرار وأدرك دريدا ونائلة .

فتشجع بنو جيشهم حين رأوا بينهم قائدهم الهرم ودافعوا عن أنفسهم ببسالة . وأخيراً بعد جهود مضنية تمكن المسلمون من التغلب عليهم ، ودفعوا حياة قائدهم ثمناً لذلك (٣) إذ أصابه سهم اخترق فخذيه وانتقم له أبو موسى ابن أخيه فاندفع نحو الجندي الذي جرحه وصصره فجعله تحت أقدامه . فخفف من ألم ابن عامر الذي طلب انتزاع السهم ولكنه مات أثناء هذه العملية . وقال لابن أخيه وهو يحتضر : «أقرئ رسول الله سلامي واسأله أن يستغفر لي ذنوبي». أما دريد المسكين فقد كانت نهايته مفاجئة . إذ أنه بعد أن تفرق جنوده انطلق هارباً

(١) [نسب محمد شرف هذا النصر إلى المدد الإلهي ﷻ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل

جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين] «التوبة» .

(٢) [هو عم أبي موسى الأشعري عقد له النبي لواء لمطاردة هوازن فقتل من أبطالهم تسعة مبارزة . وحين بارز

العاشر كان قد ناله الاعياء فتمكن منه الخصم (الطبقات / ١٠٩)] .

(٣) جناب [والطبرى ٣ / ٧٩] .

فى شجار [مركبة تشبه اليهودج إلا أنها مكشوفة لأعلى] فأدركه ربيعة الشاب المسلم الممتلئ حيوية وقوة وسجبه من مركبته وضربه بسيفه. ولكنه لم يتمكن من قتله (١) فقال له المحارب القديم « خذ سيفى المدلى من امتعتى » فتناول ربيعة سيف دريد الضخم وشق به رأسه.

[تعقيب]

[بالرجوع إلى أبى الفداء ص ١٥٣ - ١٥٤ وإلى البخارى وجدتهما لم يذكر ذلك. ولكن المستشرقين يريدون تحقيق شأن المجاهدين المسلمين بمثل هذه القصة . وقد ذكر الطبرى ٣ / ٧٩ أن دريداً قتله أبو عامر الأشعرى، واسمه عبيد بن سليم بن حضار، كما فى إرشاد السارى لشرح البخارى للقسطلانى (٦ / ٤٠٧ باب غزوة أوطاس) وقد روى القسطلانى أن قائد المعركة هو أبو عامر، والذى قتل دريداً هو ربيعة بن ربيع بن وهبان بن ثعلبة السلمى فيما جزم به ابن اسحاق . أو هو الزبير بن العوام كما يشعر به حديث عند البزاز عن أنس بإسناد حسن . وهذه صورة تكشف لك كيف يضع المستشرقون لمفترياتهم مراجع يوهمونك أنهم محققون . ولكنهم يفترون على الحقيقة الكذب].

ولم يعد أمام أبى موسى أحد من الأعداء يحاربه فعاد بفرقه إلى مركز القيادة. ومثل أمام محمد وهو جالس على عرش مزين بالذهب والأحجار الكريمة [١٢] وأبلغه نتائج حملته ، ونقل اليه كلمات أبى عامر . فنزل النبى من فوق عرشه وتوضأ ورفع يديه إلى السماء ، وأخذ يدعو: « اللهم اغفر لأبى عامر واجعله من أعلى أمتى فى الجنة » (٢)

[أكان للنبى عرش مذهب مزين بالأحجار الكريمة ؟]

[ما أكذب سفارى !! فالدنيا تعلم أنه ما كان للنبى عرش ذهبى . وأن تعاليم النبى تمنع مثول أحد أمام أحد بطريقة البروتوكولات السياسية التى يمتص منها سفارى خياله . فالحديث الشريف يقول بصراحة من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من

(١) أبى الفداء ، البخارى .

(٢) [الطبقات ص ١٠٦/٢].

النار، ومن المتفق عليه أن النبي ﷺ كان الصورة الصادقة لكل ما يقول [.

[غزوة الطائف]

[في ذي القعدة سنة ٨ هـ وفي الطبقات (٢ / ١١٤) أنها في شوال سنة ٨ هـ] وتابع محمد حملته وذهب إلى الطائف، وضرب الحصار حولها، بعد أن احتسب بها مالك [بن عوف النضري] مع هوازن، وكان الحصن منيعاً. فاضطروا إلى تحطيمه (١). وحفر خندق واقتربت المنجنيق والدبابات وقاذفات الحجارة. ودام هدم الأسوار عشرين يوماً.

[تعقيب:]

[لم يذكر أحد ذلك. ولا يتصور العقل أن هذه الحصون كانت تتطلب ذلك الجهد الطويل. وكل ما قاله المؤرخون الذين نقل عنهم أن الحصار استمر نيفاً وعشرين يوماً. وكان من أنواع العمل الحربي قتال بالمنجنيق لفتح ثغرات في الحصن فقط، ولم يذكر المؤرخون أنه تم فتح ثغرات، من خلالها حدث اشتباك وصمود لثقيف أمام المسلمين، ولكن قالوا: «قاتلهم ثقيف وراء الحصن. لم يخرج إليه ﷺ في ذلك أحد منهم» (٢)] وبعد أن اتسعت الفجوات [في الأسوار] بدأ الهجوم. وصعد المسلمون بإقدامهم المعهود، وقاتلوا بشجاعة. ولكنهم وجدوا مقاومة لا تقهر. فقد أجبرهم مالك - قائد هوازن - على الرجوع خاسرين فاغتاظ محمد من عدم فلاح قواته، فنشر الدمار حول المدينة. فقطعت الكروم وأحرقت. ولكن هذه المشاهد لم تضعف من شجاعة ثقيف. فقد دفعهم جبههم للحرية إلى أن يتحملوا كل شيء (٣). ولما فشلت هذه الخطة. لجأ محمد إلى حيلة أخرى أشد فتكا. فقد أعلن حول الأسوار أنه سوف يمنح الحرية لكل الأسرى الذين يسلمون أنفسهم إلى معسكره. فقام المحاصرون بفرض حراسة قوية حتى أنه لم يهرب من الحصن سوى ثلاثة وعشرين فقط. فأطلق النبي سراحهم. ولما لم تجد الحيلة والقوة شيئاً أعلن عمر - بناء على أمر القائد - أن يجمع الناس متاعهم استعداداً للرحيل. فكثر الهمس وقال المسلمون: «أنرحل قبل

(١) أبو الفداء ص ١١٧ - [١٥٤]

(٢) [الطبري] ٨٢/٣ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ ومثله في الأنوار المحمدية ١٢١.

(٣) جناب

أن تفتح لنا الطائف أبوابها ؟ » ولما شاهد محمد تدمير الجنود أعلن عن عزمه على الهجوم في اليوم التالي . ففرخ الجنود وانطلقوا بحماسة عظيمة ، واقتحموا ثغرات الأسوار والسيوف في أيديهم ، وقاتلوا باستماتة فوق الأنقاض . ولكن المحاصرين انسحبوا إلى مركز ممتاز ، وبنوا بأجسامهم جسراً منيعاً مرشحاً بالسيوف والرماح ، بينما أخذ حاملو الأقواس يمطرون المسلمين بوابل من السهام . وبعد أن بذل المسلمون جهوداً جبارة ، وقتل منهم عدد كبير ، وجرح أغلب قوادهم ، اضطروا إلى الانسحاب فأصدر محمد الأمر بالرحيل للمرة الثانية ولم يصدر أى همس من أحد (١) .

[أسرى هوازن]

وتحرك الجيش وتوقف عند الجعرانة (٢) - وهي قرية تقع بين الطائف ومكة حيث ترك كل الغنائم والسبايا التي استولى عليها في معركة حنين وأوطاس . وبلغ عددها ستة آلاف أسير بين رجل وامرأة وطفل ، وأربعة وعشرين ألف بعير ، [وأكثر] من أربعين ألفاً من الأغنام ، وأربعة آلاف [أوقية] من الفضة . وما لبثت هوازن أن أوفدت رسلاً لها إلى معسكر (الجعرانة) . فنهض محمد عند وصولهم واستقبلهم استقبالا كريماً . فدخلوا في الإسلام وطلبوا منه أن يعيد إليهم أسراهم وأموالهم فقال لهم (٣) : « إن جنودى لن يوافقوا على أن يستجيبوا لطلبكم بأكملهم . فاختاروا أحد الأمرين » فعادوا إلى قومهم ورجعوا بعد عشرة أيام يطلبون الأسرى دون الأموال . وقبل أن يسلم السبي إليهم ، جمع جنوده ووعظ بقوله : « أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم . فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يقبض الله علينا فليفعل ، فقال الناس قد طيبنا ذلك يا رسول الله (أى طابت نفوسنا بالتنازل عن نصيبنا في الغنائم لهوازن) فصاح جمهور الحاضرين بأنهم موافقون على

(١) أبو الفدا ص ١٢٠ [ص ١٥٤ والانوار المحمدية ص ١٢٠ - ١٢١]

(٢) جناب ص ٢٣٨ [والطبقات ٢ / ١١٠ وأبو الفدا ، ١٥٤ والطبرى ٣ / ٨٦] وقد قال علماء العرب الجعرانة ماء بين مكة والطائف .

(٣) [النص العربي : أبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم] تهذيب ابن هشام ص ٤٢٣ [وهو لا يحمل صورة المساومة وتحكم الجيش في القائد تحكما يوحى بسيطرة المطامع المادية عليهم . تلك التي اختار سفارى عبارته هذه ليوحى بها .]

تصرفه . ولكن لما كانت الموافقة غير جماعية فقد أمر عرفاءه ^(١) بأن يجمعوا أصوات الجنود وأن يرفعوا إليه تقاريرهم . فأكدوا له أن جميع الجنود قد أيدوا كرمه . ولما تأكد له أن الموافقة إجماعية ، طلب عقد اجتماع جديد . ودخل الاجتماع وفد هوازن . فقال لهم : [أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم] فقال المهاجرون والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وفي لحظة تسلم وفد هوازن أسراهم الستة آلاف . ولقد نسي المؤمنون قيمة التضحية التي بذلوها بسخاء وأريحية ، فتنازل لهم الرسول عن خمس الغنيمة الذي خوله له القانون . وقبل أن يودع الوفد، قال لهم [أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل] . ^(٢) فما لبث مالك أن قدم إلى معسكر « الجعرانة » بعد أن أغراه هذا الوعد المعسول وأسلم . ولم يخيب محمد أملة إذ خدعه الاستقبال العظيم الذي أعده له وسره استرداده لأعز ما يحب في هذه الدنيا، وانقلب مدافعا عن مصالح هذا الفاتح الكريم، وأصبح الد أعداء ثقيف . فكان جزاؤه عن همته هذه أن نصب قائداً لقومه .

[كيف تم توزيع الغنائم ؟]

وبعد أن انتهت هذه المفاوضات قسم محمد الغنيمة وكان كل همه أن يربط أشرف القبائل ^(٣) الرئيسيين بشخصه . فخصص كل ما كان قد اكتسبه بقوة السلاح لكسب ودهم . فأجزل العطاء لأبي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية ^(٤) وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث [بن هشام أخي أبي جهل] وصفوان بن أمية . وهم أشرف قريش ورؤساء العشائر . ولقد نال أشرف القبائل الأخرى حظاً وفيراً من سخائه . فأحدهم ويدعى العباس بن مرداس [السلمي] لم يرض بالإبل التي أهديت إليه فجأراً بالشكوى . فقال محمد : اذهبوا به فاقطعوا

(١) [العرفاء : نقيب القبائل والكاتب] (٢) [تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٢٤]

(٣) أبو الفدا ص ١١٨ [١٥٤-١٥٥] وانظر التهذيب ص ٢٦٤-٢٨٤ والدرر ٢٤٧-٢٤٨ والطبري ٩٠/٣ ، ٩٣ ،

٩٤ ويكذب سفاري على أبي الفداء حيث نسب إليه قوله « كان يهمة أن يربط أشرف القبائل بشخصه » وهو يعلم أن هؤلاء يسمون في التاريخ « المؤلف قلوبهم » أي يراد استدراجهم إلى الإسلام بهذا الأسلوب وقد روى ابن اسحاق أن قائلاً قال لرسول صلى الله عليه وسلم (أعطيت عبيسة بن حصن والاقرع بن حابس مائة مائة وترك جعيل بن سراقه النضمرى) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض) (ما يملؤها حتى يطلع عنها أو يسيل) كلهم مثل عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ولكني تألفتهم ليسلما . ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه « الطبري ٩١/٣]

(٤) معاوية هو الخليفة السادس وهو فرع بنى أمية (جدّه) ، الذين حكموا الدولة حتى العام الثاني والثلاثين بعد المائة وانتقل الحكم بعد ذلك إلى العباسيين .

عنى لسانه فزادوه فى العطاء حتى أخرج ورضى وسكت. أما الأنصار فقد شهدوا هذا السخاء من غير أن يشتركوا فيه . فظنوا أن من حقهم أن ينقلوا إلى رسولهم شكواهم المتواضعة . فأعربوا عن تألمهم الوقور.^(١) فقال لهم محمد [بعد أن حمد الله وأثنى عليه] يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ؟. وجدة (موجدة وعتاب) وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم أنكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟. قالوا بلى والله ورسوله أمنّ وأفضل ثم قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار !. أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ، أتيناك مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك ! وطريداً فأوريناك وعائلاً فأسسيناك ! أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعابة (بقية يسيرة) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا وواكلتكم إلى إسلامكم .. ألا ترضون معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً (طريقاً بين جبلين) وسلك الأنصار شعباً ، لسلك شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .]

وبعد أن حظى الأنصار بشرف التكريم بهذه الثقة العظيمة ، وبعد أن تأثرت قلوبهم بهذا العتاب الرقيق ، انصرفوا راضين . ولما انتهى كل شئ ، تجرأ مسلم لم يحفظ لنا التاريخ اسمه سوى ذو الخويصرة [أى صانع الافك] وصاح فى وجه قائده بأنه لم يراع العدل فى توزيعه الغنيمة . فقال له محمد « ويحك ! إن لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ »^(٢) وأراد عمر أن يضرب عنق هذا الوقح ، فقال له محمد : « دعه فسيخرج منه جيل يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرميّة [الهدف] ولا يعود إليه أبداً »^(٣) .

(١) أبو الفدا ص ١١٩ (وص ١٥٥ والطبرى ٣/ ٩٣ والانوار احمديّة ص ١٢٢/ ١٢٣ وتهذيب سيرة بن هشام ص ٤٢٨/ ٤٣٠) .

(٢) أبو الفدا ص ١٩٩ [١٥٥] وجناب ص ٢٤٠ [الطبرى ٣/ ٩٢] .

(٣) إذا صدقنا المؤرخين العرب فإن النبوة تحققت . فقد انجب ذو الخويصرة ابناً سماه حرقوص بن زهير اليحكي وأطلق عليه الناس « ذا المذمة » [أو ذا الخديعة] وصار زعيم الخوارج الذين ثاروا على سلطة الإمام الدينية .

[عمرة رسول الله ﷺ من الجعرانة]

[ليلة الأربعاء ١٢ من ذى القعدة سنة ٨ هـ]

وبعد أن أخضع النصر جل القبائل العربية للإسلام : صار رؤساؤها سنداً قوياً لمحمد تحت تأثير إنعامه عليهم ، فذهب محمد يقدم الحمد والثناء لله على نجاحه ، فقصده مكة مع موكب ليس بالكبير . وزار الأماكن المقدسة وأدى المناسك المعهودة ، وأثاع في كل مكان قصد إليه ذلك الجلال الديني الذي يطبع في الأذهان فكرة الإله الواحد الذي يعبد ، والذي يعكس على رسوله نصيباً من مجده ، ثم أخذ يوجه عنايته إلى شئون الحكومة فعين في المناصب الرئيسية «عتاب بن أسيد» عاملاً له على مكة «ومعاذاً» إماماً ، على أن يتولى الأول الشئون المدنية والآخر يفقه الناس في أمور الحج ، وذلك باعتباره رئيساً دينياً ، وبينما شغلت محمد هذه الأمور ، أخذ الأنصار - وهم أصحاب محمد الأوفياء - يتهامسون فيما بينهم ، إذ كانوا يخشون أن يجعل محمد من مكة عاصمة لملكه - فكانوا ينتظرون عودته بفارغ الصبر . وكانت كل لحظة تمر عليهم بمكة كأنها دهر طويل . ولكن محمداً كان بعيداً عن أن يحقق مخاوفهم . وكان لا يجهل أن وجود سيد واحد لقريش قد يوقظ الأحقاد التي لم تكد تخدم ، وأنه في مكة لم يكن سوى المواطن الأول في قومه . أما في المدينة فهو الملك والزعيم الديني والنبى . فتعجل العودة إلى معسكر الجعرانة ثم قفل راجعاً بقواته الظافرة إلى المدينة . ولقد سره رؤية أفراح الشعب كله سرورا أعظم من مشهد إذلال رؤوس قريش المتكبرة . وتمت أمانيه بميلاد ابن له سماه إبراهيم . إذ وضعته مارية المصرية القبطية التي أهداها له المقوقس - بعد وصوله المدينة بعدة أيام (١). ولقد احتفل بهذا اليوم العظيم ، فأقام مأدبة كبيرة لأصدقائه .

[موت حاتم الطائي]

وفي نفس العام فقدت الجزيرة العربية أحد كبار شعرائها هو حاتم . كان مسيحياً وسيداً بمدينة تدعى «خَضْر» وتقع بالقرب من نجد بين أجا وجبل سلمى . وكان ينشد الأشعار التي تحكى البطولات والكرم التي كان هو نموذجاً مجسماً لها ، ويشيد به «الميداني» مؤلف كتاب [مجمع الأمثال] فيقول «كان حاتم كريماً وشجاعاً وشاعراً موهوباً ودائماً منتصراً . فإذا

(١) أبو الفدا ص ١٢٠ = [١٥٦] وجناب ص ٢٤٤ [الطبرى ٣ / ٩٥]

اشترك فى قتال خرج منه مكللا بالغار . واذا تعقب فريسة أدركها . وإذا طلبت منه معروفا حققه . وإذا لعب القمار انحاز الحظ إلى جانبه . وإذا تنافس فى جائزة السباق فإنه يقدم الجواد الفائز . وإذا وقع فى أيديه أسرى اعتقهم . وكتب العرب زاخرة بالأمثلة الدالة على أريحيته . ولا استطاع أن أحرم نفسه من متعة ذكر اللوحة التالية التى أوردها نفس المؤلف . فقد تنكر حاتم ذات يوم وعبر إقليم عنزة Anzirate فتعرف عليه أسير مكبل بالقيود، واعتقد الأسير أنه لو استطاع أن يسمع صوته حاتماً فإن قيوده ستساقط . « فصاح يا أبا سفانة »^(١) إن الأسير والمرضى قد أنهكاني . فقال له حاتم « يا صاحبي ما كان ينبغي أن تذكر اسمي فى أرض غريبة . ومع ذلك اقترب من الأسير البائس وفك قيوده وربط نفسه مكان الأسير . ولما أمكن التعرف عليه . تعذر عليه استرداد حريته إلا بدفع الفدية ذهباً . وظل فى قيوده حتى دفعها وكم كانت كبيرة .

[تعقيب]

[يلاحظ أن سفارى يحرف الأسماء تحريفاً كبيراً مثل كلمة (عنزة) التى كتبها بما ينبغي ترجمته الفرط، أو الأجرد، وهما مكانان أيضاً . وليس فى مجمع الأمثال أن حاتماً اقترب من الأسير ففك قيوده . ولكنه ساوم فيه العنزيين فاشتراه منهم ثم أطلق سراحه . وحل مكانه فى الأسر حتى يأتى أهله بالثمن الذى افتدى به الأسير^(٢) .

[إسلام عدى بن حاتم : ربيع الآخر سنة ٩ هـ]

ولقد ترك حاتم بعد مماته ابناً يدعى «عدياً» وترك ابنته «سفانة» الجميلة^(٣) . وكانا على الدين المسيحي على حين أن بعض قبيلتيهما كان يعبد الأوثان . ولقد أرسل محمد علياً مع قواته لكى يحطم «الفلس» [وفي الاصل الفرنسي ELFATAS] صنمهم الرئيسى^(٤) . ففر عدى إلى سوريا حاملاً معه جزءاً من ثروته . بينما مكثت سفانة بخضر . فاقتيدت إلى المدينة

(١) [أبو سفانة معناه أبو اللؤلؤة ولقد حمل حاتم هذا الاسم حبا فى ابنته سفانة] .

(٢) [مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى المتوفى سنة ١٨ هـ ج

ص ١٩٧ / ١٦٦ بطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر سنة ١٣٤٢ هـ .]

(٣) [ابن اسحق وأبو الفدا ١٥٦ / ١ والاغانى ٩٣ / ١٦ وغرر الخصائص الواضحة لأبى اسحاق الطواط .

[إنسان العيون ٢ / ٢٨٥ .]

(٤) [الطبقات ٢ / ١١٨ .]

وعرضت في ميدان عام مع جموع من السبايا . وبينما كانت رفيقاتها في البؤس تطلقن الزفرات والدموع ويستسلمن لليأس كانت سفانة تفكر في مخرج من هذه الهاوية . ولما لاحظت محمداً وهو يمر - نهضت بسرعة وقالت له : «يا رسول الله إن أبى قد مات وفر ولى» ، فأنعم على كما أنعم الله عليكم » فسألها : « ومن وليك ؟ » قالت «إنه عدى بن حاتم» فقال لها «فلتحقق السماء أمينتك كما أحققها لك» ونزع عنها قيودها وأطلق سراحها وأجزل لها العطاء وأعادها إلى أخيها. فتأثر عدى لهذا الكرم وانطلق إلى المدينة واعتنق الإسلام .

[تعقيب:]

[أليس في هذا الذى قرره سفارى دليل على أصالة المرحمة فى النبى ﷺ تنفى عنه اتهام المستشرقين بأنه كان عاشق دماء ؟]

[عام الوفود]

عام ٦١٢٤ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا - عام ٦٣٤ من ميلاد المسيح عام ٩ من الهجرة - عام ٦١ من ميلاد محمد .

كان العام التاسع الهجرى متميزاً بالسفراء الذين جاءوا نبى الإسلام صاغرين . فقد كان جل أمراء القبائل حتى ذلك الحين يقومون بدور المتفرج أمام المعارك التى دارت بمكة أو بالمدينة . وكانوا ينتظرون حكم النصر الفاصل لكى يحددوا موقفهم ^(١) . فما أن تحدد النصر ورأوا قريشاً - وقد كانت تتمتع بإجلال العرب لها بصفتها الأمانة على الدين وحارسة الأراضي المقدسة - قد خفضت جبينها لقانون الإسلام ، جاء المشركون أفواجا يقدمون الولاء للمنتصر ويباعون على الطاعة وتحققت هذه النبوءة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ﴾ ^(٢) فاستقبل محمد وفود القبائل استقبالا عظيماً وعاملهم معاملة تليق بمكانتهم وأعادهم محملين بالهدايا النفيسة [!!؟] .

[وفد بنى حنيفة]

وكان من أعظم هؤلاء الوافدين مسيلمة أمير اليمامة . وهى مدينة أطلق اسمها على الإقليم الذى كانت عاصمته .. وأسلم هذا الأمير، وجاء يبيع محمداً على الإخلاص والطاعة . وما

(٢) القرآن الكريم سورة النصر.

(١) أبو الفدا ص ١٢١ [١٥٦] وجناب ص ٢٤٥

أن عاد الى بلاده حتى ارتد . ظنا منه أنه يستطيع أن يقوم بدور النبي - وهو حاكم لمدينة قوية وعظيمة وهو موقر بين رعاياه . وأخذ يدعو إلى الفكرة فانضوى تحت لوائه عدد عظيم من الخلق واعتبر نفسه نداً لمحمد . وكتب إليه يقول : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . ليكن لك نصف الأرض ولي النصف الآخر » . وكان محمد . متمكناً من نفسه . ولم يكن بحاجة إلى شريك . فرد عليه بقوله : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

[تعقيب]

[روى البخارى أنه جاء المدينة يطلب استخلاف النبي له فرفض النبي ﷺ ولكن سفارى يعرض الخبر فى صورة خبيثة] (١)

ولم تكن مواهب مسيلمة وكفاءته تتناسب مع طموحه ، فكان ملكه عابرا ، وقتل فى معركة فاصلة قادها خالد فى خلافة أبى بكر وقضى على حركته نهائياً .

[وفد ثقيف وزعيمها عروة]

وكان عروة [بن مسعود الثقفى] زعيم ثقيف غائباً وقت أن حاصر المسلمون الطائف . فحضر إلى المدينة واعتنق الإسلام وأراد أن يصبح نبي قومه^(٢) . فكشف له محمد عن مدى عناد قومه والأخطار التى تحيط بنبوته [١٩] . وبالرغم من هذا التحذير فإن عروة ذهب إلى قومه يدعوهم إلى دينه فكان الموت ثمناً لاندفاعه وقتل بسهم .

[العفو عن كعب بن زهير]

وعاد إلى المدينة كعب بن زهير الذى كان مهدر الدم . واختار الوقت الذى كان فيه محمد بالمسجد وحوله جمع كبير من الناس . فظهر فجأة وسط الجمع ، ونطق بالشهادة وأنشد قصيدة مشهورة يعتبرها العرب من روائع الشعر ، مطلعها :

[بانئت سعاد فقلبنى اليوم متبول : متيم اثرها لم يفد مكبول]

وفيهما : [إن النبي لنور يستضاء به : مهتد من سيوف الله مسلول]

(٢) أبو الفدا ص ١٢٢ [١٥٦] والطبرى ٣/ ٩٦

(١) [البخارى ٥/ ٢١٧]

وأعجب محمد بمدبحه حتى أنه تخلع بردته وألبسه إياها^(١) ولقد ألتبس على الدكتور «ريدو» اسم كعب هذا مع اسم كعب آخر كان شاعراً هجاء وقتل في العام الثالث الهجري.

[غزوة تبوك : في رجب سنة ٩ هـ]

[التوقييت والإعداد]

ساد السلام ربوع الجزيرة وأصبح الشعب يوقر نبيه أو يخشاه عن حب أو عن قهر . على حين ظل بعض صغار الأمراء بعيدين عن سيطرته ، ولكنهم لم يكونوا ذوى شأن حتى يحولوا بين محمد وبين تحقيق أغراضه . وكان إخضاع العرب في نظر محمد شيئاً قليلاً . إذ كان يطمع أن يستخدم قوتهم المتحدة للإطاحة بالعروش المجاورة وغزو بلادها . ولقد لفت الشام نظره إذ كانت هذه البلاد الغنية مناسبة له . فأخذ يدرس طريقة غزوها . وإذا كان الموت لم يترك له الوقت لتنفيذ مشروعه ، فقد خط لخلفائه الطريق الذى سلكوه . ولما علم أن الروم حشدوا قواتهم على الحدود ، أعلن الحرب المقدسة ضدهم . وكان حتى ذلك الحين قد قاتل قبائل منقسمة بعد أن غطى تحركاته بالغموض . . إذ أن سرية غزواته وسرعة هجماته لم تكن تترك لأعدائه الفرصة لكشف أمره . وهزم أكثرهم قبل أن يستطيع تجميع قواته . ويرجع إلى هذه السياسة الفضل فى كثير من انتصاراته . أما أمام الروم المتحدين تحت لواء واحد ، فقد كان عنصر المفاجأة غير ذى موضوع . وكان الموقف يتطلب معارك كبيرة لتشتيتهم . ولهذا غير من خطته وأعلن عن عزمه . وفيما يعد المسلمون عدتهم المناسبة ، كشف لهم عن المتاعب والعقبات التى ستواجههم وشجاعة الأعداء والعدد الذى سيقاتلون^(٢) . وبدأت التجهيزات فى شهر رجب . وكان الحر شديداً والقحط والجفاف قد غطيا أراضي المدينة . وكان انتظار قطف الثمار الجديدة والأمل فى جنى محصول قريب ، يقيدان شجاعة المقاتلين ، فضلاً عن أن الجيش

(١) لقد عرض معاوية على كعب مبلغ عشرة آلاف درهم ثمناً لهذه البردة ولكنه لم يحصل عليها . ولما مات الشاعر استراها من ابنائه بعشرين ألف درهم . وأصبحت هذه البردة زينة للخليفة يرتديها فى الاحفال الرسمية . ولقد ارتداها المعتصم يوم أن مثل أمام هولاكو زعيم المغول . وكان مع المعتصم عصا محمد : أيضاً ولقد أحرق هولاكو البردة والعصا فى حوض والقى بالرماد فى نهر دجلة وقال : (ليس الحق هو الذى دفعنى الى حرق هذين الأثرين الثمينين ، وإنما هو حرصى للحفاظ على طهارتهما وقد استهما) . وكان المعتصم هو الخليفة السادس والثلاثون وآخر الخلفاء العباسيين . وبعد أن استولى هولاكو على بغداد وامعن القتل فى الاهالى قتل المعتصم (أحمد بن يوسف - التاريخ العام ج ١)

(٢) أبو الفدا ص ١٢٣ / ١٥٦ / ١ والانوار المحمدية ص ١٢٧ والطبرى ٣ / ١٠١

الكبير كان يتطلب نفقات باهظة . ولكن بلاغة محمد وتصميمه تغلبا على كل هذه المعوقات . فأعطى أبو بكر كل أمواله لتجهيز هذه الحرب المقدسة . وقدم عمر نصف أمواله . ودفع العباس مبالغ كبيرة من المال . وقدم عثمان ألف دينار من الذهب . وذبح ثلاثمائة بعير . وتعهد بالانفاق على ثلاث كتائب أثناء المعركة .

[تعقيب]

[هكذا يرد المستشرقون الى البلاغة أروع ضروب التضحية ليقولوا من أثر الإيمان الصادق واليقين الجازم بالله والآخرة وقد تجاهل سفارى أن الاعجاب بشخص لرواء حديثه ينتهى بعد عدة جلسات - لا سنين - كما هو الأمر هنا] .

[تخلف المنافقين]

وتم تجهيز كل شئ وتحرك محمد وعسكر على بعد عدة فراسخ من المدينة . وتخلف عبد الله المنافق مع أنصاره ، وكان يسخر من المؤمنين الذين يعرضون أنفسهم للاخطار فى الحر الشديد تدفعهم حمية خرافية فرد عليهم محمد [١٩] فى القرآن بقوله [بل قول الله يا سفارى] ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ (١)

[المخلفون التائبون واستخلاف على]

وكان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع [العمرى] وهلال بن أمية [الواقفى] هم وحدهم الذين رفضوا الخروج طبقاً لأمر القائد (٢) وكان محمد قد عهد إلى على بحكم المدينة ورعاية أهله فى غيابه . وأخذ المشركون الذين كانوا يخشون بأس على - وكانوا يكرهونه - يحاولون إلقاء الشك فى قلبه . فأشاعوا أن محمداً قد تركه وراءه لأنه كان يغار من بطولته . وتأثر على بهذا الحديث واستيقظ فى نفسه حبه للمجد . وحمل سلاحه وانطلق إلى المعسكر ونقل إلى محمد الشائعات الخبيثة التى كانت تنتشر عنه فقال له محمد [كذبوا ولكنى خلفتك

(١) سورة التوبة الآية ٨١

(٢) أبو الفدا ص ١٢٣ / ١٥٧ والطبرى ٣ / ١١١ والبخارى ٦ / ٩ : ٩

لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ؟ [فطابت نفس على وعاد إلى منصبه وأسكت الرغبة التي كانت في نفسه.(١)

[السير إلى تبوك]

وكان جيش المسلمين القوى قد بلغ عشرين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان . وتحرك الجيش وكان القيظ شديدا . وأخذت حرارة الشمس الحارقة والنقع الخانق والعطش المهلك تزيد الجنود إعياء . ولكن المثل الذي كان يضربه قائدهم وهو يسير في مقدمتهم بلا شكوى كان يقوى من عزمهم (٢) . ولما وصلوا إلى الحجر (٣) - وهو واد على مسافة من وادي القرى - أرادوا أن يرووا ظمأهم من إحدى العيون فقال لهم محمد [لا تدخلوا بيوت هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم] (٤) ولا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة - وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الابل ولا تأكلوا منه . ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له [(٥) فلما فرغ من حديثه غطي وجهه ببردته وعبر الوادي مسرعا (٦) ، واجتاز الصحارى الشاسعة متحملا التعب المذهل حتى بلغ

(١) [أبو الفدا ص ١٥٧ والأتوار المحمدية ص ١٢٨ - وقيل خلف سباع بن عرفة لا عليا ، ورجح ابن سعد أنه خلف محمد بن مسلمة ورجح ابن عبد البر أنه خلف عليا (الدرر ٢٥٤) وقال ابن اسحاق خلف الرسول عليا على أهله وسباع على المدينة . ومثل هذا في البخارى ٣ / ٦ وفي الطبقات الكبرى ١١٨ / ٢ وفي الطبرى ١٠٣ / ٣]

(٢) ابن عقيل - ابن ادريس عالم الجغرافيا [وابو الفداء ص ١٥٧ والطبرى ١٠٢ / ٣]
(٣) هذا الوادي خال من السكان الآن ويسمى العرب الجبال المحيطة به Elateleb أى قطع الصخر (ابن عقيل)
[وكان به قرية نواحي المدينة وبه عيون وآبار لبنى سليم خاصة . وتعرف الآن باسم مدائن صالح . كانت به ديار ثمود - تاج اللفة وصاحح العربي لأبى نصر اسماعيل بن حماد الجوهري - والقاموس المخطوط] ولقد أهلك الله ثمود سكانها القدامى انتقاما إلهيا لقتلهم ناقة صالح رسولهم التى أخرجها من الصخور بمعجزة [هل الله يا سفارى هو صانع هذا] وذكر محمد [١٩] جرميتهم وعقابهم فى مواضع كثيرة من القرآن وهو الذى يعتمد على الأثر التاريخى . وكان غرض محمد من هذا كسب التأيد لدعوته . ولقد رفض الشرب من البئر التى شرب منها هؤلاء الكفار [هكذا يفهم المستشرقون النبى ويفسرون أعماله كما لو كان دجالا مثلهم.]
(٤) (الدرر ص ٢٢٥)

(٥) [تهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٤٧ وإرشاد السارى لشرح البخارى ٦ ص ٤٥٨]
(٦) أبو الفدا ص ١٢٤ - (١٥٧ - ١٥٨) وسفارى يكذب على أبو الفدا فى قوله (غطي النبى وجهه ببردته . ولم يذكره الطبرى فى روايته (الطبرى ١٠٥ / ٣) .

تبوك^(١)، حيث وجد الماء والتخيل ، وتوقف حتى يتسمع أخبار عدوه. ولما علم أن الروم قد انسحبوا ، يمم وجهه نحو إخضاع صغار الأمراء المجاورين حتى يؤمن حدوده مع الشام . ولما كان بأرض الأمبراطور هرقل ، فقد كتب إليه رسالة ثانية يدعوه فيها إلى الإسلام . فاستقبل هرقل الرسول باعزاز وردده بكلمات طيبة .

[معاهدة أيلة^(٢)]

(٣) ومع ذلك فإن سكان القرى والمدن المجاورة قد فرغوا من اقتراب هذا الجيش العظيم ، فأسرعوا يتجنبون العاصفة، وأرسلوا وفودهم إلى معسكر تبوك ، وقدموا الولاء لرعيم المسلمين.^(٤) وجاء يوحنا أمير أيلة بنفسه - وكان مسيحيا - وصالح محمدا على أن يدفع إليه الجزية ومقدارها ثلاثة آلاف دينار من الذهب سنويا . وكتب النبي له عهدا نصه الآتى : -

[بسم الله الرحمن الرحيم ^(٥) . هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليؤحنه بن رؤية وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم (قافلة الناس والإبل) فى البر والبحر . لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، وما كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، إنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر^(٦)] ولقد احتفظ أهل أيلة^(٧) بهذا الكتاب بعناية وحافظوا عليه حتى وقتنا الحاضر. وفوق ذلك فقد أهدى النبي أهل

(١) يمثل تبوك مشهد الحصوبة المشرقة فى قلب الصحراء وتقع هذه المدينة على مسيرة ستة أيام شرقى مدين وأربعة أيام من الشام (الإدريسى) ويقول جناب هى حصن مشهور فى طريق الشام .

(٢) [أيلة كانت تفرأ على خليج العقبة أو بقربه]

(٤) أبو الفدا ص ١٢٥ (١٥٧/١) وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٥١ والطبرى ٣/ ١٠٨]

(٥) مؤلف كتاب الأنوار [وفى الأنوار المحمدية ص ١٧٢] .

(٦) [الأنوار المحمدية ص ١٧٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٥١] .

(٧) وأيلة مدينة تقع فى البحر الأحمر وكان يسكنها اليهود فى الزمان الغابر - وكان الحجاج المصربون يمرود بالقرب منها وهم فى طريقهم الى مكة . ويقول أبو الفدا إنها مهجورة الآن . ولقد تهدمت القلعة التى بيت فى البحر حيث كان يقيم الحاكم المصربى وانسحب إلى المدينة المقامة على الشاطئ على بعد خمسة أيام من مدين على نفس الساحل (أبو الفداء وصف الجزيرة العربية ص ٤١) وإذا صدقنا القرآن [١٩] فإن الله قد عاقب اليهود سكان أيلة فى الماضى لأنهم أصبحوا كافرين ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك : ثمر مكاننا وأضل عن سواء السبيل ﴾ (سورة المائدة)

أيلة البردة التي كان يرتديها (١) وقتئذ .

[صلح أذرح وجرباء]

(٢) ولقد استقبل محمد وفد أذرح ووفد الجرباء بحفاوة - وهما مدينتان على حدود الشام . وعقد معهما صلحا على أن يدفعوا له الجزية وقدرها مائتا دينار . وبذلك أصبح جميع الأمراء الصغار المجاورين خاضعين له بعد أن رفضوا اعتناق الإسلام .

[بعث خالد إلى أكيدر دومة الجندل (٣) رجب سنة ٩ هـ]

أما أكيدر أمير قبيلة كنده النصراني فقد رفض الطاعة لمحمد . وكان فخوراً بلقب ملك دومة وهي مدينة على بعد مسيرة خمسة أيام من دمشق [شمال نجد وهي طرف من أفواه الشام وبينها وبين المدينة خمسة عشرة ليلة] ولم يرسل وفداً إلى تبوك . وانسحب في حصن مدهن بأمواله وأهله وظن أنه في مأمن من العاصفة . ولكن محمداً كان يخشى أن يترك خلفه عدواً ماكراً . فجهز إليه خالددا على أربعمائة فارس ، وأمره بخلع هذا الأمير المتمرّد (٤) . وأصبحت البلاد كلها حتى الحدود خاضعة لمحمد . فقفّل راجعاً من تبوك بعد أن مكث فيها عشرين يوماً (٥) وبينما هو عائد إلى المدينة بقواته ، طار خالد إلى حصن مدهن . ولما كانت قوته صغيرة لا تستطيع مواجهة العدو ، فقد لجأ إلى الدهاء والحيلة . فكمن على بعد من الحصن، وترصد اللحظة التي خرج فيها أكيدر للصيد فأخذه هو وموكبه . ولقد قاوم أخوه حسان فقتل . وكان يلبس حلة من الديباج مطرزة بفصوص من الذهب . أرسلت إلى محمد برهانا على النصر . ولقد جذبت هذه التحفة كل الأنظار في الجيش . فأخذ

(١) لا يزال العثمانيون يحتفظون بهذه البردة . ولقد صنع لها مراد خان بن سليم خان - الذي تولى مقاليد الحكم في عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م صندوقاً من الذهب واحتفظ بها فيه . وينسب إليها الأتراك رخاء ملكهم وانتصار جيوشهم والشفاء من الأمراض لمن يشرب من الماء الذي غمست فيه [١٩] (أحمد بن يوسف التاريخ العام) .

(٢) أحمد بن يوسف أبو الفدا وجناب

(٣) [الأنوار المحمدية ص ١٢٩ وأكيدر هو أكيد بن عبد الملك . أصله من كنده وكان نصرانياً]

(٤) [في الأنوار المحمدية ص ٤٢٠ فارساً] .

(٥) [هذه رواية بن سعد وقال ابن هشام ابن عبد البر بضع عشرة ليلة (تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٥٣

والدرر ص ٢٥٧ والأنوار المحمدية ص ١٣٠ والطبقات ٢ / ١٢١] .

كل جندي يلمسها متعجباً . ولما لاحظ محمد دهشتهم البلهاء ، أراد أن يضع لها حدا فقال لهم [أتعجبون من هذا فوالذى نفسى بيده لماناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا (١)] ولكن خالدا - وقد كان مفاوضاً ماهراً وقائداً عظيماً - استطاع أن يستولى على مفاتيح الحصن وعلى ألف بعير وثمانمائة حصان وأربعمائة درع . واقتاد أكيدر وأخاه مسعودا إلى محمد الذى عفا عنهما وفرض عليهما الجزية وأعادهما إلى بلادهما ومعهما كتاب أمانة (٢) .

[مسجد الضرار]

وفى طريق عودة محمد إلى المدينة مر بالقرب من أرض قوم ganamites [بنى عبيد وبنى ضبيعة (٣)] وهم عرب يخفون نصرانيتهم . وكانوا قد أقاموا مسجدا ينافسون به مسجد قباء وأقاموا فيه الصلاة علانية . ولما أرادوا أن يجذبوا إليه الناس دعوا النبی ليصلى فيه تشريفاً له . (٤) وكاد النبی يحقق لهم هذا الشرف لولا أنه علم أن أبا عمرو هو إمام المسجد .

لقد كان هذا الناسك الورع مرتديا مسح النساك (٥) ، رغبة منه فى جذب احترام الناس . ولقد دفعته حماسه للدين المسيحى وبغضه لمحمد إلى أن يذهب إلى القسطنطينية ليطلب من هرقل قوات يحارب بها عدو دينه . ولكن الأمباطور رفض طلبه . ويرسم القرآن صورة هذا المسجد ﴿والذين اتخذوا مسجداً﴾ (فى الأصل الفرنسى معبداً) ضراراً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليلحقن إن أردنا إلا الحسنى . والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً . لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴿ (ترجمة باقى الآية : المعبد الحق له أساسه المبنى على التقوى) (٦) ولقد كان التحريم صريحاً .

(١) تهذيب سيرة بن هشام ص ٤٥٣ - والطبرى ج ٣ ص ١٠٩ [وأبو الفدا ص ٢٢٦ .

(٢) الطبقات ج ٨ ص ١١٩ والطبرى ج ٣ ص ١٠٩ .

(٣) جناب [والأنوار المحمدية ص ١٣٠ والطبرى ٣ / ١١٠]

(٤) جلال الدين .

(٥) هكذا يصور لنا الكتاب العرب شخصية أبى عمرو . ولا شك أنه كان من رجال الدين النشطين الذين كانوا يبذلون كل جهدهم للمحافظة على المسيحية المترنحة .

(٦) سورة التوبة .

فأرسل محمد قوات هدمت المعبد^(١)

[التوبة على الثلاثة المخلفين]

ولما عاد الى المدينة فى شهر رمضان ، عاقب بشدة الأنصار الثلاثة الذين خُلفوا ولم يخرجوا معه فى لوائه. لقد نفاهم المجتمع وحرّمهم من كل حقوقهم :حرم الاتجار معهم، وكذلك الحديث معهم ، وكان الناس يفرون منهم ، ولقد استمر هذا العقاب القاسى خمسين يوما . ولما اعتقد أنهم قد نالوا ما استحقوا من العقاب . أنزل من السماء [٢] الآية التى تعلن عن جريمتهم وعن عقابهم وعن العفو عنهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [وقد سبق التعقيب على مثل قول سفارى أنزل محمد من السماء الآية فى مواقف أخرى .]

[إسلام ثقيف : رمضان سنة ٩ هـ .]

وما أن عاد إلى المدينة حتى غمره السرور لما علم بخضوع ثقيف . اذ كانت هذه القبيلة المحاربة قد قاومت بقوة السلاح . ولما أصبحت بلا حليف وصارت محاطة بالأعداء ومنهكة على الدوام من هجمات قوات مالك ، زعيم هوازن ، اضطرت مكرهة على مسيرة الطوفان . فأرسلت عشر سفراء إلى المدينة .(٢) فلما سمح لهم بالدخول إلى مجلس النبى ، عرضوا عليه دخولهم الاسلام بشرط أن يحتفظوا ثلاث سنوات بصنم اللات (كانت أكبر إلهة عند العرب . ولكن ثقيفا كانت تعتقد فيها عقيدة خاصة) فرفض اقتراحهم . فطلبوا أن يسمح لهم بالنظر إليها مرة كل شهر . فأبى محمد . فطلبوا أن يعفيهم من الصلاة . فقال لهم « إنه لا خير فى دين بلا صلاة » . وتحت ضغط الظروف اضطروا للخضوع ولإعتناق الإسلام [١؟] وحتى يتأكد

(١) المعبد الذى أقامه محمد سمي « التقوى » انظر العام الهجرى الأول .

(٢) أبو الفدا ص ١٢٧ [والطبرى ٣ / ٩٧ - ٩٩ . وقال ابن عبد البر وابن هشام والطبرى هم ستة ١ - عبد باليل بن عمرو بن عمير رئيساً ٢ - والحكم بن عمرو بن وهب بن محب ٣ - وشرحبيل بن عيلان بن سلمة من بنى محب ٤ - عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان من بنى مالك ٥ - وأوس بن عوف من بنى سالم ٦ - ونمير بن فرشه بن ربيعة من بنى الحارث (الدرر ص ٢٦٢ - ٢٦٣ والطبرى ٣ / ٩٨) والتهذيب ٤٥٧ ، ٤٥٨ .]

النبى من إسلامهم، أرسل معهم المغيرة وأبا سفيان بن حرب وكلفهما بتعطيم اللات . واعتقد أهل الطوائف أن الآلهة سوف تصعق منتهكى حرمتها ، واجتمعوا ليشهدوا انتقام السماء (١) . فتناول أبو سفيان مطرقة كبيرة وضرب بها الصنم . وسواء أكانت الضربة بقوة أكبر من المطلوب ، أو كان الرعب قد ملأ قلبه ، فقد انقلب على الأرض . فارتفعت الأصوات معربة عن فرحتها وعن سخريتها من هزيمته . فجاء المغيرة وأخذ المطرقة بيد أكثر ثباتاً ووجه إلى الصنم عدة ضربات فحطمه وجعله جذاذاً . فانقلبت الهتافات عويلاً وأخذت [الشمطوات مكشوفات الرؤوس] تبكين وهن ينشدن هذا النشيد الجنائزى:

[لَتَبْكَيْنَ دَفَّاع : أسلمها الرُّضَاع لم يحسنوا المصاع (٢)]

[حجة أبى بكر الصديق سنة ٩ هـ]

ولقد كُلف (٣) أبو بكر فى شهر شوال أن يخرج بالناس حاجاً فخرج فى موكب من ثلاثمائة رجل . فلما نزل ذا الحليفة - وهى قرية على بعد عدة أميال من مكة .

[وفى الطبقات ٢ / ١٢١ بالعرج وهونحو ثمانين ميلاً من المدينة . بينما ذو الحليفة على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة] رأى علياً مقبلاً عليه يحمل أحكاماً جديدة نزلت من السماء .

والواقع أن النبى اعتقد أنه لا داعى لمجاملة المشركين بعد ذلك : فنشر [!!؟] (٤) سورة التوبة

(١) جناب [والطبرى ٣ / ٩٨ : ٩٩] .

(٢) [ودفاع لقب للصنم لأنه يدفع عنهم البلاء والأعداء . وتريد بالرضاع اللثام . فالعرب تقول : لثيم راضع - والمصاع بكسر الميم المضاربة بالسيوف . انظر تهذيب سيرة بن هشام ص ٦٠ والطبرى ٣ / ٩٩ والدرر ٤ / ٢٦٤]

(٣) أبو الفداء ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ [١٥٨] والبخارى ٥ / ٢١٢ .

(٤) هى آخر سورة نشرها [!!؟] محمد ولكن الذين جمعوا الأجزاء المتفرقة التى يتألف منها القرآن كانت كل عنايتهم طول السور وليس تاريخ ظهورها فوضعوها تاسع سورة (البخارى) .

تعقيب : [معروف أن ترتيب سور القرآن الكريم توفيقى موحى به من السماء . والحكمة واضحة . وهى أن الكتاب كله بترتيبه هذا يعطى قارئه صورة تختلف عما لو كان ترتيب الآيات والسور على هيئة أخرى . فترتيب الأفكار تأثيره ودلالته فى أى مقال أو كتاب فى أى لغة . وقد تعرضت السورة لأحداث فى غزوة تبوك فى منتصف العام التاسع بينما أول التوبة فى أواخر العام التاسع . وآيات من المائدة نزلت فى العام العاشر فى حجة الوداع]

حيث تقرأ هذه الكلمات : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله . فإن تبتم فهو خير لكم . وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله . وبشر الذين كفروا بعذاب أليم .. ﴾ (١) . هذا الكلام جرياً على زعم الكاتب أن النبي هو صانع القرآن وينسبه إلى الله كذباً .

كان على عليّ أن يقرأ هذه السورة المتهبة على جموع الشعب . فغار منه أبو بكر ورجع إلى المدينة وقال لمحمد [أنزل فيّ شيء ؟] فرد عليه النبي قائلاً [لا ولكن لا يبلغ عنى إلا أنا ورجل منى . ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وصاحبى على الحوض ؟] قال أبو بكر بلى ، وعاد راضياً .

[تعقيب]

[رواية أبى الفدا ١ / ١٥٨ والذى رواه الثقات من كتاب السيرة هى أن علياً حين أدرك أبا بكر بالطريق سأله يا على : أميراً أو مأموراً ؟ قال على : بل مأموراً ثم أخبره بما جاء به .. أما الهراء الذى ذكره الكاتب فلم يذكره (٢)]

ولما بلغ مكة أمّ الناس فى الحج ، وأخذ يعلمهم المناسك التى كان ينبغي مراعاتها فى ذلك اليوم . وفى الليلة السابقة للذبح الهدىّ قام علىّ بقراءة سورة التوبة (٣) . وفى اليوم التالى خطب الناس وأعلن أنه بعد هذا العام لن يستطيع إنسان أن يطوف حول الكعبة إلا وهو مرتد ملابس الإحرام . وأضاف أنه محرم من الآن فصاعداً على المشركين أن يقوموا بالحج أو يقتربوا من الكعبة . وإلا عوقبوا بالموت . والقرآن يعزز هذا التحريم (٤) ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حكيم ﴾ (٥) ولما انتهت مراسم الحج عاد أبو بكر وعلىّ إلى المدينة .

(١) سورة التوبة [الدرس ٢٢٦ والطبقات القسم الأول ج ٢ ص ١٢١]

(٣) جناب ص ٢٧٢ [وأبو الفدا ج ١ ص ١٥٨]

(٤) ولقد روى هذا المبدأ بعد ذلك فأى غريب يتجراً على الاقتراب من مكة يقتل إذا اكتشف أمره . [وهذا اقراء من سفارى إلا اذا أراد بالغريب من ليس مسلماً ومع هذا فإن المشرك لا يقتل عند ضبطه .]

(٥) القرآن سورة التوبة .

[وفود اليمن]

عام ٦٣٢٥ من هبوط آدم حسب تقدير أبي الفدا - عام ٦٤٠ من ميلاد عيسى عام ١٠ من الهجرة عام ٦٢ من ميلاد محمد .

كان إعلان هذه الأحكام القاسية آخر الضربات التي وجهت إلى الشرك. وأسرع الناس أفراداً وأفواجاً يعتنقون الإسلام . وجاء ملوك حمير^(١) اقتداء بغيرهم من الناس. وتحت إغراء الرسائل التي أرسلها إليهم محمد وقالوا له : « إنهم حطموا أوثانهم وأنهم دانوا للدين الحق ، وأنهم متأهبون لمحاربة الوثنية بكل قوة » . سرّ النبي بهذه الأنباء وهناً للملوك بالفلاح الذي نالوه عند ما فتحوا أعينهم على النور. ودعاهم إلى طاعة الله ورسوله^(٢) . ولكن يستوثق من ولاء هذه الأقاليم الغنية أوفد قائدين عسكريين يحكمانها باسمه. فتولى أبو موسى حكم زبيد وعدن وأقام معاذاً بجند [يلاحظ أن أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل من كبار الفقهاء . ولكن الكاتب يريد أن يصفى على الحكم الإسلامي صفة الحكم العسكري .]

وكان محمد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمعاذ . فأشعره بصدق حبه عند وداعه ، إذ طوق رأسه بعمامة وساعده على ركوب بغلته وقادها لمعاذ بينما هو يسير على أقدامه مسافة طويلة (٣) . فخرج معاذ . وأراد أن ينزل فقبال له النبي : « يا معاذ أمكث ! لا تعتقد أنني أقصر في حق كرامتي ، وإنما أنفذ أمر السماء وأرضى نفسي . ينبغي أن ينال كل من يتولى القيادة [١٩] حقه من التكريم » . ثم تنهد النبي في أسى وهو يقول : « لو أنني آمل أن أراك مرة أخرى لأوجزت التعليمات التي أصدرها إليك ولكنها آخر مرة أتحدث فيها إليك فإننا سوف لا نلتقي إلا يوم القيامة » . وتفرق الصديقان والدموع تترقق في أعينهما ولم يلتقيا بعد ذلك .

(١) [كان هذا في رمضان سنة ٩ هـ (البخاري ٥ / ٢١٢) والطبري ٣ / ١٢٠] وكان عدد هؤلاء الأمراء خمسة وكانوا يحكمون أقاليم اليمن المختلفة . وكانوا من سلالة حمير بن سبأ الذي طرد ثمود من اليمن إلى الحجاز . وأول من وضع تاجاً علي رأسه (جناب وأحمد بن يوسف) ويعتقد كثير من الكتاب أن سلالة حمير من سلالة حمير التي تحدث عنها "Ptolomee Ludolpbo" في تعليق على تاريخ الجيزة بالفرنسية .
(٢) ابن اسحق [والأنوار المحمدية ص ١٣٢] .
(٣) جناب ص ٢٧٣

١ موت إبراهيم

ولكن الأخبار السارة التي كان محمد قد تلقاها ، قد عكر صفوها حادث أليم (١) . فلم يكن لمحمد سوى ابن واحد عمره سبعة عشر شهرا . وهو الوليد الوحيد الذي كان يمكن أن يحمل اسمه من بعده . لقد خطف الموت منه هذا الأمل الجميل . فمات إبراهيم وكان ذلك اليوم يوم حداد للمدينة بأسرها . وبدت الطبيعة وكأنها تشارك الشعب في حزنه على خسارته . إذ حدث كسوف للشمس أظلم من جرائه وجه السماء ، ونسبه الناس إلى موت إبراهيم . ولكن محمداً برغم أن الحزن كان يملأ قلبه ، أراد أن يصحح هذا الخطأ . فقال : « أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تحسفان لموت أحد ولا لحياته ».

[تولى على قضاء اليمن]

ولم يكفه أنه عين قائدين على اليمن فأرسل علياً يعظ هذا الإقليم الغني ، وأوصاه بالعدل والاعتدال (٢) . فقال علي [يا رسول الله إنك تبعثني إلى قوم شيوخ ذوى أسنان ، وإنني أخاف أن لا أصيب] فوضع محمد يده على فمه (٣) وعلى صدره ، ودعا له هذا الدعاء [واللهم اهد قلبه وثبت لسانه] ، ثم أضاف هذه الكلمات الخالدة : إذا قعد الخصمان بين يديك فلا تقض حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول . فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء (٤) [ورحل علي بعد أن تزود بهذه الكلمات . ولما وصل إلى اليمن تلى على الشعب رسائل النبي ، ودعاهم إلى اعتناق الإسلام . وكان يعظهم هو على رأس جيش ويحارب الذين لم يستطيع إقناعهم] . [!!!] .

ولقد أفلحت معه هذه الطريقة في الإقناع . فأسلمت قبيلة همذان كلها في يوم واحد . فأرسل رسولا سريعا إلى النبي يشره في المدينة بالخبر . وكان المجد الذي يتوج رأسه قد جعله يتقدم الصفوف بعد البطولات العسكرية العظيمة التي حققت له الشهرة . فكان كل بلد يمر به

(١) البخاري [٤٢/٢ : ٤٣] .

(٢) أبو الفدا ص ١٢٩ و ١٥٨ البخاري ٥ // ٢٠٦ - ٢٠٨ [جناب .

(٣) [وقوله «وضع يده على فمه» زيادة غير معروفة . فالحديث روى عن علي أبي البخترة وحش بن المعتمر وحارثة وكلهم يذكر وضع اليد على الصدر دون الفم . القسم الأول الطبقات (٢/ ١٠٠ : ١٠١) .

(٤) [الطبقات ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١] .

يدخل أهله الإسلام ، أما خوفاً من بأسه، وإما إعجاباً ببلاغته . وانتشر الطوفان في كل جهة وكان السيف يزيل أى معوق يقابله [١١٩] ولم تبق سوى نجران التي احتفظت بدينها، وتمسكت بالإنجيل وفضلت أن تدفع الجزية على أن تترك دينها .

[تعقيب]

[الكاتب مصر على التضييل . وقد عرفنا أن الإسلام لا يقبل إيمان المكره . ومن غباء الكاتب أنه نسي أنه قال منذ قليل : إن اليمن جاءت زعامتها تعلن إسلامها . وكل من كان مع على من القوى العسكرية ثلاثمائة بالرغم من بعد الشقة، وحركة الغليان والاضطراب المذهبي الذي يشبه المخاض الاجتماعي في الجزيرة لمولد الاسلام العظيم وثلاثمائة لا يمثلون قوة غزو ، وإنما قوة أمن للدعوة ورجالها هناك . فاشتباكها مع مذبح الذين رموا دعاة الحق المسالمين بالذبال وانتصارها عليهم لا يسمى استكراها على الدين . على أن هذا البعث مع السلاح كان في رمضان سنة ١٠ هـ . أما مرة البعث للقضاء والدعوة فلم يكن معه أية قوى لأنها بعد استقرار الأمر] (١) .

[زحمة واجبات النبی]

وبينما كان عليّ يؤدي مهامه العسكرية [١٢] على خير وجه، لم يكن محمد دون مشاغل بالمدينة. فقد شغل باستقبال الوفود ذوى الرؤوس المتوجة. وفي إرسال قواده إلى المناطق التي استولى عليها ، وبعث آخرين على رأس الحملات العسكرية التي يقتضيها سلطانه. واهتم بتوجيه السلطة والنظام والترابط بين أجزاء هذه المملكة الشاسعة التي سوف تبسط نفوذها على جزء كبير من العالم . لقد كان عظيماً في إدارة الشؤون السياسية الهادئة، كما كان عظيماً وهو على رأس الجيش . ولما رأى قوته قد رست على قواعد متينة ، قرر أن يقوم بالحج إلى البيت الحرام بمكة بصورة مستعجلة . وترجع هذه المناسك الى عهد اسماعيل في العصور القديمة [بل عهد إبراهيم] . ودأب العرب على ممارستها منذ ذلك الوقت. ولكن الوثنية كانت قد حولتها الى طقوس خرافية فجاء محمد - وهو الحريص عليها - فتقاها من الانحرافات ، وجعل

(١) [الطبقات الكبرى ٢/ ١٢٢] .

منها الدعامة الخامسة من دعامات الدين . ويقرر القرآن هذه الفريضة فى كلمات ﴿ وأتمو الحج والعمرة لله ﴾ (١).

[حجة الوداع : حجة الإسلام سنة ١٠ هـ]

انتشر نبأ خروج النبى حاجا فى ذلك العام . فتحركت جموع هائلة إلى المدينة للمشاركة فى الحج . وخرج منها فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ومعه تسعون ألف حاج يتبعهم عدد كبير من الهدى مزينة بالزهور والرايات (٢) وعسكروا بذى الحليفة التى سبق أن تحدثنا عنها والتى توجد بها دار لضيافة المسافرين .

[تعقيب]

[هذا فهم خاطئ فى اللغة . وأصل العبارة (وذو الحليفة منزل للمسافرين ، أو كان لعلى منزل بجوار البئر) والمراد بذلك عند العرب أنها مكان به ماء ينزل به المسافرون ليتزودوا بالماء . وليس منزلا بمعنى فندق أو مسكن ، وإنما هو مجرد مكان للنزول به بعض الوقت .]

وكان على يملك هناك بئراً معروفة بعذوبة مائها ، وكانت له دار إلى جوار البئر [١٩] فأمضى النبى الليل فيها وعند بزوغ فجر اليوم التالى دخل المسجد وصلى .

[كيف حجَّ النبى صلى الله عليه وسلم]

وبعد أداء هذا الواجب الدينى ركب محمد ناقته القصواء . [فلما استوى بالبيداء أهل بالتوحيد] وقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك (٣) . وبلغ مكة فى اليوم الرابع . وكان أول عمل له هو أن توجه إلى البيت الحرام وقبّل فى

(١) سورة البقرة

(٢) هكذا وصفها جابر بن عبد الله الذى اشترك فى الحج [أخطأ الكاتب فى فهم النص العربى، ولفظه (وأشعر هديه وقلده) ففهم من التقليد لبس قلاند الحلى . ولكن المراد بالأشعار أحداث جرح فى سنام الحمل أو جانبه ليسيل دم يعلم منه أنه هدى للكعبة ، وبالتقليد وضع قلادة من الأغصان والصوف أو الجلد تدل على أنه هدى للكعبة] .

(٣) [الإهلال : رفع الصوت بالتلبية . وفهم سفارى خطأ أن لفظ أهل معناه نطق الشهادتين . والذى يعنى نطق الشهادتين هو لفظ (هلل)هـ] .

خشوع زاوية الحجر الاسود .

[تعقيب]

[فهم المستشرقون من العبارة العربية (استلم الركن) أن النبي كان يعمد إلى ركن من أركان الحجر وهو خطأ . فالركن الذي به الحجر الأسود هو الجنوبي الشرقي ، ويسمى الركن الأسود . وحين يقال استلم الطائفون الركن الاسود يعنون الحجر الأسود ويسمى هذا الأسلوب في اللغة مجازاً .]

وطاف سبع مرات حول الكعبة (١) فرمل في الأشواط الثلاثة الأولى ثم مشى بقية الأشواط [الرمل : هو الهرولة . وتكون هي والمشي المعتاد من الحجر الأسود إلى الحجر أو الركن اليماني] ثم اقترب من موطن إبراهيم [يعنى مقام إبراهيم] ثم عاد إلى زاوية الحجر الأسود وقبلها للمرة الثانية . وخرج من المدينة من باب بنى مهديون [ويسمى باب الصفا] وصعد تل الصفا . فلما بلغ القمة استدار نحو الكعبة ، وأخذ يقول (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - نصر عبده وهزم الأحزاب وحده) . وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، نزل وسار إلى المروة فرمل [أسرع خطاه] في بطن الوادي ثم صعد بهدوء . ولما وصل إلى قمة الجبل استدار نحو جبل عرفات (٢) وكان قد بلغه قبل غروب الشمس بقليل .

[تعقيب]

[الذى فى كتب السيرة أن النبي ﷺ اتجه نحو البيت الحرام فوق الصفا والمروة . فلما كان يوم الثروية (٨ من ذى الحجة) توجه إلى منى . فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس يوم (٩ ذى الحجة) فأتجه الى عرفة ماراً بالمزدلفة دون توقف بها . فلما وصل إلى عرفة وجد أصحابه

(١) [ليك محمد كامل حجة ص ٢١ ج ٣] .

(٢) عرفات معناها المعرفة . ولقد سمي هكذا لأن جبريل علم عليه إبراهيم مناسك الحج (الحسن) . ويذكر كتاب آخرون أن آدم وحواء بعد أن طردا من الجنة وتفرقا وتاهوا في الأرض مائة وعشرين عاما خلالها كان كل منهما يبحث عن الآخر بلا جدوى . وأخيراً اتقيا بلأ وتعارفا على جبل عرفات حيث احتفلا بهذا اليوم السعيد . ومن هذا اشتق الجبل اسمه (جناب) .

ضربوا له قبة بمكان مجاور لعرفة يسمى نمرة . فنزل بها قليلاً حتى زالت الشمس عن وسط السماء ، فأمر بالقصواء (ناقتة) فرحلت له فركبها وأتى بطن الوادي [.

فخطب في الناس وعلمهم كل هذه المناسك ثم أستأنف طريقه [إلى الموقف في أسفل جبل الرحمة بعرفات فوقف] حتى غربت الشمس واختفى قرصها . ثم قصد المزدلفة التي تقع بين جبل عرفات ووادي منى وصلى المغرب والعشاء . ثم بات يفترش الأرض . فلما أسفر النهار صلى الفجر ، وذهب إلى المشعر الحرام حيث ظل واقفاً حتى قبيل شروق الشمس . ثم أسرع خطاه ونزل وادي محسر [وهو واد قريب من المزدلفة في الطريق إلى منى] وفي منى أخذ سبع جمرات ورجم بها الشيطان [أي جمرة العقبة وتسمى الجمرة الكبرى - سماها الكاتب بلغة العامة جمرة الشيطان] وهو يقول : الله أكبر .. ألخ وبعد أن أتم هذه المناسك ذهب إلى المنحر حيث وعظ الناس ثم ذبح ثلاثاً وستين ذبيحة بيده شكراً لله على سني عمره [١٩] وكلف علياً الذي وصل مؤخراً من اليمن - بأن يتولى ذبح باقي الهدى الذي بلغ المائة . ثم اعتق ثلاثاً وستين رقبة . [١٩] .

[تعقيب]

[لم يرد ذكر العتقاء في الطبقات أو الأنوار ولا سيرة ابن هشام ... وربما أراد الكاتب أن يحبك خياله الذي جعله يتصور ذبح ٦٣ من الهدى مقابل ٦٣ سنة من عمره .

ثم حلق رأسه وألقى بشعره . (١) فأخذته الناس بحرص وعناية . عندئذ نزلت هذه الكلمات الخالدة من السماء (٢) ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (٣) وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً (٤) ﴿ ولما ذبح الهدى كله أكل المسلمون من لحمه وضرب لهم النبي ، المثل وتناول وجبته أمام الناس ولم يقبل سوى عليّ على مائدته [١٩]

(١) أسرع خالد وأخذته وربطه في عمامته ونسب إليه فضل كل الانتصارات التي حققها فيما بعد . [وهذه خرافة لم تذكر في كتاب له قيمة علمية عند المسلمين . وذكرها الكاتب ليعطي للنصارى صورة خاطئة عن الفكر الإسلامي . وقد نقلها عنه العقاد في أسطورة ذكرها في عبقرية خالد ص ٢٤٤ ط سنة ١٩٧٠]

(٢) لما نزلت هذه الكلمات من السماء خارت قوى ناقة محمد من ثقل الوحي وجئت على ركبتيها (جناب)

(٣) أبو الفدا ص ١٣١ [١٥٨] و جناب ٢٨١ (٤) القرآن سورة المائدة [الآية ٣]

[تعقيب]

[هذا التعبير (لم يقبل سوى على) فهم خاطئ من الكاتب . فالحديث رواه ابن سعد بسنده ، وفي الطبقات ٢ / ١٢٧ . ومع هذا فهو لا يفيد إلا مجرد أن علياً أكل مع النبي . أما عدم السماح لآخرين بالأكل معهما فلا .. بل إن مائة ذبيحة قدمها النبي للحجاج بسخاء نفس وذبحها لهم بيده الشريفة وعاوناه صهره على في هذا .. وما هذا إلا غاية المثل في التواضع للرعية . ونص الحديث باسناده (أخبرنا محمد بن بكير البرساني ، أخبرني ابن جريح أخبرني جعفر بن محمد أنه سمع أباه محمد بن علي يحدث أنه سمع جابر بن عبد الله يحدث أن النبي ﷺ أهدى في حجته مائة بدنه . وأمر من كل بدنة بمضغة فجعلت في قدرة فأكلها من لحمها وشربا من المرق . قلت من الذي أكل مع النبي ﷺ وشرب المرق ؟ قال جعفر: علي ، [.

فلما فرغ من طعامه ذهب إلى الكعبة حيث صلى الظهر . ثم اتجه إلى بئر زمزم وشرب جرعات كثيرة من هذا الماء المعجز وطاف سبع مرات بالبيت الحرام وأتم الحج بالسعي بين الصفا والمروة .

[تصحيح التقويم]

وفي اليوم التاسع صلى على جبل عرفات (١) وهو المكان المخصص للتوبة والندم ، لإحياء لذكرى آدم وحواء اللذين التقيا فيه بعد فراق دام مائة وعشرين عاما . [٢] .

[تعقيب]

[هذا فهم خاطئ يجرى عليه أهل ملة الكاتب من تخصيص أماكن للتوبة ككرسي الاعتراف . والإسلام لا يربط التوبة بمكان معين . أينما تكونوا فثم وجه الله ، وإن كان لكل مكان وزمان وظاهرة كونية أو اجتماعية دعاء مأثور .]

وفي آخر خطبة ألقاها في الناس صحح التقويم العربي وأعادته إلى هيئته الأولى . وهو التقويم القمري . وأضاف ﷺ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق

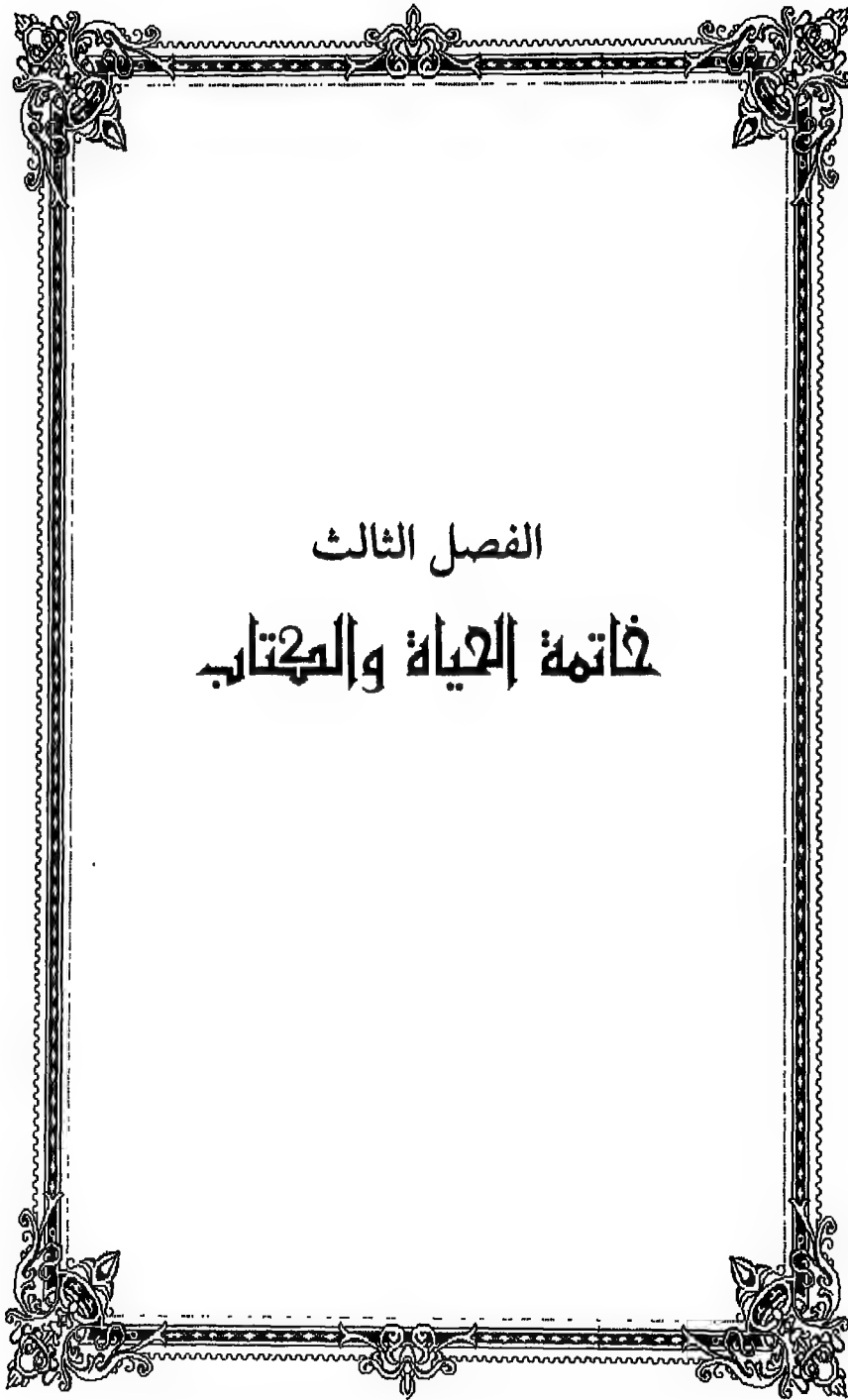
(١) جناب ص ٢٨٢ .

السموات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا
المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . واعلموا أن الله مع المتقين (١) ﴿ وفي ختام هذه
الموعظة ودع الشعب . وسميت هذه الحجة بحجة الوداع (٢)

* * *

(١) القرآن : سورة التوبة .

(٢) الجوزى فى كتاب مناسك الحج [وأبو الفدا ١ / ١٥٨] .



[الفصل الثالث]

[خاتمة الحياة والكتاب]

[فى مرض الموت]

[بعث أسامة إلى فلسطين : الإثنين ٢٦ صفر سنة ١١ هـ .]

عام ٦٢٢٦ من هبوط آدم حسب تقدير أبى الفدا - عام ٦٤١ من ميلاد عيسى عام ١١ من الهجرة - عام ٦٣ من حياة محمد

كان محمد يعرف أهمية الشعائر الدينية وتأثيرها على الناس . ولهذا فقد أتم أداء فرائضها فى تقوى وخشوع وبساطة . لأنها تغرس فى أذهان الناس فكرة الربانية السامية . وكان المثل قد صاحب المبدأ فى كل مكان . وكان الخشوع الذى صاحب أدائه لكل الناس قد علم الشعب تقديس الشعائر الدينية . ولما عاد إلى المدينة كان يفخر بأنه قدم للناس ديناً عظيماً . لقد رأى العرب وقد انضموا تحت قيادة رئيس واحد وقانون واحد وهم الذين قاوموا قوة المصريين وزهو الفرس وكبرياء الروم وهم فى حماية الصحراء القاحلة . وجد نفسه على رأس شعب جديد ألهمته الحماسة وأسكرته الانتصارات . فأخذ يتجهز لمحاربة جبن الروم ورخاوتهم . وكان يمتنى نفسه بأن يحول أمبراطوريتهم إلى الإسلام أو أن تدفع له الجزية . ولكن الموت جاء يهدم هذه الأماني الجميلة . فانتابه المرض فى شهر صفر ، وفاجأته الحمى وهو عند إحدى زوجاته التى تدعى زينب (١) . وكان لكل زوجة منهن دارها الخاصة التى كان يزورها فيها دورياً . وكان فى اليوم التالى فى دار ميمونة . فاشتد عليه المرض فجمع زوجاته واستأذنهن فى أن يمضى فترة المرض ، فى دار زوجة منهن . فحققن له رغبته طواعية . وجهزن له دار عائشة الودود . وحُمل إلى هناك فى الحال . وقال يا عائشة : [ما زلت أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر . ما زالت الأكلة تعاودنى . فهذا أوان قطعت أبهرى (٢)] .

وكان وهو فى أشد حالات التعب يفكر فى حملة عسكرية . كان شغوفاً أن يحقق بها

(١) أبو الفدا ص ١٣٣ - [١٥٩ / ١] جناب ص ٢٨٤ .

(٢) [الأبهى عرق مستيقظ يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه . ولهذا عد النبي شهيداً وفى البخارى مثل هذا الحديث ١١ / ٦] .

النصر ، إذ لم يكن قد انتقم لزيد بعد . وكان يحتاج إلى أنهار من الدماء [١٩] حتى تهدأ روح الصديق . فطلب ابنه أسامة وأمره بغزو فلسطين على رأس قوة من الفرسان . وأن يخرب كل البلاد [٢٠] ابتداء من البلقاء والداروم (١) إلى أبني (٢) - حيث سقط زيد (٣) - ولم يكن هذا القائد يتجاوز العشرين من عمره . ولكنه كان عليه أن ينتقم لأبيه . ولم يتردد محمد في أن يسلمه قيادة الجيش . ورغم اشتداد نوبات الحمى عليه ، فقد كان يتابع تجهيزات الحملة .

وفي اليوم التالي أمر باحضار الراية إليه فسلمها إلى القائد الشاب . وقال له « احمل السلاح وقاتل في سبيل الله وأعلنها حرباً مقدسة واضرب أعناق المشركين » [الذي جاء في الطبقات ١٢٦/٢ سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل . قد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبني وحرّق عليهم ، وأسرع السير تسبق الأخبار . فإن ظفرك الله ، فاقتل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء . وقدم العيون والطلائع أمامك] .

[فالأمر إذن حملة للتأديب وليست للاستعمار والاستغلال بدليل قوله : « فإن ظفرك الله فاقتل اللبث فيهم » ، والنص الذي تعتمد الكاتبة إعمال ذكره بتمامه ، صفحة مشرقة في البرهان على المستوى الرفيع للثقافة الإسلامية والعسكرية التي تصدر عن أمي علمه الله فوق ما تتعلمه المستويات الأكاديمية] .

وتحرك أسامة وعسكر بالجرف (٤) على مسافة من المدينة . ولما علم باشتداد وطأة المرض على النبي توقف هناك . ولقد أدت وفاة النبي إلى تأجيل هذه الحملة إلى شهر ربيع ، وعندئذ حمل أسامة الحديد والنار إلى الشام بأمر من أبي بكر وقتل بيده قاتل أبيه .

[ثورة الأسود العنسي : صفر سنة ١١ هـ]

[هو عيهلة بن كعب العنسي من قبيلة عنسي بصنعاء ويقال له ذو الخمار] وبينما كان محمد يتلوى من شدة الألم حمل إليه خبر ثورة الأسود ، ويدعى عيهلة (المتقلب). (٥) كان نسبه وعقله قد أكسباه منزلة كبيرة بين عرب اليمن.. وبعد أن مات بدهان عامل محمد ،

(١) قلعة بفلسطين بعد غزاة للقاء إلى مصر [(٢) أبني: هي أرض السراة ناحية البلقاء الغربية من دمشق]. (٣) موسى بن عقبة .

(٤) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام كانت به أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة].

(٥) جناب [وسمي الاسود لأنه كالثعبان في قلبه ، فالأسود يطلق في اللغة على الثعبان حقيقة وعلى الماكر والخبيث مجازاً].

حمل الأسود لواء الثورة وقتل ابن بدهان واستولى على مقاليد الحكم (١) ولقد كان عرافاً ماهراً وساحراً مدرباً فادعى أنه نبي يحمل إليه (٢) ملكان الوحي الإلهي. وبينما كان يفرض سلطانه على نفوس الناس بمظاهر فظة، كان يخضع القبائل المختلفة بقوة السلاح. وكانت انتصاراته الأولى متألقة ولكن نبي المؤمنين اتخذ تدابير حكيمة لوقف حركته فكتب إلى أنصاره [من بنى تميم وقيس] وإلى فيروز الذي كان الأسود قد قتل عمه [أن ينهضوا لقتال الأسود فنهض] فيروز فقتله وعاد حكم اليمن إلى سلطان محمد (٣).

كان المرض يزداد خطراً يوماً بعد يوم والمسلمون يرتعدون خوفاً على حياة نبيهم. وجاءت فاطمة تَعُودُهُ وتقدمت فاخرقت إليه وسط الحجرة في وقار يليق بينت النبي. ولما رآها محمد تقترب من فراشه مال إليها وقال لها: «مرحبا يا ابنتي» وأجلسها إلى جواره وهمس في أذنها (٤) [إن جبريل كان يعرض على القرآن كل عام مرة وأنه عرضة على العام مرتين وما أظن إلا أنني ميت من مرضي هذا]. فانفجرت فاطمة في البكاء. ولما لاحظ محمد التأثير العميق الذي أحدثه في قلبها حاول مواساتها فأضاف [ما يسرك أنك سيده نساء أهل الجنة، ما عدا مريم بنت عمران]. ولفظ البخاري عن فاطمة: فاخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت فابتسمت فاطمة ولكن ألمها كان لا يزال عظيماً. ولقد لحقت بأبيها بعد فترة وجيزة (٥)

[الاستبراء من حقوق الآخرين]

ونهض محمد في ذلك اليوم مستنداً على ذراع الفضل وعلى وذهب إلى المسجد وصعد المنبر. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (٦) [إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم - أي

(١) [في الطبري أن جيش الأسود أخرج عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص وولب قيس بن يفوث على (فروة بن مسيك) وكان والياً على (مراد) فأجلوه ونزل منزله].

(٢) اسم هذين الملكين سهيق وفريق. وكان الأول قد باع إليه حماراً مدرباً على آلاف من حركات المرونة الجسدية. وأما الثاني فكان يخرج له أشباحاً عجيبة وأطياناً تذهل الناس. وهكذا كان الكاهن الأسود يؤثر على العقول الساذجة [انظر الطبري ٣ / ١٨٦، ١٨٧ وفيه أن طليحة بن خويلد الأسدي بعث حبال ابن أخيه إلى النبي يطلب الموادة وزعم أنه يأتيه ملك اسمه ذو النون].

(٣) [البخاري ج ٥ ص ٢١٧ والطبري ٣ / ١٨٥ وأبو الفدا ص ١٦٣، ١٦٤].

(٤) [البخاري ج ٢ باب مرض النبي، وإرشاد الساري ج ٦ ص ٤٦٣ - ٤٦٤].

(٥) [الطبقات ٢ / ٤٠ الدرر ٢٨٦ والبخاري باب علامات النبوة وإرشاد الساري ٦ / ٤٦٤].

(٦) [أبو الفدا ص ١٣٤ و١٥٩ والطبقات ٢ / ٤٥].

اقترب أداء حقوق على لأفراد يجب أن أودبها وأنا حى - وإنما أنا بشر. فأيا رجل كنت أصبت من عرضة شيئاً فهذا عرضى فليقتص ، وأيا رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشرى فليقتص ، وأيا رجل كنت أصبت من ماله شيئاً فهذا مالى فليأخذ. واعلموا أن أولاكم بى رجل كان له من ذلك شئ فأخذه أو حللى . فلقيت ربي وأنا محال لى . ولا يقولن رجل أنى أخاف العداوة والشحناء من رسول الله . فإنهما ليستا من طبيعتى ولا من خلقى . ومن غلبته نفسه على شئ فليستن بى حتى أدعوه (١)] ثم نزل عن المنبر وصلى الظهر . فلما فرغ من الصلاة جاءه رجل يطالبه بثلاثة دراهم كانت تستحق له . فأعطاهما إياه مضافاً إليها الفائدة [١٤] [الحديث فى الطبقات . ولم يذكر الفائدة التى حرمها الله ورسوله . ولم يذكرها المستشرق كازيميرسكى فى المقدمة التاريخية التى يكتبها بين يدى ترجمته معانى القرآن الكريم (٢)]

ثم قال « إن عار هذه الدنيا أكثر احتمالاً من عار الآخرة . وإن عبداً من عباد الله خيره الله بين هذه الحياة وبين الحياة الخالدة ، فاختار الحياة الخالدة » . ثم قرب إليه الأنصار - هؤلاء الأصحاب الشجعان والحراس المخلصين الذين آووه بكرم ، ونصروه ببطولة - وأفضى إليهم برغباته الأخيرة قائلاً : « اطرّدوا جميع المشركين من الجزيرة العربية . وامنحوا المسلمين الجدد كل الحقوق التى يتمتع بها المسلمون وحافظوا على الصلاة (٣) » وروعت هذه الأوامر بكل دقة باعتبارها المواد الجوهرية لوصية النبى . ولا يسمح بأى دين آخر داخل الجزيرة العربية غير الاسلام . ويتمتع الأتباع الجدد بنفس امتيازات الأتراك [يعنى المسلمين] ويصلون فى الباب العثمانى إلى المناصب الأولى فى الدولة [التعبير بالمسلمين الجدد تحريف خاطئ للنص العربى (وما ملكت أيمانكم ، فأحسنوا إليهم) ونص البخارى فيما يرويه سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وقال ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبى تنازع . فقالوا : ما شأنه ؟ أهجز ؟ استفهموه . فذهبوا يردون عليه . فقال : «دعوني .. فالذى أنا فيه خير مما تدعوني إليه » ، وأوصاهم بثلاث قال : « أخرجوا

(١) [وقد زاد الطبرى (وقد أرى أن هذا غير مغل عنى حتى أقوم فيكم مراراً) والنظر الطبقات ج ٢ ص ٤٥ والطبرى ج ٣ ص ١٨٩ : ١٩٠ وقريب من هذا رواه أبو القدا ج ١ ص ١٥٩] .

(٢) [خاتم النبیین فی نظر المستشرقین ص : ٨٢] البخارى [ج ٦ باب مرض النبى ﷺ وإرشاد السارى ٤٧٣/٦]

(٣) [البخارى ج ٦/١٣ باب مرض النبى وإرشاد السارى ج ٦ ص ٤٤٦] .

المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم (أكافئهم) ، وسكت ابن عباس عن الثالثة أو قال (فنسيتها) البخارى ٦ / ١ .

أما الصلاة ، فإن تقوى المسلمين والخشوع العميق الذى يدونه فى معابدهم ، توضح أنهم مؤمنون بكائن أعظم . واختتم محمد خطابه بأن لعن اليهود الذين يرجع إلى غدرهم الموت الذى يحمله بين ضلوعه ، وصاح قائلاً « لعن الله اليهود [والنصارى] اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (١) .

[استخلاف أبى بكر فى الصلاة]

وكان من الأعمال التى اختتم بها حياته أن أعتق كل عبده (٢) وكان كلما شعر أن به من القوة ما يعينه على الذهاب إلى المسجد شهد صلاة الجماعة . ولما أقعده المرض ، كلف أباً بكر أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه .

[شعائر الجنازة]

وكان ينظر إلى الموت يدنو منه وهو غير هيب . فيتحدث مع ذويه فى هدوء وسكينة عن ترتيبات الجنازة . وذات يوم وأهله يحيطون بفراشه يكون ، سأله أحدهم : يا رسول الله إذا ألمّ بنا الخطب وفقدناك فمن سيصلى عليك ؟ فرد عليه وقال : سأقول لكم وعندئذ انتهزت الدموع من كل العيون . وبالرغم منه تساقطت دموعه فمسحها ثم استرسل قائلاً (٣) [مهلاً رحمكم الله ! وجزاكم عن نبيكم خيراً ! إذا أنتم غسلتمنى وكفنتمنى ، فضعنوى على سريرى هذا ، على شفة قبرى فى بيتى هذا ، ثم اخرجوا عنى ساعة . فإن أول من يصلى على حبيبى وخليلى جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت ومعه جنوده من الملائكة بأجمعهم . ثم ادخلوا فوجاً فوجاً فصلوا على وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونى بتزكية ولا برنة (عويل) . وليبتدئ بالصلاة على رجال أهلى ثم نساؤهم ثم أنتم بعد

(١) [حذف الكاتب لفظ (والنصارى) جرياً على رواية ابن عبد البر ص ٢٨٦ والبخارى ٦ / ١٣ والزيادة فى الطبقات ٤٧ / ٢ القسم الثانى وفى البخارى ٦ / ١٤ وزيادة الثقة وكذا فى إرشاد السارى ٦ / ٤٦٧ .

(٢) البخارى باب مرض النبى - وإرشاد السارى ج ٦ / ٤٧٣

(٣) جناب الطبرى (ج ٣ : ١٩١ - ١٩٢ والطبقات ٢ / ٤٦ - ٤٧ القسم الثانى وابو الفدا : ١٥٩ والبخارى وإرشاد السارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٤٦٣] .

واقراءوا السلام على من غاب من أصحابي . واقراءوا السلام على من تبغنى على ديني من قومي . هذا إلى يوم القيامة (بلفظ الطبقات) [وسوف يلبس أهلى الحداد ويتبعهم المسلمون [١٩]. أما أنتم يا من تحيطون بفراشى فإنى أقرئكم السلام . قالوا [ومن يدخلك قبرك؟] قال : [أهلى مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم] [ينسج سفارى من خياله زيادة على ما روته كتب السيرة . وهى زيادة منكرا أشد النكران فيقول : «سوف يلبس أهلى الحداد ويتبعهم المسلمون» وهذا أمر منهى عنه فى الشريعة ثم أضاف كذلك « أما أنتم يا من تحيطون بفراشى فإنى أقرئكم السلام ، وفيه ذكر مزية لهم ينفىها روح التعميم فى قوله « واقراءوا السلام على من غاب من أصحابي : واقراءوا السلام على من تبغنى على ديني من قومي . هذا إلى يوم القيامة ،

[الكتاب الذى أراد النبى أن يكتبه لأمه]

وهكذا كان محمد وهو يصارع سكرات الموت يتمسك حتى آخر لحظة بأداء دور [١٩] النبى الذى بدأه وهو فى الأربعين من عمره [هكذا يكفر سفارى بالنبوة] وهكذا كان محمد مسيطراً على نفسه وهو فى أقسى حالات الألم – كما كان كذلك وسط المعمة ولقد أدى آخر مشهد الحياة الانسانية وهو فى حضور ذهنى مثير للدهشة . وكانت كل كلمة من كلماته مفصلة بقدر الفكرة التى كان يريد أن يضعها فى ذهن الناس عنه [٢٠] . وفى هذه اللحظات - حيث يتزايد الضعف الانسانى للمرء وهو فى يد الموت الرهيب - كان محمد يستجمع قواه الذهنية لكى لا ينطق بأى شئ لا يليق بالمظهر الوقور الذى طبعه فى الأذهان [٢١] ولم يغب ذهنه فى الخيال إلا لحظة وحيدة تحت تأثير الآلام المروعة إذ قال : « ايتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » (١) فقال حكماء الحاضرين : ان رسول الله يهجز . ألسنا معنا كتاب الله ؟ وهو حسبنا . بينما أراد آخرون أن يحققوا له رغبته . واختلف الفريقان بشدة حتى أفاق من الجلبة فقال للحاضرين : « قوموا ما ينبغي أن يكون بين يدى النبى تنازع ».

(١) أبو الفدا ص ١٠٢ و ١٣٦ [١٥٩-١٦٠ والبغارى ١١/ ٦ : ١٢] .

[دخول ملك الموت]

وكان المريض . يستقبل زواراً عديدين . قال بيته وأشراف المدينة كانوا يتوافدون على داره . ولقد ضايقه [!؟] هذا التزامم ولما شعر أن رأسه قد استولى عليها الضعف ، تصنع [!؟] أنه منهك في أفكار الخلود ومنع دخول أحد عليه . ولما كان واثقا من شعور عائشة ، فقد كان خوفه من ظهور أى ضعف أمامها أقل . ولهذا فإننا لم نتعرف على وصف آخر ملاسبات حياته إلا عن طريق هذه الزوجة الوفية . وفيما يلى أهم الروايات : « فى الأيام الثلاثة الأخيرة من مرضه . كان جبريل يعود مراراً عديدة (١) . وكان يسأل ودياً عن أنباء صحته . وفى يوم الإثنين الذى اختتم فيه رسالته - حضر ملك الموت الى الباب فلاحظه جبريل ، وقال لصاحبه : « ها هو ذا ملك الموت (٢) يستأذن عليك [ولم يستأذن على آدمى كان قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك] إنك أول من أقيم له هذا الاعتبار ، وسوف لا يقام لأحد بعدك . قال محمد : « دعه يدخل » . فدخل الرسول الريب ، ولكنه تخلى عن مظهره الخيف . وقال له : « يا رسول الله ! يا أحمد ! لقد أرسلنى الله إليك ! وأمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى . وسواء أمرتنى بأن أقبض روحك أو أمرتنى بأن أتركها فسأطيعك . فقال محمد : « خذها » فقال جبريل : « طالما أنها رغبتك فإن الله يطلبك إلى جواره بشغف . أما ما يختص بشأنى أنا فها هى ذى آخر مرة أضع فيها أقدامى على الأرض .. اننى أطير إلى الأبد عن هذا العالم » . وفى لحظة أتم ملك الموت (٣) مهمته الربية .

[هذا الذى ذكره رواه ابن سعد فى الطبقات عن أنس بن عياض أبى ضمرة اللبثى . قال حدثونا عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : (الحديث) . فهو بهذا حديث منكر ومنقطع . وقول أبى ضمرة (حدثونا) دون أن يبين من هم الذين حدثوه أموثوق بهم أم وضاعون ؟ مظهر لانقطاع الحديث وعدم صلاحيته للاحتجاج به . كما قال رجال الحديث . وقول « سفارى » عن الرسول (ضايقه هذا التزامم وتصنع أنه ينهك

(١) السهيلي (والطبقات ٢ / ٤ القسم الثانى ، وقد توفى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ ٨ يونيو سنة ٦٣٢م)

(٢) نفس المرجع

(٣) ورد فى القرآن ذكر هذا الملك ذى الوجه المربع : ﴿ يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ سورة السجدة الآية ١١ .

فى افكار الخلود) تصوير لحال سفارى وأمثاله . أما أصحاب المثل العليا والاجتماعيون الذين يكرهون الإنطواء فيكون هذا التزامح سببا من أسباب الترويج عن نفوسهم . وحجب الزوار عنهم هو سبب الضيق . أشعر أنا بهذا وأعرفه عن أمثالى من المشتغلين بالمجتمع ..]

لم يكن كل هذا الحديث بلا أساس . فقد كان محمد - وهو يحافظ دائماً على مظهره الوقور- يريد أن يؤكد ما سبق أن كرره . وهو أن الله قبل أن يقبض إليه نبياً من هذه الدنيا ، كان يريه المكان الذى خصصه له فى العالم الآخر . وكان يترك له الخيار بين الأمرين . وتعلمنا عائشة هذا وهى الأمينة على كلماته - وهى تقول : « لما جاءته سكرات الموت كنت جالسة بالقرب منه ، وكانت رأسه فى حجرى . فأغشى عليه . ولكنه سرعان ما أفاق . وفتح عينيه ثم شخص بصره الى سقف البيت ، وثبت جفونه لا تطرف ، ثم سمعته يقول بصوت خافت « بل الرفيق الأعلى » فأدركت أنه اختار دار الخلود - وتمزق قلبى من الألم . فأمسكت بيده وضغطت عليها وسمعتة يردد هذه الآية ﴿اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح . ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا . اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ (١) ولقد أسلم روحه وهو ينطق بهذه الكلمات . وتضيف عائشة : «عندئذ وضعت رأسه على وسادة وقمت أضرب صدرى ، ووجهى وأصرخ . وشاركتنى زوجاته الأخريات فى الحزن وملأن الجو عويلاً وشققن ملابسهن ..

[تناقض الكاتب]

[الكاتب يتناقض مع نفسه . فهو فى حديثه عن «الاستبراء من حقوق الآخرين»، ذكر أن وصاياه ﷺ روعيت بكل دقة بالأى يكون عويل آوشق للجيبوب . وإنما أراد الكاتب إبراز البيت النبوى وأمهات المؤمنين فى صورة الذين يتجرون بالأديان ، ويقولون ما لا يفعلون . فافترى ما قاله معتمداً على حديث منكر أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يحنس عن زيد بن أبى عتاب عن عروة عن عائشة (ج ٢ القسم الثانى ص ٥٠) قالت : «ثم قمت مع النساء أصيح والتدم ولم تذكر شق الملابس]

(١) القرآن - سورة مريم [الآية ٥٨ .]

[آثار نعي النبي في المسلمين]

وما أن انتشر خبر وفاته في المدينة حتى ارتفع صوت جماعي : مات النبي (١) وساد الوجوم . وذهل الناس . ورفع بعضهم أعينهم الحائرة إلى السماء . أما البعض الآخر فأخذوا يصرخون وكأنهم مصابون بتشنجات . فهؤلاء قد سيطر عليهم الصمت من شدة الحزن . وأولئك هزمهم الدوار فأخذوا يتدحرجون على الأرض [وهل هذا يمكن حدوثه ممن أصاب رأسه الدوار ؟] أما الدهماء فلم تستطع أن تتصور أنها فقدت نبيها إلى الأبد . فأسرعت أفواجا إلى باب الدار . وأما أكثر الناس تطرفا فصاحوا : « إنه لم يمت وإنما هو في غيبوبة » . واندفع عمر بحماسة وتبنى هذا الرأي فقال : « لا إنه لم يمت . وإنما ذهب للقاء ربه . كما ذهب موسى وغاب عن قومه أربعين ليلة » وهدد بقتل من يزعم أنه مات . وكان هذا القول يتفق مع اعتقاد الغالبية العظمى من الناس [أليس الأولى أن يقال : لو كان اعتقاد الغالبية هكذا لما احتاج عمر إلى نشر تهديداته ؟] [ومراجعة صحيح البخاري الذي نقل عنه سفاري لم نجد هذه الصورة الخيالية من تشنجات وغيرها . ونص الحديث عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس . فقال : « اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس . فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر . فقال أبو بكر : « أما بعد ، من كان يعبد محمداً فإن الله قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله ﴿ وما محمد إلا رسول ... إلى قوله ... الشاكرين ﴾ - (ابن هشام ٣١١/٤ ط القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م وتهذيب السيرة ص ٥٣٨ - ٥٤٠)] .

فزاد قول عمر اضطراب القوضى ، واحتاج أبو بكر إلى كل قوته وتأثيره لكي يهدئ هذه العاصفة ، فاندفع وسط جموع الناس وخطب فيهم : « أنتم يا من تطلقون الأيمان بلا تمييز ، انصتوا في هدوء . عندئذ جلس عمر . (٢) وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : « أيها المسلمون إذا كان توقيركم لمحمد قد جعلكم تظنون أنه خالد لن يموت ، فقد وقعتم في الخطأ . لقد مات محمد . والله وحده حي لا يموت . ولقد أوحى الله لنبيه هذا القانون الذي يجب أن يبدد كل شك . اذ قال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٣) وقال في آية أخرى ﴿ وما محمد إلا رسول

(٢) البخاري [١٧/٦] وإرشاد الساري ٤٧٠/٦

(١) السهيلي

(٣) القرآن سورة الزمر [الآية : ٣٠]

قد خلعت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴿١﴾ حققت هذه الكلمات المستمدة من القرآن الانقاع المطلوب ، وحل الصخب والضجيج محل الدموع والعيول . وآمن الناس جميعاً أن محمداً قد مات .

[انتخاب أبي بكر]

وبعد أن هدأ الناس اتخذت الترتيبات لانتخاب من يخلفه [صلى الله عليه وسلم] وهنا وقعت مناقشات عنيفة بين الأطراف . وكان عليّ - الذي عينه محمد بنفسه خليفة، وهو زوج ابنته وابن عمه - أحق من غيره بهذا الشرف العظيم . ولكن شبابه ودسائس عائشة [١٩] أدت إلى استبعاده ، وتغلب أبو بكر وبويع خليفة . واعترف المسلمون بخلافته وبايعوه على السمع والطاعة . وبعد أن تسلم مقاليد الحكم ، كانت أولى مهامه أن يؤدي آخر الواجبات نحو النبي . وكان قد مضى على موته ثلاثة أيام ، وبدأ التورم [١٩] يظهر عليه [لم يثبت هذا إنما دسه الكاتب للطعن في المأثور من إن أجسام الأنبياء لا تأكلها الأرض] .

وقام عمه العباس بإقامة خيمة داخل الحجرة ووضع الجسد في وسطها (٢) ثم دعا علياً وولديه الفضل وقثم [ابنى العباس] إلى داخلها، وكذلك دعا أسامة [حب رسول الله] وشقران خادمه . وأخذوا يغسلون الجسد (٣) وعليه قميص وبردة - هي التي عصروها ليجففوها - ثم عطروه بالكافور ومسحوا بالعطور الأعضاء التي تلامس الأرض عند السجود في الصلاة . ثم اختتموا هذا العمل بالوضوء المقدس - وهو غسل الوجه والذراعين واليدين - والرجلين ثم كفنوه في ثوبين أبيض وبرده مخططة . وحرقوا حوله البخور وضمخوه بالعنبر والمسك والصبر . وما أن تم وضع الجسد في الثابوت [١٩] حتى تركوه معرضاً لأنظار الناس [١٩]

[قول سفاري (تركوه معرضاً لأنظار الناس) هو من خياله . وأراد بهذا تبرير العادة التي عليها المسيحيون والوثنيون اليوم . وقد سقط د . هيكال في شرك هذا الفهم الخاطئ . فقال : « وفُتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون يلقون

(١) القرآن سورة آل عمران [ومن يقلب علي عقيب ، فلن يضرب الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين]

(٢) مؤلف كتاب El chasa [والطبرى ٢ / ٢١١] والطبقات ٢ / ٦٧ : ٦٨ القسم الثاني .

(٣) [قثم اشترك في نزول القبر وليس في الغسل . قرر ابن سعد هذا في الطبقات ج ٢ قسم ثان ص ٧٠ وص ٦١ . كما ذكر ابن سعد أن خادماً للنبي هو صالح مولى رسول الله ثم قال : ان شقران وأسامة والعباس كانوا يصبون الماء . وفي رواية زيادة «أوس بن خولى» فيمن كانوا عند الغسل وأنه دخل فجلس]

على نبينهم نظرة الوداع ، . وأما ما ذكرته كتب السيرة فهو كقول سعيد بن المسيب
«ولما توفي رسول الله ﷺ وضع على سريريه . فكان الناس يدخلون عليه زمراً زمراً
يصلون عليه ويخرجون ولم يؤمهم أحد (١) » .

[الصلاة على جثمان النبي]

وكان أول من صلى عليه هم بنو هاشم . وقد صاحبهم العباس . ثم جاء المهاجرون
والأنصار يؤدون آخر واجبه تجاهه ، وتبعهم أشرف الناس بالمدينة ، وذهب الشعب جماعات
حول تابوته [١٩] وصلوا بنظام وخشوع (٢) والدموع . تنهمر من كل العيون ولم يسمع عويل
أو أنين . كان احترامهم لرغبات النبي الأخيرة قد كبحت من حزن الجماهير [قول (الكاتب
حول تابوته) تصور مسيحي يقحمه على السيرة إقحاماً . فما دفن النبي في تابوت] .

[الدفن]

ولما حان وقت دفن التابوت [١٩] نشبت منازعات خطيرة (٣) إذ أراد المهاجرون أن ينقل
رفاته الى مكة وأن يدفن في وطنه (٤) وتمسك الأنصار بأن يبقى في المدينة ما دامت هذه
المدينة كانت مأواه من الاضطهاد . وكان رأى فريق آخر أن ينقل إلى أورشليم حيث مثوى
الأنبياء . فحسم أبو بكر هذه الخلافات عندما نقل لهم هذه الكلمات التي سمعها من فم النبي

(١) [الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الثاني : القسم الثاني ص ٦٨ : ٦٩ وحياة محمد للدكتور هيكل ص

٤٩٤ طائفة]

(٢) [الطبقات الكبرى ج ٢ القسم الثاني ص ٦٩ .]

(٣) لقد دفعت هذه المنازعات بعض الكتاب الذين لا يراعون الدقة في كتاباتهم بحثاً عن الحقيقة إلى القول بأن
محمدًا قد دفن بمكة أما الرأي المتبدل الذي يقول بأن جسده موضوع في تابوت من الحديد ومعلق في الهواء
بفضل أحجار مغنطيسية مشدودة بسقف الكعبة . فيرجع مصدره إلى بعض الجغرافيين الذين لم يسافروا ولم
يخرجوا من بيوتهم . فكلا الرأيين قد كذبه الكتاب الذين ذهبوا الى المكان (انظر جناب وأبي الفدا ص
١٦٠) وأبو الفرج ولقد أكد لي الأتراك الذين رأيتهم بمصر صدق الوصف الذي قدمته بناء على شهادة
هؤلاء الكتاب . ولما كنت أقص عليهم الأساطير التي ننسجها من خيالنا حول شخصية نبينهم ، كانوا لا
يتمالكون أنفسهم من الضحك على سذاجتنا . هذا اعتراف وإقرار من المؤلف يكشف لنا جانباً مما يروجه في
البيئة الفرنسية أمثاله من المغرضين من أباطيل وأكاذيب حول رسولنا العظيم ، تفتقر كلها إلى أي سند من
عقل أو نقل . وهي لا تروق للمؤلف لأنها تتجاوز الحدود مما يجعلها عرضة للرفض والنبت من عقلاء الناس .
ولهذا فهو يرفضها هنا ولكنه يحاول إثبات غير ها ولكن بأسلوب هادئ إلا أنه أشد خبثاً وأكثر خداعاً بقصد
أن تكون أكثر قبولا لدى أكثر الناس . وذلك إمعاناً في الإضلال والضليل والصد عن سبيل الله . المترجم]

(٤) أبو الفدا [في باب وفاة الرسول ص ٢٥٩ - ١٦٠ لم يرو أبو الفدا ما نسبته اليه سفاري] .

[ما مات نبي إلا دفن حيث يقبض] . قامت هذه الكلمات مكان القانون . وحفرت الأرض فى المكان الذى اختتم فيه رسالته النبوية . وأنزل التابوت [١٩] فى الحفرة (١) ودخل فى القبر كل من على والفضل وقثم [ابنى العباس] وسقوا رفات نبيهم بدموعهم للمرة الأخيرة . وغطى الجسم بالتراب وانسحب الناس .

[رثاء فاطمة لأبيها]

ولما انصرف الناس ، جاءت فاطمة بنت محمد المحبوبة ، وأخذت تبكى على قبره . (٢)
وتردد بنحيب « يا أبتاه ! يا رسول الله ! يا نبي الرحمن ! أهكذا انتهى كل شئ ؟ لقد دفن الوحي الإلهي معك . وعاد الملك جبريل إلى السماء إلى الأبد . اللهم حقق أمنيائي الأخيرة وأسرع فى إلحاق روحى بروحه . وأرنى وجهه ولا تحرمنى أجره ولا شفاعة يوم القيامة . » ثم أخذت حفنة من تراب القبر وشمته . وأضافت تقول : « حين نشم رائحة تراب قبره ، هل يوجد بين أزكى العطور ما هو أطيب من رائحته ؟ واحسرتاه ! كل المشاعر الجميلة قد انطفأت فى قلبى والسحب التى رفعها الحزن من حولى سوف تحيل أجمل الأيام إلى ليل دامس (٣) . »
ولقد تحققت أمنية فاطمة ولم تعيش بعد أبيها سوى شهر .

[رثاء صفية بنت عبد المطلب]

أما عائشة فقد أغلقت على نفسها حجرتها وأسلمت نفسها للبكاء والأحزان . وفى وسط هذا الحزن الشامل ، جاءت صفية عمة محمد - وقد كانت قوية الروح - وأخذت تواسى الأسرة بهذا الرثاء (٤)

« يا رسول الله ! إنك حتى وأنت فى قبرك معقد الآمال الغالية . لقد عشت بيننا طاهراً ونقياً وعادلاً . وكان الناس يجدون فىك الهداية الحكيمة والمستتيرة . فليبك عليك كل من يستطيع أن يزرع الدموع الغالية .

« أما أنا فإني أقسم بالسعادة التى يتمتع بها أن لا يسلمنى الحزن الذى ألم بى لفراق النبي للبكاء على قبره . ماذا نخشى من غيابه عنا ؟ هل سيوقف الله عنا تدفق نعمه ؟ كلا إنه سيزيد

(١) أبو الفداء ص ١٤١ [١٦٠] .

(٢) [الطبقات الكبرى ج ٢ القسم الثانى ص ٧١]

(٣) جناب ص ٣٠٤ [الطبقات بمعنى بعضه ص ٨٣ قسم ثان]

(٤) جناب ص ٣٠٤ [الطبقات الكبرى / ٢٨ القسم الثانى ص ٩٦]

من عطائه لنا بشفاعته، وسأقضى بقية حياتي في المدينة إلى جوار قبره في سلام وبلا خوف في هذا المآوى الأمين . يا رسول الله فليمنحك الله السلام الرحب ، وأنت في دار النعيم تتذوق السعادة الدائمة للفلاح الخالد» .

[وصف الرسول]

[أ - صفة الرسول الخلقية]

لقد اعتاد الكتاب العرب أن يصوروا لنا نبيهم محاطا بصفات الكمال العقلي والجسماني . ولكن أبا الفدا - أكثرهم حكمة وأقلهم تحيزاً - قد ترك لنا هذه الصورة التي رسمها على يده: «لقد كان محمد ذا قامة متوسطة. وكان رأسه كبيراً ولحيته غزيرة. وكانت راحة يديه [ضخمة لينة] وباطن قدميه خشنة وقوية . وكانت عظامه عريضة ومتماسكة ، وبشرته قرمزية اللون ، وعينه سوداوين ، ووجنتاه اثيقتين وشعره [رجل (مسرح) لا جعد ولا سقط (طويل)] وكانت رقبته بيضاء كالعاج .»

[ب - خصاله]

ويصف لنا نفس المؤلف خصاله الشخصية وفضائله الخلقية على هذا النحو :

« لقد وهبته الطبيعة ذكاء حاداً ، وعقلاً راجحاً ، وذاكرة فذة (١). وكان قليل الحديث . ويجد سعادته في السكوت . وكان جبينه دائماً مشرقاً ، وحديثه عذبا ، وطبعه عاديا . وكان عادلا مع الجميع . وسواء أكان الشخص قريبا أو غريبا أو قويا أو ضعيفا ، لم يكن ذلك بقادر على أن يجعل ميزان العدل يميل في يده . ولم يكن يحتقر الفقير لفقره ، ولا يوقر الغنى لغناه . وكان يستخدم حلاوة حديثه ليكسب قلوب العظماء . وكان يحتفظ بمزاحة لأصدقائه . كان ينصت في صبر لمن يحدثه ، ولم يكن أول من ينهض وافقا [إيذانا بانتهاء المقابلة] وإذا صافحه أحد لم يكن يقبض يده إلا بعد صاحبه . وكان دائم الزيارة لأصدقائه في السلاح [١٩] وكان يسأل عن شئونهم . ولما أصبح فاتح الجزيرة العربية ، كان كثيراً ما يجلس على الأرض ، ويوقد ناره بيده ، ويعد الطعام لضيوفه بيده .»

(١) أبو الفدا ص ١٤٤ [١ / ١٦١]

« بالرغم من امتلاكه لثروات عظيمة، فقد كان ينفقها كلها بسخاء . ولم يكن يبقى لبيته سوى ما هو ضروري (١) في بساطة . ويقال إنه فاق الرجال في أربع خصال : في الشجاعة وفي السخاء وفي القتال وفي الحيوية في الزواج . وكان كثيراً ما يقول « إن الله خلق أمرين لسعادة الرجال : النساء والطيب . »

[تعدد زواجه]

وبناء على القانون الإسلامي الذي أملاه بنفسه [١٩] ، فإنه لا يباح الزواج بأكثر من أربع نساء في وقت واحد (٢) ولقد تزوج هو خمسة عشرة امرأة . وبنى على اثني عشرة منهن . وكان يعتقد أن من شرف النبي ألا يقيد عدد زواجه شأنه شأن سائر الناس . ولهذا جعل [١٩] السماء تنطق بهذه الكلمات : ﴿ يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك . وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة [النص الفرنسي وكل امرأة مؤمنة] [١٩] إن وهبت نفسها للنبي ﴾ (٣) . قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفورا رحيما . ﴿

[هذه مغالطة من الكاتب والمعروف أن من بنى عليهن رسول الله إحدى عشرة ، وأنه له أربع سراري وأنه مات عن تسع فقط ..]

[الرد على المستشرقين]

[لقد كان تعدد الزوجات الى غير حد هو النظام السائد في الجزيرة العربية . وعلى قاعدته تزوج النبي نساء هـ ولكل زوجة ما يبرر زواجه بها . فلما جاء الإسلام

(١) انس بن مالك [ففي صحيح البخاري عن قتادة قال كنا نأتي أنس بن مالك ونخبره قائم وقال : كلوا ! فما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً رقيقاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط ج ٨ ص ١٢٤ وفي عطاءه انظر البخاري ج ٨ ص ١٢٤ (و ٤ / ٢٢٩ ، ٦ / ١٨ ج ٨ / ١٢١)

(٢) وأبو الفدا [ص ١٦٢] جناب [البخاري ٧ / ١١] وقد أخطأ سفاري في النقل فإن نص أبي الفدا دخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة وقيل أنه دخل بأحدى عشرة ، ولم يدخل ﷺ بأربع وتوفي عن تسع غير مارية القبطية والتسع هن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وسودة بنت زمعة وزينب بنت جحش وميمونة وصفية وجويرية وأم حبيبة وأم سلمة .

(٣) القرآن سورة الأحزاب [الآية : ٥٠] .

بتحديد عدد الزوجات ، نزل القرآن أول ما أنزل بتحريم زواج النبي أى امرأة غير من تكون فى عصمته بالفعل ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج (الأحزاب: ٥٢) ﴾ بينما غيره من المسلمين أحرار فى الطلاق والزواج بأخريات بدلا ممن يطلقونهن . ثم نزل تحريم تعدد الزوجات أكثر من أربع لساير الأمة المحمدية بعد ذلك فى سورة النساء . ذلك أن سورة الأحزاب نزلت قبل النساء كما هو معروف [

[فشرف النبوة ليس كما يزعم سفارى فى ألا يقيد عدد زوجاته كسائر الناس، بل كان فى السبق بتقييده أولا قبل الأمة، وتحريم الزواج عليه بأكثر ممن معه حتى ولو أن واحدة من نسائه ماتت أو طلقت ما جاز له أن يتزوج بدلا منها. فقد تزوجهن لضرورة خاصة بهن لا به، وبوفاة واحدة منهن سقطت الضرورة التى من أجلها كان تعداد الزواج. فأم حبيبة بنت أبى سفيان، كان أبوها زعيم الشرك، وقد تنصر زوجها وهى مهاجرة معه فى أرض الحبشة. فلم يكن لها ما يحمى عقيدتها لو أنها عادت إلى أهلها. فكان لزاما أن يؤويها رسول الله إلى بيته . إذ كان كل مسلم معه مشغولا بأهله.]

وزينب بنت جحش هى ابنة عمته ﷺ ، كان قد أنكحها زيدا الذى تبناه ، ولم يوفقا فى زواجهما فكان لا بد من طلاقها ، وأن يتحمل المسئول الأول عن زواجها يزيد تبعة عمله وهو النبي - فتزوجها صونا لكرامتها . لهذا وليكون بطل تشريع غريب على الجزيرة ، وهو زواج الرجل زوجة متبناه الذى كان يعد من أوهام الناس كالأبن الصلب والناس يشتمزون من زواج الرجل بامرأة ابنه من الصلب أو غيره ، ولو لم يفعل النبي هذا ، لظل الناس على اشتمزازهم من هذا الذى أحله الله ، فيكفرون من حيث لا يشعرون ، ويدخل الشرك الخفى على إيمانهم ، لأنه كما قال ﷺ ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، ويعدّ زواجه ﷺ بمن كانت تحت مولاه أعظم مثل للديمقراطية كما أن زواجها - وهى الشريفة القرشية - بمولى من الموالى مثل رائع فى الديمقراطية الاجتماعية كذلك (١) وأشهد أن هذا أمر عظيم . فلقد طلق رجل زوجته

(١) [تاريخ الاسلام السياسى ج ١/ ١٩٦: ١٩٧.]

الجميلة الماهرة . وكان لموظف كبير حاجة إليها ، ولم يمنعه من ذلك إلا أنها كانت قبله تحت رجل كحاجبه بالرغم من أن المطلق والمطلقة من أصلين كريمين ، وإن كان في المال أقل . [

]وأما حفصة بنت عمر بن الخطاب ، فكانت سحنتها لا تعجب الرجال ولم تجد لها زوجا في غربتها وغربة أبيها بعد استشهاد زوجها في بدر . فاقتضت أريحيته ﷺ أن ينكحها إجلالا لماضيها وتكريما لأبيها . [

] وقد تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة . وكانت عجوزاً مات زوجها . وكانت قد هاجرت معه الى الحبشة . ولما عادت إلى مكة ، لم يكن لها نصير يحميها ، وتأوى إلى ظله غيره ﷺ ، ولم يكن للنبي زوجة تخدمه . فخطبت له سودة لتخدمه وليحميها . كما خطبت له عائشة في نفس الوقت - وكانت طفلة إرضاء لأبي بكر الصديق وإنقاذاً لابنته المسلمة من علق كان خطبها وخشى على دينها منه . [

] وقد تزوج عليه السلام صفية بنت حيى بن أخطب زعيم اليهود ، وجويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق - بعد أن أعتقهما وأسلما - حرصا على آدميتهما ومنزلتهما الاجتماعية أن يفقداها لو عوملتا معاملة العبيد في عامة البيوت . وقد أثمر زواجه بجويرة علق أصهاره إذ أن كل صحابي أعتق أسيره تكريما للرسول وزوجته الجديدة ، فأسلم العتقاء جميعا . وصفية التى يتهم الرسول بالوقوع فى حبائل جمالها كانت قصيرة قصرا بيناً عيرت به ، فجبر النبي خاطرهما (١) . [

] أما أم سلمة (هند بنت أبى أمية) فكانت عجوزاً ذات أولاد ، وقد توفى زوجها بالحبشة . وما كان لأحد أن يرعى عجوزاً وبنيتها فى أرض الغربة إلا رسول الله ﷺ ، ولو أنه لم يفعل لكان إهماله شأنها هى وبنيتها موضع اللوم والتثريب . [

أما زينب بنت خزيمة فقد استشهاد زوجها يوم أحد ، ولم يتقدم لخطبتها أحد ، ولا

(١) [حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨٢ ط ٢]

كفيل لها من قومها مع فقر وضك أوجد أزمة عائلية كان لا مخرج منها إلا الزواج أو الصبر على الكفاف (١) فتزوجها عليه السلام وقد ماتت بعد شهرين في حياته ﷺ، ولم يكن لها من يعولها غيره ، ولو أنه آواها دون زواج لنهش الكفار عرضه .

[وفي كل الأحوال لم يكن قد نزل من السماء تحديد لعدد الزوجات ولا تثريب على أحد خالف نصا قبل نزوله وقانونا قبل نشره . ولم يتزوج بعد نزول تحديد عدد الزوجات أحدا . ولا يجوز أن يغرب عن البال أن نساء النبي أمهات المؤمنين ، ولا يجوز للمسلم أن يتزوج أمه ، فلو طلق النبي واحدة من نسائه كيما يستبقى أربعاً لصاعت المطلقات ، وحرمن من يؤويهن ويجدن لديه ما يعفهن . والعصمة للرسول ولسن مراسلات .]

[هذا فضلا عن حاجة الرسالة الى عدد كبير يطلع على خاصة أحواله ﷺ لنشرها في الناس تشريعا لهم ، وليس أفضل من زوجاته لتلك المهمة .]

[أولاد النبي]

ومن كل هؤلاء النسوة - فيما عدا مارية القبطية التي رزق منها إبراهيم - فإن خديجة هي وحدها التي أنجبت له أولاده وهم أربعة ذكور : القاسم - الذي كنى باسمه - والطيب والطاهر وعبد الله . ولقد توفوا جميعا في سن مبكرة . وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . ولقد تزوجن كلهن ولم يعش بعد أبيها سوى فاطمة .

خاتمة

سوف نختم هذا المختصر بصورة للخصائص التي تميز بها مشرع الجزيرة العربية [؟] . فلقد كان محمد رجلاً من الرجال الأفذاذ الذين ولدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح الحياة إلا في فترات متباعدة لكي يغيروا وجه الدنيا ولكي يربطوا الناس بخط سيرهم .

(١) [نفس المرجع ص ١٨٥ ط ٢]

[دعوى أن القرآن جمعه محمد من الكتب السابقة : سبق الرد عليها .]

[قال سفارى :

فعندما نتأمل البداية التى انطلق منها ، ومقدار العظمة التى حققها. نعجب من قدرة العبقريّة الانسانية التى تهيأت لها الظروف المساعدة . لقد ولد وثنيا [١٩] ولكنه تربى على معرفة إله واحد. ولما مزق وشاح الوثنية ، فكر فى أن يمنح [٢] الناس عقيدة دينية. ولكن المحن التى قابلها بعد ميلاده ساعدت على تقوية روحه التى خلقت للتغلب على العقبات ولقد تعلم من ترحاله: فرأى الروم منقسمين فى عقيدتهم يلعن بعضهم بعضا. واليهود - أقبح الأمم - يستميتون فى الدفاع عن شريعة موسى ، وقبائل العرب على اختلافها غارقة فى ظلمات الشرك. تأثر بهذه المشاهد فانسحب الى عزلته ووحدته . وأخذ يفكر خمسة عشر عاما فى النظام الدينى الذى يستطيع أن يجمع - فى ظل سلطة واحدة - كلا من النصرانى واليهودى والوثنى . ولقد كانت هذه الخطوة واسعة وشاملة ، ولكنها كانت مستحيلة التنفيذ . فاعتقد انه لكى يضمن لها النجاح ، يجب أن يجعل لها عقيدة بسيطة لا تقدم إلا ما يفهمه العقل ويهضمه ، حتى تناسب شعوب الأرض جميعاً . ولقد كانت هى عقيدة الله الواحد ، المنتقم عقابا لكل شر والمثيب جزاء لكل خير .

[تعقيب]

[ولقد كان الحنفاء المعاصرون له والذين قبله يدعون إلى التوحيد فلماذا فشلوا ؟
ولماذا لم يعدوا أنبياء ؟]

ولما كان فى حاجة إلى سلطان من السماء لكى يكون دينه مقبولا ، أضاف ضرورة اعتباره [١٩] رسول الله والمبلغ عنه . و بعد أن أرسى هذه القاعدة تبنى الأخلاق التى وجدها فى الديانة المسيحية والديانة اليهودية ، لأنه رآها انسب ما تكون لشعوب المناخ الحار .

[تعقيب :]

[وإذا كان تبنى ما فى المسيحية واليهودية كفيلا برفعه إلى درجة النبوة ، فلماذا لم

يرتفع علماء المسيحية واليهودية المتخصصون في الدعوة إلى درجة النبوة ؟ ولماذا لم يكسبوا العرب إلى صفوف الديانتين ؟

ولم يغرب عن باله في مشروعه أن يأخذ أمر العرب في حسابه . فقد كان جوهر عمله من أجلهم . فذكرهم بأحب الذكريات إلى نفوسهم وهى اسم إبراهيم واسم إسماعيل وجعلهم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين هذين الشخصين .

[تعقيب]

[إذا قبل نحو مليون عربى فى الجزيرة الإسلام لنسبته الى ابراهيم وإسماعيل ؟ فإن محمدا لم يقل انه مبعوث الى العرب . بل توجه بدعوته إلى الناس كافة، والإنحياز الى أصل العرب يفقد الدعوة عالميتها تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً فلعصر العصبية العربية مقتل لدينه ، وليس أكسير حياة . ولهذا كان المسلمون من غير العرب أضعاف العرب .]

[امتياز اللغة العربية]

ولقد كان محمد ضليعاً فى علوم لغته - أغنى لغات الأرض وأجملها جرساً - اذ تستطيع بتركيبها المنظوم أن تطير مع الأفكار فى انطلاقاتها، وتلحق بها من غير عناء. ويمكنها بتركيبها الموسيقى أن تقلد أصوات المخلوقات ، وحديث الموج الخافت ، وقصف الرعد ، وصفير الرياح . كان عالماً بفنون اللغة التى ثمقها وجملها شعراء كثيرون منذ أن وجدت مع بدء الخليفة .

[تعقيب]

[الكاتب يتجاهل انشعاب اللغات وكأنه لم يدرس علم اللغة حين قال (إن اللغة العربية وجدت مع الخليفة) وغفل عن أن سمو الحكمة فى القرآن والسنة يرجع الى المفهوم لدى الملايين التى أسلمت أو التى لا تزال تدخل الإسلام دون معرفة للغة وسحر أسلوبها .]

[ولقد قال الأديب الفرنسي لود فيك هيلكى صاحب « حديقة أبيقور » ، فى كتابه :
 إن كل ما لا يستمد قيمته من ذاته - وإنما يستمدّها من جدة صياغته ومن ذوق فنى
 خاص - يموت بسرعة ويندثر. وما المودة الفنية كبقية « المودات » ، لا دوام لها ولا
 بقاء .. فإذا ما سرنا فى الأسلوب على ذلك النسق من الزينة الوقتية فلا مناص من
 التغيير فيه والتبديل كل عام . ونحن نشاهد القرآن دائماً جديداً لا يخلق على كثرة الرد
 والتكرار ، وما هذا إلا لأنه ليس أسلوباً بشرياً ترجع فيه العظمة إلى مجرد اللفظ ، وإن
 كان اللفظ عظيماً على المستوى الذى يتناسب وجلال المعنى .]

ولقد عني محمد بأن يضيف إلى مواعظه ودروسه سحر الأسلوب ، وإلى مبادئ الروعة
 والجلال اللاتين ، وإلى الأساطير [١٩] المقبولة فى زمانه لمسة أصيلة جعلتها مشوقة .

[موجز لسيرة الدعوة الإسلامية]

ولما حان الوقت الذى اختاره [١٩] لكى يعلن فيه عن مجئ رسالته ، أحاط خطواته
 بالسرية والإبهام، واهتم أولاً بكسب من يعيشون داخل بيته الى عقيدته ، ثم ضم إليه خادمه ،
 وتمكن سواء بالتجائه الى الخديعة أو لتفوقه فى المعرفة - أن يكسب بعض كبار المواطنين بمكة .
 وحين رأى أن حربه قد قوى ، أخذ يرعد الوثنية . ولم تكن المصائب التى أنزلت به من النفى
 والحرمان إلا لتقوى من عزمه . وبعد أن أعد - عن طريق رسله - مأوى فى جوار حاشية ملك
 الحبشة وملجأ فى المدينة ، أعلن عن أغراضه الطموحة، وكشف عن نفسه علانية. وقام النصارى
 بكشف أخطائه واتهموه بالدجل . ولم يجد اليهود فى هذا المواطن المكى البسيط المسيح المتوج
 بالجلال والمجد الذى كانوا ينتظرونه، فنبذوا دينه وناصروه العدا . وارتعدت قريش خوفاً على
 دينها الذى كان أساس قوتها ونفوذها، فوعدت بمكافأة لمن يأتيها برأسه . ولكن تضايف هذا
 الصخب وهذا الحقد لم يخفه . فقد كان ثباته فوق كل المصائب ، وكانت عبقرية مهياة
 لتذليل كل العقبات . واستفاد من العزلة التى أتاحت له عند الخنزرج بفضل إحكامه مؤامراته
 [١٩] وعمل على تسليح المدينة ضد مكة ، وصمم على أن يخضع بقوة السلاح كل من لم
 يستطع إخضاعه بقوة الاقتناع . [١٩] .

[مغالطة تاريخية]

[وكل دارسى التاريخ لم يذكروا أنه كان بين النبى والنجاشى عند الهجرة الى الحبشة أى علاقة . وكان المهاجرون الأولون ١٦ مهاجراً . ولكنه تزيف التاريخ يصنعه المستشرقون . كما يعلم كل ذى دراية بالسيرة أن النبى أعلن دعوته من فوق جبل الصفا بين قومه . ولم يكن معه عشرون رجلاً وامراًة . بل إن كل مهاجرى الحبشة كانوا فى المرتين ٨٣ رجلاً . فهل يصلح ذلك العدد لغزو الدنيا من أجل مغنم مادى ؟ أم إن التضحية حتما ستكون أكبر من الغنائم . مما يصرف ذوى الاغراض العادية عن المغامرة والتضحيات ؟ إن ثبات النبى بهذه القلة على دعوته أقوى دليل على أنهم لم يريدوا الدنيا ، وإنما أرادوا الله والدار الآخرة .]

ولما يس محمد من إمكان التغلب على تمسك اليهود والنصارى بدينهم ، ألغى القوانين التى كان قد اصدها [!؟] لصالحهم ، ووجه كل عناية إلى العرب . فغير قبلة الصلاة وجعلها فى اتجاه مكة . وكان هذا المبدأ محل اعجاب وتهليل . وبينما كان الشعب ينظر إليه على أنه نعمة من السماء ، كان المشرع يرى فيه أسلوباً لتثبيت فكر أتباعه على المكان الذى كان متحمساً للاستيلاء عليه .

[المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

ونقطة هامة كانت تشغل بال النبى وهى أن يجمع بالروابط المقدسة كل القبائل التى كانت تفرقها الاحقاد القديمة . فأوجد نظام الأخوة . هذا النظام الذى جعل من المواطنين المتفرقين أسرة واحدة تضافرت جهودها لتحقيق مجد القائد الذى كان يوجهها [واضح أن المستشرق يتجاهل طبيعة العربى ذى الأنفة والكبرياء .]

[المغازى]

ولم يكن مفر من مقاومة الأعداء وصدهم بقوة السلاح . وعندئذ أظهر إقداماً وشجاعة وجرأة كانت قد ظهرت بشائرها فى المعارك التى خاضها تحت رعاية ابى طالب . وهنا أخذت تتجلى مواهبه كقائد عسكرى عظيم . وكان النصر أو الشهادة هما البديلان اللذان

عرض على جنوده اختيار أحدهما . وألهب شجاعتهم الأمل فى الحصول عل غنيمة كانت توزع دائماً بالعدل .

[تعقيب]

[نسى الكاتب أن من يرميهم بالطمع فى الغنائم . تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا فى سبيل الله . وتناسى أنهم تركوا البنى المصطلق ولهوازن ماطلب النبي منهم أن يتركوه . ورجع جيش المدينة من كلا المعركتين بثواب الله وحده . ونسى أن من المسلمين من كان يتبرع بكل ماله أو بنصفه لله ، أو يجهز جنوداً أو كتائب لنصرة الإسلام . وليس يخرج طمعاً فى مغنم من المغانم . وتناسى الكاتب أن بعض السرايا كانت استطلاعية ومأمورة بعدم القتال إلا عند الضرورة]

وكان ضمان المدد الإلهى الدائم والمتواصل ، قد جعل جنوده لا يقهرون . ولما اضطر إلى محاربة الجزيرة العربية بأسرها بقوة مواطنى المدينة وحدها ، اعتمد على سرعة معاركة وحسن اختياره للمواقع العسكرية الممتازة ، وعلى تنمية الشجاعة العسكرية فى مقاتليه حتى يتفوق على أعدائه . وبينما كان ينفخ فى القلوب حمية التعصب الدينى [١٩] وهو فى قلب المعركة ، كان وهو هادئ النفس يقرب حركات جيش العدو حتى يستفيد من أى خطأ أو يلجأ إلى الخديعة لى ينتزع النصر . وكان يوم « أحد » هو اليوم الوحيد الذى أدار له فيه الحظ ظهره . ولكنه كشف عن عمق عبقريته ، وعن السطوة التى كان يتمتع بها ويسيطر على العقول . ورغم أن المشركين قد انتصروا فى ذلك اليوم إلا أنهم لم يجرؤوا على الاستمرار فى تفوقهم ولم يحدث أن انفصل واحد من المسلمين عن نبيه.

[مكاتبة الملوك]

ولما أتم دمار اليهود ، واخضاع كثير من القبائل العربية مما أدى إلى اتساع سلطانه ، أرسل السفراء إلى الملوك والحكام الأجانب ولم يكن يطمع فى أن يدخلوا جميعاً فى الإسلام ، ولكنه كان يحاول إيجاد مبررات لمهاجمتهم عندما يحين الوقت [٢٠].

[تعقيب]

[الكاتب ينسى هنا أن من قواعد الاسلام ما جاء به صريح القرآن ﴿ وإن جنحوا
للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾]

[فتح مكة]

وبعد ثمانى سنوات من المعارك ومن الانتصارات ، اضطرت مكة إلى أن تستسلم للطوفان.
وأن تفتح أبوابها للفاتح المنتصر ، فحكمها حكم الأسياد [ونسى الكاتب العفو الشامل من
النبي] ولما عاد إلى المدينة أخذ يلم الأطراف المبعثرة من مملكته الناشئة ويعطيها قواماً معنوياً.
ولقد كان خبيراً بنفوس الناس حتى إن جميع الحكام والقواد الذين اختارهم ، كانوا كلهم
عظماء الشخصيات .

[تعقيب]

[وإذا كانوا من عظماء الشخصيات ، فهل يقبل أن يكونوا جميعاً مغفلين عاجزين
عن اكتشاف دجل محمد ﷺ لو أنه كان دجالاً أو علي الأقل اكتشاف ما يثير الشكوك
حول أغراضه فيحدوا من اندفاعهم في الجهاد والتضحيات البالغة .]

وخلفه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - وهم أشهر اصدقائه فى حكم امبراطوريته - ومدوا
حدودها إلى بعيد جداً . ولقد كان طموحه يوجه نظره الى الشام فى إعجاب . فاخترق خالد
الرمال المحرقة بالجزيرة ، وذهب ليتقم لموت رسول قتله الروم غدرأ وهو آمن ومسالماً . ولقد
حقق هذا القائد العظيم نصراً كبيراً لا زالت كتب الأجيال المتعاقبة تحمل ذكره . وكان يكفى دم
مئات الألوف من الروم لتحقيق الثأر ، ولكنه لم يكف لارضاء الأطماع [١٩] . وكان محمد قد
عزم على تفتيت امبراطورية هرقل ، ولكنه لما تمتع به من حكمة فى إجراءاته ، وسرعة فى
التنفيذ ، أدرك أن الأولى به قبل أن يهاجمها هو أن يطمئن جانبه من صفار الأمراء الذين
يحكمون أطراف الجزيرة . وتمكن هذا القائد بنفسه - وهو الذى لم يكن يستطيع منذ ثمانى
سنوات مضت أن يجمع تحت لوائه إلا الثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً - من أن يتحرك نحو الشام

على رأس جيش من ثلاثين ألف رجل. واخترق الصحراء والرمال كالبرق فعسكر بتبوك . ولقد تمكن في عشرين يوما من إخضاع جميع القبائل والبلدان الممتدة إلى حدود الشام . وفرض الجزية على من أبى أن يترك دينه. ثم عاد إلى المدينة محملا بالغنائم ومتوجا بالمجد .

وعند عودته علم بخضوع ملوك حِمير الذين كانوا يحكمون أقاليم اليمن . ثم جاء زعماء صغار قبائل المشركين تباعا يخضعون جباههم أمام فاتح مكة ، ويعتنقون ديانته . وأصبحت هذه الجزيرة التي تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي تخضع لسلطانه . وكان يتجهز لدخول الإمبراطورية الرومانية. وكان أربعون ألف مقاتل أو أكثر قد احتشدوا تحت قيادته، لكي يزلزلوا عرش القياصرة . عندما جاء الموت يوقف مشروعاته وامتداد صولجانه .

[الحزن العام لوفاة النبي]

بهذه النبأ غرقت المدينة في حزن شامل . والصورة التي ينقلها إلينا المؤلفون المعاصرون لهذا الحداد العام الذي غطى هذه المدينة - صورة مروعة للغاية ، وتدل على مقدار ما كان يتمتع به محمد من نفوذ على العقول .

[شخصيته]

لقد كان سياسياً بارعا وقائدا عظيماً أرسى سلطانه على أساس متين حتى ان الجزيرة العربية ظلت وفية للإسلام وأن خلفاءه لم يسعهم إلا اتباع الطريق التي رسمها لهم . ولقد حمس نفوس أصحابه بغزواته حتى إن كثيرا منهم أصبحوا قادة نابهين ، وقلبوا تحت اسم المغاربة Sarrasins عرش الفرس ، ومزقوا إمبراطورية الشرق ، واستولوا على مصر والشام وإفريقيا وقهروا أسبانيا . ولكثرة ما قاتلوا وانتصروا كادوا يكلبوا العالم كله بالحديد [١٩] .

[تعقيب]

[كيف هذا واليهود- شر خلق الله- يذكرون أنهم لم يجدوا الأمن والحرية إلا في ظل الإسلام . وبشهادتهم شهد الأحرار من المسيحيين من كافة الطبقات .]
لقد كانت هذه هي نتائج الحماسة التي عرف محمد كيف يلهم بها المقاتلين الذين نشأوا

فى مدرسته. أما الممالك العظيمة التى أقامها خلفاؤه بعد ذلك ، فقد انهارت لأن المواهب لا تورث كما يورث الملك . ولكن القوانين التى وضعها بقيت بعد زوال هذه الممالك .

[تعقيب]

[أي غفلة هذه التى وقع فيها سفاري . هذه الممالك العظيمة لا يزال فيها الإسلام مصر والشام والعراق وفارس وباكستان واندونيسيا وشمال إفريقيا والسودان ونحو سدس العالمين بالرغم من سقوط نظام الحكم الإسلامى تحت ضغوط ومؤامرات الصليبية .]

وبينما نرى بعض المؤرخين المتحمسين يصورون محمدا على أنه انسان أحق [١٩] لا زال جزء من سكان الأرض يوقرون ذكره ، ويتبعون دينه بلا تبصر [١٩] منذ ألف ومائتى سنة. فإن الحكماء من بين الشرقيين الذين يتسامون فوق النظرة السطحية ينكرون عليه لقب النبى [١٩] وينظرون إليه باعتباره من أكبر الرجال الذين خلقوا على هذه الأرض

[تعقيب]

[هؤلاء الحكماء الذين ذكرهم هم المصوبوغون بثقافة المبشرين والمستشرقين والغربيين الصليبيين . أما الاحرار من الفلاسفة في الغرب والشرق ، فلا يسعهم إلا أن يقولوا محمد رسول الله ، فتزييف النبوات يفضحه الله كما حدث لمن سيذكرهم الكاتب بعد ذلك]

[المتنبيون الكذابون]

ولقد أراد فريق من النبين المزيفين أن يحذوا حذوه دون أن تكون لهم مواهبه ومعارفه وعلومه ، فانهاروا انهيارا تناسبت فداحته مع حجم مواهبهم .

هذه هى الصورة الحقيقية التى يقدمها لنا التاريخ عن محمد ، وتستند كل الملامح التى يعرضها على الوقائع التاريخية التى جمعتها هنا بكل نزاهة [١٩]

[تعقيب]

[وهذه هى الصورة الحقيقية التى يقدمها لنا تاريخ الفكر عن الاستشراق ،

وأغراض المستشرقين الخبيثة عندما يكتبون عن رسول الله أو الإسلام . بقصد التحريف والتشويه والتضليل والصد عن سبيل الله . بإيجاز ناقشناها . والحق أبلج والباطل لجلج . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون . [

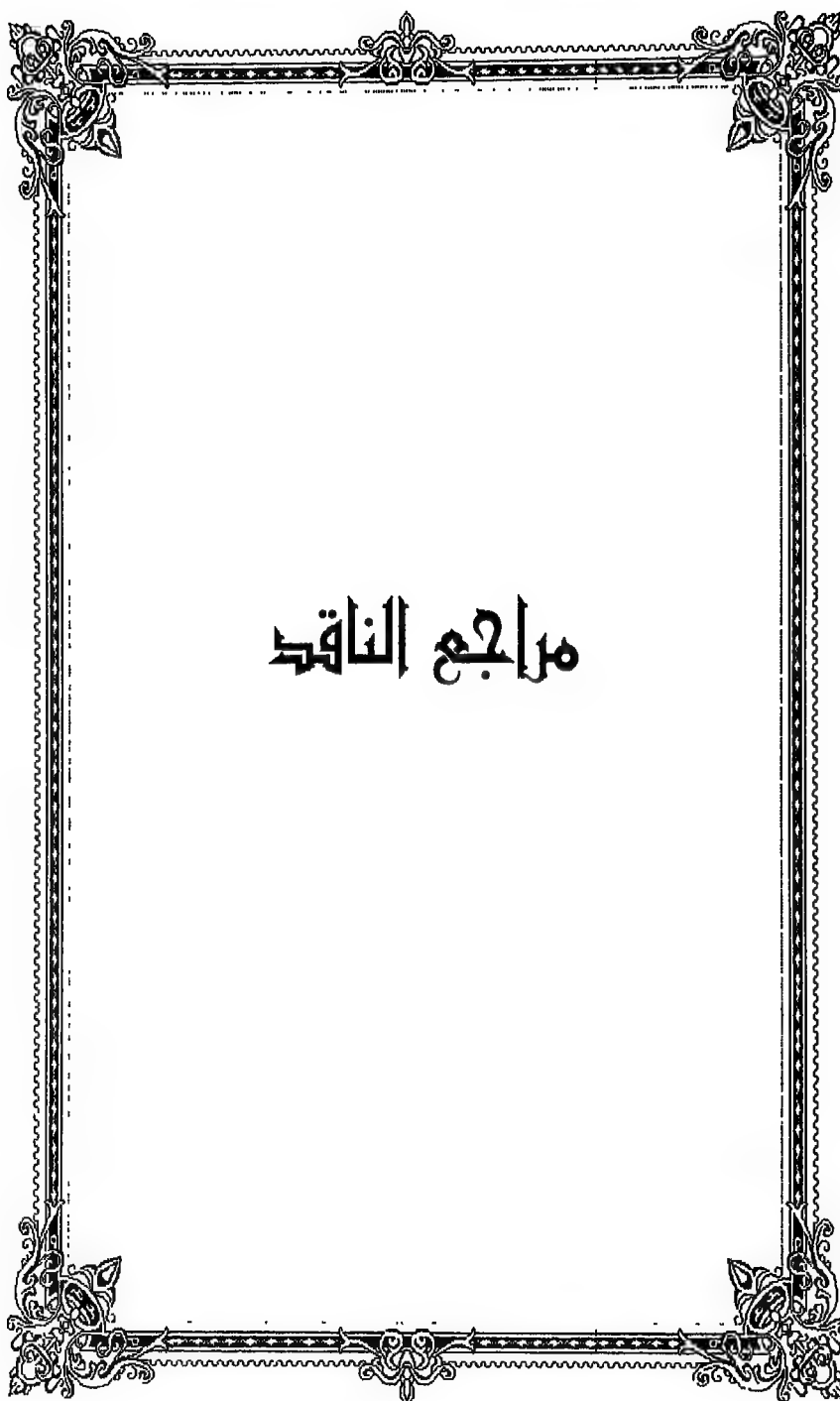
[وشهد شاهد]

[ولعل خير ما نختم به هذه الدراسة شهادة شاهد من المستشرقين للنبي والإسلام . والفضل ما شهدت به الأعداء لقد قال :

[كان أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة . ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء ، وسمو البكورية إلي مرتبة الملائكية . فكان اعتزال العالم هو الطريق إلي القداسة . والقذارة صفة لطهارة الرهبنة . وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة . كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطي مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضريهم ولا في مستقبلهم . فأزال الإسلام بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات .. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوي . ولقد بين أصول الدين التي تقوم علي وحدانية الله ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس الي الامتثال لأوامره والإيمان به . وتقويض الأمر إليه . وأعلن أن المرء مسئول . وأن هناك حياة آخرة . يوماً للحساب . وأعد للأشرار عقاباً أليماً . وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ونبذ المظاهر الكاذبة والدجل الديني والثرهات والنزاعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين . وأحل الشجاعة محل الرهبنة . ومنح العبد رجاءً والإنسانية إخاء . ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية (١)]

* * *

(١) [الدعوة للإسلام ص ٦٧ سيرت / وارنولد - انتشار الإسلام بالطريق السلمي ص ٣٢ - ٣٣ .]



مراجع الناقد

مراجع الناقد

- | اسم الكتاب | المؤلف والناشر |
|---|--|
| ١ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري | * الإمام القسطلاني . ط المطبعة الكبرى الأميرية ط ٦ |
| ٢ - الاسلام وأثره في الثقافة العالمية | * د . محمد سلام مذكور سلسلة دراسات الإسلام ع ٦٧ |
| ٣ - انتشار الإسلام بالطريق السلمي | * محمد فادي عسر ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية |
| ٤ - إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث | * مالك بن نبي - مكتبة عمار والوعي الإسلامي ع ٥٠, ٤٩ |
| ٥ - الأنوار المحمدية | * القاضي يوسف الذباني |
| ٦ - بطل الأبطال ج ١ | * عبد الرحمن عزام (باشا) ط أولي مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر |
| ٧ - البطولة والأبطال | * د . محمد أحمد الحوفي ط نهضة مصر ومطبعها |
| ٨ - تاريخ القرآن | * إبراهيم الإبياري ط دار القلم |
| ٩ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي | * د . حسن إبراهيم حسن . ط ٣ النهضة المصرية |
| ١٠ - تاريخ الطبري | * الطبري - دار المعارف |
| ١١ - التجريد الصريح لأحاديث الصحيح | * الزبيدي بهامش فتح المبدي |
| ١٢ - تفسير الخازن | * علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن ط التقدم العلمية بمصر |

- ١٣ - تهذيب سيرة بن هشام . * عبد السلام هارون ط سعد مصر
للتوزيع بالقاهرة
- ١٤ - ثبات الإيمان ونصرة القرآن في الرد علي هاشم العربي الطاعن في القرآن في كتابه المسمي بالتذليل * محمد حلاوة المرصفي * ط الامتياز
بالزقازيق سنة ١٣٢٩ هـ
- ١٥ - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة * د . محمد خلف الله أحمد ط ٢ النهضة
المصرية
- ١٦ - الجامع الصحيح * الامام البخاري ط الشعب
- ١٧ - حياة محمد * اميل درمنجم وترجمة عادل زعيتر ط ٢
دار احياء الكتب العربية
بالقاهرة .
- ١٨ - حياة محمد * د . محمد حسين هيكل ط ٢
- ١٩ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه * عباس العقاد ط ٢
- ٢٠ - خاتم النبيين في نظر المستشرقين * كازيمركسي ترجمة وتعليق أبو الوفاء
درويش
- ٢١ - الدرر في اختصار المغازي والسير * ابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد
البر النمري ط المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية
- ٢٢ - الدعوة إلي الإسلام * توماس وأرنولد . ترجمة حسن ابراهيم
حسن وآخرين النهضة المصرية
- ٢٣ - الرسالة المحمدية * السيد سليمان الندوي . ترجمة محمد
ناظم الندوي ط السلفية بالقاهرة
- ٢٤ - السنة ومكانتها * د . مصطفى السباعي
- ٢٥ - سيرة النبي عليه السلام * ابن هشام ط القاهرة ١٣٣٧ هـ

- ٢٦ - الطبقات الكبرى * محمد بن سعد كاتب الواقدي . ط
الشعب
- ٢٧ - عائشة أم المؤمنين * الاستاذة زاهية مصطفى قدوره ط لجنة
البيان العربي
- ٢٨ - عبقرية خالد * عباس محمود العقاد ط سنة ١٩٧٠
- ٢٩ - غارة تبشيرية جديدة علي أندونيسيا * مكتبة الكويت
- ٣٠ - فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى * الشيخ الشرقاوي
- ج ٣
- ٣١ - فقه السيرة * محمد الغزالي ط دار الكتب الحديثة
بالقاهرة ط ٤
- ٣٢ - في الأدب الحديث ج ١ * د . عمر الدسوقي ط أولي
- ٣٣ - قصص الانبياء * عبد الوهاب النجار دار الثقافة ببيروت
- ٣٤ - المبشرون والمستشرقون في الاسلام * د . محمد البيهي * ط الأزهر
- ٣٥ - المثل الأعلى في الأنبياء . * خ . كمال الدين . ترجمة أمين محمود
الشريف . ط النموذجية بالحلمية
الجديدة بالقاهرة - سكة الشايبوري .
- ٣٦ - مجمع الأمثال * أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري
المعروف بالميداني المتوفي سنة ٥١٨
هـ ط المطبعة البهية المصرية بميدان
الأزهر سنة ١٣٤٢
- ٣٧ - محمد رسول الله ، هكذا بشرت * بشري زخاري ميخائيل الناشر عالم
الأنجيل الكتب بالقاهرة ٣٧ ش عبد الخالق
ثروت

- ٣٨ - المختصر في اخبار البشر * بو الفدا وهو اسماعيل بن علي الايوبي
الملك المؤيد عماد الدين طبعة دار
الطباعة العامة الشاهانية القسطنطينية
سنة ١١٨٦ هـ
- ٣٩ - المستشرقون * نجيب العقيلي ط ٢ و ط ٣
٤٠ - المستشرقون والإسلام * زكريا هاشم زكريا المجلس الاعلي
للتئون الاسلاميه
٤١ - المستشرقون والمبشرون في العالم * ابراهيم خليل احمد مكتبة الوعي
العربي الإسلامي
٤٢ - نسب قريش * أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن
المصعب الزبيري نشرة أ . ليفي .
بروفنسال . ط دار المعارف

دوريات

- ٤٣ - مجلة الأزهرس ٧ * الأزهر بالقاهرة
٤٤ - مجلة الرابطة الاسلامية * الرابطة الإسلامية بمكة
٤٥ - مجلة المعرفة المجلد الأول والثاني * مؤسسها عبد العزيز الاسلامبولي سنة
١٩٣١ * ١٣٤٩ هـ وما بعدها .



ثبت بالموضوعات

ثبت بالمو ضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم الكتاب
٩	كلمة الناشر
١١	مقدمة المحقق الناقد
١٧	الباب الأول
١٩	الفصل الأول - ما قبل البعثة

- مولد الرسول ونسبه - مهاجمة اسماعيل - رسالة اسماعيل -
 تسمية النبي محمدا - إرهابات النبوة - وفاة عبد الله - ارضاع
 محمد - شق الصدر - رأي كزيميرسكي - وفاة أمية - كفالة
 محمد - أول رحلة تجارية لمحمد - أحقا كان للنبي مطامع ؟ -
 حرب الفجار - تجديد بناء الكعبة - الزواج بخديجة - التحنث
 بغار حراء - هل الاسلام من صنع محمد ؟ - العالمية للإسلام لا
 لغيره - هل للرسالات المخالفة للإسلام كمال الإسلام - خطأ
 سوندرس - شبهات اخري علي عموم الرسالة - انكار وليم موير
 عموم الرسالة والرد عليه - دعوي أن الاسلام أنسب دين
 للعرب - الدين العالمي في المستقبل - رد الدكتور درانه -
 المنطق القرآني - نزول القرآن منجما - دعوي أن القرآن
 صنعه محمد مستعينا بالكتابين - الادلة علي أن القرآن من عند
 الله - شبهات أخري - النبي الأمي - فنلي يعظم النبي ويثهم -
 كازيميرسكي والأمية - إثبات أمية النبي .

٦٩	الفصل الثاني - الرسالة في العهد المكي
	- بدء الوحي - تعقيب علي دعوي أن القرآن شعر - دعوي وجود خدم بالغار - السابقون الي الاسلام : خديجة - علي - زيد

- أبو بكر - الاعداد السري للرعيل الأول - الدعوة العامة - هل
حقا لم ينصر النبي أقرباؤه ؟ - التوسط لوقف الدعوة - تشبث
النبي بالدعوة - دعوي التهور - التفكير في مقاطعة المسلمين -
اسلام حمزة وهل للنبي قصر ؟ - اسلام عمر - الهجرة الي
الحبشة - الهجرة الأولى والثانية - صحيفة المقاطعة - بنو هاشم
في شعب أبي طالب - نقض الصحيفة - أبو طالب يعلن ائتلاف
الله للصحيفة - عام الحزن - الذهاب الي الطائف - دعوة
القبائل في موسم الحج - بدء اسلام الانصار - هل يرجع انتصار
الاسلام الي بلاغة النبي وسياسته فحسب ؟ - الاسراء والمعراج
- صفة المعراج - عند سدره المنتهي - الي البيت المعمور -
فرض الصلاة - نتائج الخبرة - رد الرازي - بيعة العقبة -
الأولى - الثانية - دعوة سعد بن معاذ قومه - بيعة العقبة الثالثة
رد الانصار علي حديث العباس - انتخاب النقباء للانصار .

الباب الثاني

العهد المدني

١٠٩

الفصل الأول - من الهجرة الي الفتح

في دار الندوة قرار الهجرة - فشل المؤامرة - المطاردة وقصة
سراقة - تبشير سراقة - في قباء - بلوغ المدينة - أول بناء للإسلام
- زواج عائشة - المؤاخاة - القبلة الاولى - تغيير القبلة -
مشروعية الاذان - الصوم - الغزوات - سرية عبد الله بن
جحش - بدر - حصاد المعركة - إجلاء بني قينقاع - غزوة
السويق - غزوة بني سليم - زواج علي بفاطمة - رثاء أمية بن
الصلت - مقتل كعب بن الأشرف - غزوة أحد - غزوة حمراء
الأسد - يوم الرجيع - بئر معونة - إجلاء بني النضير - الفرق بين
الغنيمة والفئ - تحريم الخمر - غزوة ذات الرقاع - غزوة بدر

الآخرة - غزوة الخندق - تحريض اليهود للمشركين - حفر الخندق - الأمل العريض - وحدات جيش العدو - توزيع القوي الإسلامية - انسحاب الأحزاب - غزوة بني قريظة - زواج ریحانة - زواج زينب بنت جحش - سرية محمد بن مسلمة الي القرطاء - غزوة بني لحيان - غزوة ذي قرد - غزوة بني المصطلق - زواج جويرية - تحمل الدولة للدية - أصدق الوفاء للعقيدة - حديث الأفك - مصير مشيعی الأفك - صلح الحديبية . رؤيا النبي - سفير النبي الى قريش - بيعة الرضوان - شروط المعاهدة . وقع المعاهدة في نفوس المسلمين - غزوة خيبر - فتح حصن ناعم والصعب - فتح حصن القموصى - تعيين على قائدا - دس السم للنبي - مصير أهل خيبر - إستسلام فدك - غزو حصنى الوطوح والسلام قدوم اللاجئين من الحبشة - إشراك اللاجئين فى غنائم خيبر - عام رسل النبي وكتبه إلى كسرى وعامله باليمن - إلى هرقل - الي المقوقس وجريج بن متي - إلى أمير الغساسنة والبلقاء - إلى ملك اليمامة - إلى النجاشي - إلى أمير البحرين - عمرة القضاء - زواج ميمونة - إسلام صناديد ثلاثة - غزوة مؤتة - هزيمة الروم وعملائهم - البيان الحربي عن المعركة .. الحزن علي القادة .

الفصل الثانى - من الفتح إلى مرض النبي .

فتح مكة - وساطة أبي سفيان - حاطب وأسرار الحرب - تحرك الجيش - تنظيم الهجوم - دخول النبي مكة - تطهير الكعبة - الأذان فوق الكعبة - بيعة النساء - إعلان المبادئ الرئيسية للحكم - المحكوم عليهم غياباً - النسوة المحكوم بقتلهن - تحطيم الأصنام فيما يجاور مكة - نشأة الوثنية في العرب - هل حقاً كان أصحاب النبي دعاة حرب واستعباد ؟ - يوم الغميصاء . تنفيذ

الصفحة

الموضوع

تهمة خالد - يوم هوزان : تفنيد اتهام النبي بالخدا ع لاصحابه -
 أكان للنبي عرش مذهب ؟ - غزوة الطائف - أسري هوزان -
 كيف تم توزيع الغنائم ؟ - عمرة رسول الله - موت حاتم الطائي
 - إسلام عدي بن حاتم - عام الوفود - وفد بني حنيفة - وفد
 ثقيف - العفوعن كعب بن زهير - غزوة تبوك . تخلف
 المنافقين - المخلفون - التائبون - استخلاف علي - السير الى
 تبوك - معاهدة أيلة - صلح أذرح وجرباء - مسجد الضرار -
 التوبة علي المخلفين - إسلام ثقيف - حجة أبي بكر - وفود
 اليمن - موت إبراهيم - تولي علي قضاء اليمن - زحمة واجبات
 النبي - حجة الوداع - تصحيح التقويم .

الفصل الثالث - خاتمة الحياة والكتاب

٢٣٦

- بعثة أسامة - ثروة الأسود العنسي - الاستبراء من حقوق
 الآخرين - استخلاف أبي بكر في الصلاة - شعائر الجنازة -
 الكتاب الذي أراد النبي أن يكتبه لأمتة - دخول ملك الموت -
 تناقض الكاتب - آثار نعي النبي في المسلمين - إنتخاب أبي بكر
 - الصلاة علي جثمان النبي - الدفن - رثاء فاطمة لأبيها - رثاء
 صفية - وصف الرسول - تعدد زوجاته - الرد علي المستشرقين
 - أولاد النبي - خاتمة - دعوى أن القرآن جمعه محمد من الكتب
 السابقة - امتياز اللغة العربية - موجز لسيرة الدعوة الإسلامية -
 وشهد شاهد .

٢٥٩

المراجع

٢٦٥

ثبت بالموضوعات

هذا الكتاب

- هو عرض كامل « لمختصر حياة محمد » للمستشرق الفرنسي « م. سفاري » قدم به لترجمته للقرآن الكريم باللغة الفرنسية ، ولفق فيه أحداث السيرة النبوية لتحقيق غرضه في تصوير الرسول العظيم - ﷺ - على أنه شخصية فذة وليس نبياً مرسلأ ، ساعدته الصدفة المدهشة لإيهام العرب بأنه نبي مرسل وأتقن - كما زعم - دوره التمثيلي حتى في ساعات الاحتضار .
- وقد أعد الأستاذ الكبير الدكتور / عبد المتعال محمد الجبري دراسة واسعة مستفيضة هوى فيها بمعول الحق على المغالطات والمفتريات وعلى ما يقوله المستشرقون في السيرة النبوية فإذا الباطل زاهق ، وإذا الحقيقة ساطعة وشامخة مدعمة بكل الحجج والبراهين والأسانيد والمراجع .. فجاء الكتاب مناقشة علمية ، وعرضاً موضوعياً جاداً لطريقين متعارضين .. الضلال والهدى ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ والكتاب يعد حلماً راود كثيرين من الغيورين على الإسلام .
- وقد ترجم الأصل الفرنسي الأستاذ / محمد عبد العظيم علي ، ترجمة أمينة بأسلوب جمع بين الجذالة والسهولة .
- ودار الدعوة تقدم للعالم الإسلامي « السيرة النبوية » في دراسة بأسلوب جديد وغير تقليدي يتناسب مع ما يواجه الفكر الإسلامي المعاصر من تحديات ..

والله من وراء القصد ،

دار الدعوة

Bibliotheca Alexandrina



0338158